
مذكرات هندنبرج



تاريخ حياة المارشال هندنبرج مع أعماله في الحرب الكبرى

Aus Meinem Leben

وضعه

الفليد مرشال فون هندنبورج

رئيس اركان حرب الجيوش الالمانية

عربه

احمد رفعت

مذيلاً

بدليل عن اهم المدن والاماكن التي حدثت فيها وقائع الحرب العظمى

(مشروح شرحاً وافياً)

الجزء الاول

يطلب من المكتبة التجارية باول شارع محمد

لصاحبها مصطفى محمد

شركة دار الطباعة الفنية

المستهل

انني بتدوين هذه المذكرات لم اقصد مجرد التسلي بالكتابة وانما اطعت عوامل الحث التي كنت تحت تأثيرها .

ولا ازيد أن أضع مؤلفا تاريخيا بل أريد أن اصف التأثيرات التي شعرت بها في مدى حياتي وايضاح المبادىء التي رأيت بمقتضاها انه يجب علي أن ارتب آرائي وأعمالي واني بعيد عن التفكير في وضع كتاب للتبرير أو للانتقاد وعلى الأخص لكتابة ما تشتم منه رائحة الثناء على نفسي . ولقد فكرت وعملت وأنا إنسان كسائر الناس وارتكبت ما بدر مني من الهفوات وأنا كرجل من أفراد الرجال . ولم أكن منقاداً في حياتي وفي أعمالي برغبة تلقى عبارات الثناء علي والاعجاب بي من أي شخص كائنا من كان بل باقتناعي الخاص و بواجبي و بضميري .

ولقد كتبت هذه الذكريات في أتعس الأوقات التي اجتازها وطننا ومع ذلك فانني وأنا أكتبها لم أشعر بزوجي تحت عبء اليأس الباهظ الأليم . بل كنت أنظر وسأظل انظر على الدوام بغير تزعزع أو تلفت إلى على وإلى أمامي على خط مستقيم .

واني أقدم هذا الكتاب الى كل اولئك الذين حاربوا معي على الجبهة أو في الداخل لاجل عظمة وبقاء الامبراطورية الألمانية .

سبتمبر سنة ١٩١٩

القسم الأول

ماضى حياتى الى عام ١٩١٤

اعوام السلم وسنوات الحرب

شبيبتى

فى ليلة من ليالى الربيع فى عام ١٨٥٩ وأنا طفل لاأتخطى الحادية عشرة من العمر ودعت أبى عند سياج المدرسة الحربية وهلستات بسيليزيا . ولم يكن هذا الوداع موجها الى أبى المحبوب جداً فقط بل كان موجها الى حياتى الماضية أيضا . ولقد اجرى هذا الشعور مدامعى ولكن فكرة مرت على بالى بسرعة البرق وهي : « أنه فى هذا الموقف لا يجب التظاهر بالضعف ولا البكاء » فاطرحت آلام الطفولة جانبا وانضممت الى زملائى وأنا أجاهد عواطفى .

ولم يكن اندماجى فى حياة الجندية نتيجة تصميم حديث بل هو أمر طبيعى . فاننى كنت فى كل ألعاب الطفولة وتصوراتها كلما أردت أن أتخير طريقة للتسلى وقع اختيارى على الشؤون الحربية . وذلك لان خدمة الملك والوطن بالسلاح كانت عادة قديمة متبعة فى اسرتنا .

ولقد كان أول ظهور اسرتنا فى عام ١٢٨٠ ولا زالت تتنقل حتى انتهت الى بروسيا . وفى هذه الولاية خاض غمار الحرب مراراً عديدة افراد من عظماء الرجال يتسمون باسمى فى صفوف الفرسان التيتونيين كاخوان فى السلاح أو « كضيوف فى الحرب » ضد الوثنيين والبولونيين ثم أخذت علائقنا تزداد توثقا مع شرق ألمانيا على أثر حيازتنا أملاكا فيها

ولقد اكتسبنا اسم هندنبورج مضافا الى اسمائنا الأساسية أول مرة عام ١٧٨٧ . وكنا قد صاهرنا هذه الاسرة حينما كانت اسرتنا فى مارش الجديدة بعد انتقالنا من مارش القديمة .

وقد سمح الملك فردريك غليوم الثانى بضم اسم اسرتينا بعضهما الى بعض فاصبحنا جميعا نسمى « هندنبورج وبنيكندورف »

وكان أجدادي عائشين فى نوديك على عهد طفولتى . والآن هم رقود فى مقبرتها كرقاد أبوي وكثيرين ممن يحملون اسمى هذا فى تلك المقبرة .

ولقد كنا نذهب كل عام تقريبا الى زيارة أسلافنا أثناء فصل الصيف وطالما عانينا مشقات الارتحال ركوبا فى المركبات الضخمة التى كانت تقودها الجياد فى الزمن السابق . وقد أحدث فى نفسى ما قصه علي جدي تأثيراً شديداً إذ كان ملحقا بآلاي « فون لا نجن » الى عام ١٨٠١ فقد قص علينا كيف ذهب فى فصل الشتاء الواقع ما بين عامي ١٨٠٦ — ١٨٠٧ الى قصر فينكانستين بصفته مستشاراً زراعيا ليطلب من نابليون الأول تعطيل جميع الضرائب وكيف قوبل طلبه بالرفض . وكذلك سمعت منه أنباء مرور الفرنسويين من خلال نوديك واقامتهم بها مدداً وجيزة .

وكذلك عمى الفون ديرجروبين كان مولعا بسرد تفاصيل المعارك التى حدثت عام ١٨٠٧ فى تلك الجهة . فالروسيون اجتازوا القنطرة القائمة

على نهر الباسارج بجوار تلك البلدة الا أنهم عادوا مدحورين وكان أحد الضباط الفرنسويين يدافع عن أملاك عمى مع ثلة من الجنود فقتل برصاصة طلقت عليه من الشباك . ولم يحاول الروسيون اجتياز هذه القنطرة مرة اخرى الا فى عام ١٨١٤

بعد وفاة أجدادى توطن أبواي فى بلدة نوديك . وبهذه الطريقة أصبحت نوديك مستوطن اسرتنا الدائم . وفى تلك البقاع التى ذقت فيها حلاوة الصبا اثناء الأعوام الأولى من حياتي كنت أقضى ومعى روجى وأبنائى أيام العطلة من الاعمال متمليا بالراحة والنعيم .

وعلى هذا الاعتبار فكيفما كانت مهنتى التى احترف بها تدعونى الى الذهاب والاستيطان فى أي مكان من الوطن الألمانى فاني أشعر دائما بان الدم البروسي يجرى فى عروقى خلواً من كل شائبة.

وقد ولدت من تبعة عسكرية فى عام ١٨٤٧ بمدينة پوزن وكان أبى حينذاك ملازما أول فى الآلاي الثامن عشر من المشاة . وكانت أمى بنت المفتش الطبي شويكارت الذى كان مقيما كذلك فى پوزن .

وكانت حياة سلالتنا كلها شريفة تقية منصرفة الى تأدية الواجب وان كانت بسيطة وخالية من الفخفخة ومصحوبة بمتاعب الاعمال التى يؤديها أفراد اسرتنا . وهذا هو السبب فى ان والدى لم يكن يشغل نفسه وأوقاته الا بشؤون فنه . ومع هذا فقد كان يختلس فرصا من الوقت يقضيها مع والدتى فى تهذيب ابنائها . وكان لى اخوان أصغر مني سنا واخت . وكانت طريقة معيشة أبوي العزيزين متشبعة بالفضيلة ولكنها متجهة أيضا الى الجهات العملية من الحياة فلذا بدت عليها دلائل التناسق التام فى مظاهرها . وكانت اخلاقهما يتمم بعضها بعضا فأمى تجنح الى حياة

القناعة الشديدة وغالبا تنساق الى شواغل البال وأما أبى فبخليقته اميل الى الهدوء . وقد ارتبط قلباهما برابطة شغفهما الزائد بنا حتى أنهما استطاعا أن يعملا باتفاق تام على تهذيب ابنائهما وتنوير عقولهم . ولهذا أجد من المتعسر علي أن أقول من منهما أعظم فضلا فى تأديبي وان أبين ما كان كل واحد منهم يريد أن يكون له من التأثير الخاص فيه . وحاول أبوانا أن يجعلانا أشداء الاجساد صلاب الاعواد وأن يفيضا علينا ارادة قوية تمكننا من أن نؤدى بشجاعة واجباتنا التى تنتظرنا فى خلال حياتنا على أنهما كانا يبذلان الجهد أيضا فى تنبيه وانماء العواطف الانسانية فينا وان يهديانا أحسن ما يسديه الأبوان الى ابنائهما واعنى به : الضمير المعتمد على الله مولانا وكذا حب وطننا بدرجة متناهية ، وحب تلك التي يعتقدان أنها أقوى ظهيرة لهذا الوطن وهي مملكتنا بروسيا . وقد جعلنا والدنا نحتك منذ نعومة أطفارنا بالحياة الحقة . فايقظ فينا ونحن في حديقتنا وفى أثناء جولاتنا الخارجية حب الطبيعة باظهاره محاسن الارياف الينا ولقننا معرفة الرجال وتقدير منازلهم فى حالتي حياتهم وعملهم . وإنى ان قلت نحن فانما اطلق هذا الضمير على اكبر اخوي وعلي . أما تربية أختى وهي التى تجيء فى درجات السن بعد اخى هذا فقد اختصت بها أمى وهذا أمر طبيعى تقضي به العادة ، وأما أخى الاصغر فولد قبيل دخولى المدرسة الحربية بزمن وجيز

وبما أن وظيفة الجندية تقتضى تغيير الحاميات دائما فقد اضطر والدي الى الانتقال من بوزن الى كولونيا ثم الى جراوديتز (فى مقاطعة بوزن) ثم الى جلوجاو فكوتبوس . وهنا أحيل والدى على المعاش وانصرف الى بلدة توديك

ولم يستقر فى ذاكرتى سوى النذر من ذكرى ما عرض لاسرتنا من الشؤون أثناء اقامتنا فى بوزن . فقد توفى جدى لامى بعد ولادتي بعهد وجيز وكان قد أحرز وسام الصليب الحديدى فى معركة كولم عام ١٨١٣ بصفته طبيبا عسكريا فى احدى الوحدات المقاتلة لانه أفلح فى لم شعث طابور مهزوم واعادته الى ميدان القتال بعد ان طاح فى المعترك ضباط الطابور. وكانت جدتى تقص علينا غالبا كثيراً من أنباء «العهد الفرنسوى» وهو ذلك العهد الذى كانت مقيمة أثناءه فى بوزن وهى لا تزال شابة . ولا أزال أرى حتى اليوم بستانيا من اتباع أجدادى أدى الخدمة مدة أربعة عشر يوما تحت حكم فردريك الكبير وبهذه الرؤية يتراسل الىّ نوع ما آخر شعاع من شمس الماضى المملوء بمجد فردريك الكبير .

وفى عام ١٨٤٨ اشتعلت نيران الثورة البولونية وامتد لهيبها الى مدينة بوزن . فذهب أبى الى آلايه لاطفاء جذوة هذه الثورة . وقد تحكم البولونيون مدة من الزمن فى شؤون هذه المدينة . وكان من المحتم اضاءة المدينة احتفاء بدخول زعيم الثائرين البولونيين ميروسلاوسكى . وقد اضطرت أمى الى الاشتراك فى معالم هذه الحفاوة ولكنها استقرت فى سكنها وأخذت تعزى نفسها وهى جالسة بجانب مهادى بتوجيه فكرها الى ان هذا اليوم نفسه وهو ٢٢ مارس هو يوم عيد « أمير بروسيا » وباعتبارها ان الانوار المزدانة بها نوافذ الغرفة المطلة على الشارع انما هى بحسب ما استقر فى نفسها احتفاء منها بعيد ذلك الامير . وبعد انقضاء ثلاث وعشرين سنة على ذلك العهد شاهد الطفل الذى كان فى المهاد حفلة تتويج الامير البروسى سابقا امبراطوراً للممالك الالمانية المتحدة تلك الحفلة التى أقيمت فى الرواق الزجاجى بضاحية فرساى للامبراطور غليوم الأول

ولم يطل عهد اقامتنا بكولو نيا ولا بجراودنز . وأحفظ من آثاركولو نيا ذكر كتدرائيتها الفخمة التي الى ذلك الحين لم يكن قد استتم تشييدها.

وأما فى بين فقد ترأس أبي جريا على مألوف ذلك الوقت مدة أربعة أعوام بلوكا من اللاندوهر ولم يكن مستغرق الوقت فى تأدية عمله حتى انه فى اثناء هذه السنوات التي ابتدأ عقلي بصفتي طفلا أن يتيقظ فيها استطاع أن يتفرغ بنوع خاص لاطفاله . فلقنني علم تخطيط البلدان واللسان الفرنسوى بينما كان كوبيلت استاذى فى المدرسة الذى لا أزال حتى اليوم أحفظ له ذكر فضله يعلمني التلاوة والكتابة والحساب . ومن ذلك العهد ابتدأ ايثارى علم الجغرافيا على ما سواه وهو الايثار الذى عرف أبي كيف يبعثه فى نفسي بطريقة التلقين الواضحة المقوية للنشاط جداً . وأمدتني أمى بأول التعاليم الدينية فى ألفاظ تحدرت الى قلبي . وفى أثناء هذه السنوات وبفضل هذه الطريقة التعليمية كانت علائقى مع والدي تزداد توثقا على الدوام وهى تلك العلائق المرتكزة بالتأكيد على سلطة مطلقة تحرك لدينا نحن الاطفال فى الوقت نفسه شعوراً لا حد له من الثقة أكثر من الخضوع الاعمى الى تسلط شديد القسوة .

وبين هى بلدة صغيرة تتاخم احدى اقطاعيات الاشراف . وهذه المزرعة ملك سيدة تدعى فون رابارت كنا نذهب الى ضيعتها غالبا . ولم يكن لهذه السيدة أطفال غير انها كانت تحب الاحداث كثيرا . وكان أخوها ما سنباخ مقيما على مقربة منها فى اقطاعية بيالوكوسز فوجدت بين أطفاله العديدين عدة رفاق حميدى العشرة . وظلت ذكرى بين دائمة التردد على ذاكرتى . وعند ما كنت قافلا من بوزن فى خريف عام ١٩١٤ عطفت على تلك البلدة الصغيرة زائراً وولجت وعلى مسحة من التاثر البيت الصغير

الوديع الذى كان موجوداً فى قسم القرية التى قضينا بها سابقا حياة أسرة متمتعة بأوفر نصيب من السعادة . ومالك المزرعة الحالى هو بن احد رفقائى فى اللعب سابقا وهذا الرفيق قضى نحبه منذ زمن ما .

وفى مدة اقامتنا بجلوجاو دخلت المدرسة الحربية بعد أن قضيت عامين فى هذه البلدة بمدرسة الاقليم وبالكلية الانجيلية . ولقد سمعت انهم حفظوا لى ذكرى حسنة فى جلوجاو اذ علقوا على البيت الذى اقمنا به غابراً لوحة تاريخية تذكر بعهد اقامتى فى هذه المدينة . ورأيت جلوجاو المرة الثانية بابتهاج حينما كنت رئيس البلوك المخيم بالمدينة المجاورة لها وهى فروستادت . .

ولو ألقيت نظرة الى الماضى على الشطر الذى نعته من حياتى فيما تقدم من السطور لوجب علي أن أقول أن تأديبي الاول كان مرتكزاً على أصح المبادىء . وهذا هو السبب فى انى عندما تركت منزل أبوى استشعرت ثقل ما خلفت ورائى ولكننى كنت شاعراً بجلال ما استودعاه نفسى للمثابرة على اجتياز طريق الحياة ولم اتخل عن هذا الشعور طول حياتى .

واستطعت أن أتنعم وقتا طويلا بحب أبوي المتجدد دائما والذى لم يطرأ عليه أى فتور وهو الحب الذى شمل فيما بعد زوجي وأبنائى . وفقدت والدتى وأنا قائد آلاى وانتقل أبي من الحياة الدنيا قبل قيادتى الفليق الرابع بعدة وجيزة .

ويمكن القول بتمام الحرية والاخلاص ان المعيشة فى المدرسة الحربية البروسية كانت شاقة فى ذلك العهد . وكان أساس التربية والتعليم فيها قائما على انماء الجسم وتقوية الارادة . وكان الاهتمام بقوة العمل والابتهاج بتحمل التبعة يضارع الاهتمام بتلقى العلوم . ولم يكن فى هذه الطريقة

التعليمية شيء من التعصب الى الرأى بل كانت عليها مسحة من القوة . فكل امرىء كان في وسعه بل كان من الواجب عليه أن يقوى بتمام الحرية مزاياه الشخصية الخاصة به على شرط أن تكون سليمة من كل شائبة . وكان يوجد فى هـذا التعليم أثر من روح يورك من ذلك الروح الذى يفهم غالبا فهما سيئا من الانتقادات العرضية التى توجه اليه . واذا كان يورك فى الحقيقة ازاء نفسه وازاء سواه معلما ومؤدبا شديداً فهو بالمثل كان يطالب لجميع مرؤسيه حق وواجب العمل باستقلال كما يتمسك هو نفسه بهذا الاستقلال فى معاملة كل انسان . وهكذا أصبح روح يورك لافى شدته العسكرية فقط بل في حريته أيضا أحد المميزات القيمة التى اختص بها جيشنا

ولا أقدر أن أفقـه ذلك الاهتمام العظيم الذى توجهـه كافة المدارس الاخرى الى تعليم اللغات الميتة ذلك التعليم المتبع فى المـدارس الثانوية . لان الفائدة العملية من تلقى هـذه اللغات لا تتضح لى جليا . فاذا شئنا أن نجعل هذه اللغات وسيلة لبلوغ احدى الغايات فان دراستها تستغرق شطراً كبيراً جداً من برامج التعليم وتتقاضى عملا جماً . وباعتبارها دراسة خاصة فهى ليست من مقتضيات الشباب . وكان بودى ولو اعتبرت كمني مغلق الذهن ان تؤثر تلك المدارس تعليم اللغات الحيـة والتاريخ الحديث واللغة الالمانيـة والجغرافيا وفن ترويض الاعضاء على اللغتين الافريقيـة واللاتينية . وهل من الضرورى أن يعتبر فى المنزلة الأولى على عهدنا هذا ما كان يعتبر أساساً للتعليم فى الازمنة الوسطى الحافلة بالظلام ؟ ألم نتخذ لنا منذ تلك الازمنة بعد حروب طاحنة وشـغل ناصب تاريخا خاصا بنا وآدابا وفنونا مختصة بنا ؟ ألسنا في عوز الى اللغات الحية أكثر من احتياجنا

الى اللغات الدارسة لنشغل مكاننا الحقيقى فى العلائق العامة بين الشعوب المنتشرة على وجه الارض ؟

ولا ينبغى استخلاص أى جنوح الى امتهان الاعصر العتيقة من خلال ما أوضحته . بل على العكس لقد كان لتاريخ تلك الاعصر استهواء عظيما للبي وأنا لا أزال فى ليونة الشباب . وكنت شغوفا على الاخص بالتاريخ الرومانى . وكان له علي شبه نفوذ أكاد أحسبه سحراً وهو شعور ازداد تأثيره لدى فيما بعد عند ما قصدت روما اذ اتضح لي ان المبانى والآثار العتيقة الموجودة فى تلك المدينة القديمة الخالدة اجتذبتنى أكثر من أعمال النهضة الايطالية الحديثة .

أن المعرفة الدقيقة التى كانت حاصلة عليها روما لتميز بها محاسن وعيوب الطبع العام وحبها الذاتى الذى لاشك فيه والذى لاجل مصلحتها الخاصة يجعلها لا تحتقر أية وسيلة تجاه أصدقائها أو أعدائها وحفيظتها السيئة التى كانت تثيرها بمهارة وتعتمد عليها عند ما يعاملها أعداؤها بمثل معاملتها اياهم ، وبراعتها فى الاستفادة من ميول واهواء الشعوب المعادية لها وجوانب الضعف فيهم تلك البراعة التى استعملتها بشكل خاص على طريقة بالغة في الحزم ضد القبائل الجرمانية واستفادت منها أكثر من استعمال الاسلحة — كل هذه الصفات وجدت ، بحسب اختباراتى التى اكتسبتها فيما بعد ، صورتها مكملة محسنة فى حزم الحكومة البريطانية التى توصلت الى اقامة كل هذه الجوانب من الفن السياسى بنهاية الابداع حتى انها تمكنت من التغرير بالعالم أجمع .

ومع اجلالى العظيم للعصور العتيقة فقد كنت ابحث عن ابطال شبيبتى بين مواطني . وانى انما اوضح بصراحة وشرف رأيى حينما اقول ان التعصب

للفكر والجحود لاينبغى ان يدفعا نا الى ان نتناسى اثناء اعجابنا بالسيبياد او بثميستوكل او بكاتون او بفابيوس بعض رجال مثلوا فى تاريخ وطننا الخاص ادواراً تماثل على الاقل فى عظمتها اعمال عظماء التاريخين اليونانى والرومانى . ومع الاسف انى قد استخلصت عدة مرار ملاحظات محزنة فى هذا الصدد خلال محادثاتى مع الشبان الالمانيين الذين على الرغم من كل معلوماتهم اجدهم على شيء من الجهل بحقائق هذا العالم .

وحينما كنا فى المدرسة الحربية كان معلمونا ومربونا يحذروننا من هذا الجهل بشؤون العالم وانى لممتن على تحذيرهم اياى حتى الان . واختص بهذا الثناء الجنرال فون ويتيخ الذى كان اذ ذاك ملازما فى المدرسه . ولما قدمت الي واهلستات كنت مزوداً بوصاة اليه من احد اولى قرباي فظل يعاملنى مدة اقامتى هناك معاملة ودية جدا . واذ كان قد تخرج هو نفسه منذ بضع سنوات من هذه المدرسة فقد كان شعوره مثلنا يلعب معنا ولا سيما لعبة الترامى بالقذائف الثلجية فيبث فينا بنفوذه روح اليقظة وتجددا النشاط ، وزيادة على هذا فانه كان حاصلا على مزايا عملية يتحلى بها المدرس البارع . وفى عام ١٨٥٩ لقننى وانا فى الفصل السادس علم الجوغرافيا وبعد ستة اعوام علمنى فى برلين فى سلكتنا علم الطبوغرافيا . ولما دخلت المدرسة الحربية العليا بعد مرور بضعة أعوام الفتيه معلما فيها وهو حينئذ اللواء فون ويتيخ . وحينما كان ملازما كانت عناية متجهة الى التاريخ العسكرى وكثيراً ما كان يعرض علينا فى تروضاتنا ايام الآحاد فى اماكن يعدها للتدريبات الصغيرة صوراً واضحة جداً لتفاصيل المعارك التى حدثت عام ١٨٥٩ فى ايطاليا العليا مثل معركتى ماجنتا و سولفرينو . ولقد دفعنى فيما بعد وانا لا ازال تلميذاً حربياً على

دراسة التاريخ العسكري وهكذا جعلني انتهج منذ شبيبتي السبل التي صار لها شأن هام في مستقبلي لان التاريخ العسكري هو اعظم معلم لدرس شؤون الوحدات الكبرى . وحينما اندمجت فيما بعد في مصاف اركان الحرب كان القائد فون ويتيح يشغل مركزاً سامياً في اركان الحرب واخيراً تقلدنا سوية قيادة فيلقين . وثمت امر لم يكن التلميذ الصغير وهو في الفصل السادس من مدرسة واهلستات يتألم منه قط اذ يجد الملازم فون ويتيخ يضربه بلطف في خلال درس الجغرافيا على اصابعه بالمسطرة لانه خلط ما بين اسم الجبل الابيض واسم الجبل الوردي .

ولم تتألم خليقتنا الطيبة مدة اقامتنا في مدرسة الاطفال الاشراف الحربية المعهودة بالشدة . ويجوز لي الشك في ان ريعان الشباب الذي كان شاملنا نحن أبناء الاشراف ولذي كان يتخطى بنا أحيانا كل الحدود في سائر معاهد التعليم الاخرى . اذ كنا نرى غالبا في اساتذتنا قضاة واسعي الصدور يعرفون كيف يفهموننا .

أما فيما يختص بي فلم أكن قط في السنوات الاولى ذلك التلميذ الذي يعتبرونه في الحياة العادية النموذج المحتذى . اذ اتجهت همتي في بادىء الامر الى التغلب على ضعف جسماني ناجم عن مرض قديم . واذ كان جسدي يتقوى تدريجيا بفضل طرق التربية الناجحة المتبعة في المدرسة فقد ظهر في أولا الميل الى الانقطاع لدرس العلوم خاصة ولم تتحرك في نفسي رغبة التطلع الى العلا الا بالتدريج وعلى أثر البراعة التي امتزت بها في السنوات التالية وكانت هذه الرغبة تزداد لدي حتى أدت بي الى اكتساب شهرة لست أهلا لها وهي اني تلميذ جم المزايا .

وكيفما كان اعجابي باسم التلميذ الحربي الملكي فاني كنت اهتف ليوم

العطلة الذى نقضيه فى بيوت اسرنا هتافا مصحوبا بالسرور والابتهاج . مع أن الاسفار كانت اذ ذاك حافلة بالمتاعب والمشقات ولا سيما فى الشتاء . وكانت المسافة التى نقضيها ببطء فى السكة الحديد التى لا أثر للتدفئة فى مركباتها نقضى فى المركبات الضخمة المقادة بالخيل اطول واشق منها . غير أن هذه المشقة كانت تتلاشى ازاء أملنا فى رؤية بيت الاسرة ومشاهدة الأب والأم والاخوة والاخوات . وكان قلب الأم أشد اشتياقا الى ابنها من اشتياق ابنها اليها . وعلى هذا اتذكر انى فى أول دفعة ذهبت فيها من المدرسة الى جلوجاو فى عطلة عيد الميلاد ركبت مع بعض الزملاء من لايبنيتز مركبة بريد قضيت فيها سائر ليلتى وبالنظر لشدة سقوط الجليد لم نصل الا ليلا ايضا الى جلوجاو . وكانت امى العزيزة جالسة فى الغرفة الصغيرة المنارة نوراً ضئيلا والتى لا تكاد تظهر فيها آثار التدفئة الا بالجهد والتى يدعونها قاعة المسافرين وكانت تخيط جوارب صوفية كانها لا تريد ان تستسلم الى القلق المتحكم عليها لرؤية احد أولادها المحروم مما يتمتع به أولادها الآخرون .

وفى خلال السنة الاولى من إقامتى فى مدرسة أبناء الاشراف الحربية فى بحر عام ١٨٥٩ زار الامير فردريك غليوم وزوجه وهو الذى صار فيما بعد الامبراطور فردريك المدرسة فى واهلستات . وكانت هذه فرصة لاغلبنا يرون فيها لاول مرة اعضاء من اسرتنا المالكة . ولم نرفع فى احد تمريناتنا على الاطلاق سيقاننا مثل ما رفعناها فى استعراض ذلك اليوم . وكذلك لم نؤد من التمرينات على الالعاب الرياضية بدرجة خطرة كما فعلنا فى الالعاب التى قمنا بها بعد الاستعراض . ولبثنا مدة طويلة بعد هذه الزيارة نتحادث فيما بيننا بطيبة هذين الاميرين .

وقد احتفل فى اكتوبر من تلك السنة بآخر عيد سنوى لميلاد الملك فردريك غليوم الرابع . وتحت حكم هـذا الملك لبست الثوب العسكرى البروسي الذى يجب أن يبقى عندى الى أن أموت كثوب فخار وشرف . وفى سنة ١٨٦٥ تشرفت بان تعينت حاجباً للملكة الزابيت ارملة ملكنا . والساعـة التى اهدتنيها الملكة اليزابيت كانت خير رفيـق لى فى ثلاث حروب .

وارتقيت فى عيـد فصح سنة ١٨٦٣ الى الفصل الثاني فاقتضى نقلى الى برلين . وكانت مدرسة ابناء الاشراف الحربية فى هذه العاصمة موجودة فى فردريك ستراس على مقربة من الكسندر بلاتز وهذه اول مرة رأيت فيها عاصمة بروسيا وامكننى ان اشاهد بعد طول الترقب مولاي العظيم الملك غليوم الاول اثنـاء الاستعراضات العظيمة التى تقام فى الربيع فى لندين وميـدان الاوبرا وكذلك شاهـدته فى استعراض الخريف فى ساحة تمبلهوف .

وفى عام ١٨٦٤ دخلت حياتنا المدرسـية فى طور الرزانة والتحمس فان الحرب كانت قد شبت بيننا وبين الدانيمرك فاستأذن فريق منا فى الربيع فى ان يتخلى عن الدراسة ويلحق بصفوف المحاربين . ومن الأسف ان سنى الصغير لم يسمح لى اذ ذاك بان اكون بين هؤلاء الزملاء فى عملهم الذى يحسدون عليه . ولست فى حاجة الى وصف بعض الامانى الملتهبة التى كانت تجول فى خواطرنا ونحن نودع زملاءنا المرتحلين

ولم نكن في ذاك الوقت نفكر فى العوامل السياسـية التى حملت على أشـتعال نيران الحرب ولـكننا كنا نشعر بروح العظمة التى تدفعنا الى الاعتماد فى لم شعث الممالك الجرمانية على الاعمال بدلا من طريقة الاقوال

والمستندات المهمة وقد تتبعنا سير القتال باهتمام وشاهدنا ونحن مغمورين بنشوات الحبور وصول المدافع التي اكتسبناها من العدو ورأينا ايضا اوبة جيوشنا المنصورة . وكنا نحسب انفسنا مصيبين فى تخلينا اننا متقمصون بذلك الروح الذى حدا بجيوشنا الى الفوز فى ساحات الحرب على الارض الدانيمراكية . فهل من المستغرب بعد هذا اذا مللنا من انتظار اليوم الذى يتهيأ لنا فيه الاندماج فى صفوف جيوشنا ؟

وقد حظينا قبل هذه الحرب بشرف المثول بين يدي ملكنا فدخلنا القصر لاجل هذا المقصد . وكان من الواجب على كل فرد منا ان يذكر لجلالة الملك اسم ابيه وحرفته . وكثيراً ما ارتج على الطلبة فى باديء الامر فلم تجل ألسنتهم فى أفواههم من فرط ما عراهم من الرهبة . ولا بدع فاننا لم نحظ بشرف التقرب من ملكنا الذى ابيض فوداه من قبل ولم نر عينيه وهما تفيضان علينا نظرات الحنو . بل لم نكن سمعنا صوته كما حدث اليوم اذ قال لنا كلمات قيمة حثنا بها على تأدية الواجب فى اعصب الاوقات الحرجة . وستسنح لنا الفرص التى ننفذ فيها اوامره بعد وقت قصير وانى عرف كثيرين منا انهى حياته فى الاخلاص والامانة للملك .

وفى ربيع عام ١٨٦٦ تركت المدرسة الحربية ولأزال أتذكر فضل هذا المعهد الحربى علي الى الآن . وكنت افرح جداً كلما رأيت زملائى الشبان يمتلئون آمالا وهم فى لباسهم الملكى . وفى خلال الحرب العامة كنت أسر برؤية ابناء مساعدي واصدقائى وزملائى الذين سقطوا صرعى فى ساحة المجد جلوسا على مائدتى . واتفق ان بدأت عيد مرور السبعين سنة على حياتي فى خلال الحرب باستدعاء ثلاثة من تلاميذ المدرسة الحربية كانوا مارين فى أحد شوارع كروزناخ ليجلسوا حول

مائدتي الحافلة باصناف الطعام ايشاركوني في أكلة الافطار بتناول ما لذ من الاطعمة والحلويات التي اهديت الي فتقدموا الي كعهد السباب الدائم بحرية وبغير كلفة عارضين علي صوراً حية للأعوام المنقضية منذ عهد طويل وهي ذكريات الأيام التي كنت أقضيها أنا نفسي .

في ساحة القتال

الذي نشب لاجل عظمة روسيا وألمانيا

تعينت في ٧ ابريل عام ١٨٦٦ ملازماً ثانيا في آلاي حرس المشاة الثالث . وهذا الآلاي ينتمي الى الوحدات التي انشئت خلال عامي ١٨٥٩ — ١٨٦٠ حينما ازداد عدد الوحدات العاملة ازدياداً كبيراً . ولما اندمجت في سلك هذا الآلاي الحديث كان قد أحرز شارات المجد في حرب ١٨٦٤ . ان الماضي المجيد الذي اكتسبه فيلق يشمل كل المنضمين اليه ويربط بين قلوبهم برابطة الاتحاد التي لا تتفكك حتى في أحرج المواقف . وان في هذا الارتباط قوة لا تغالب بل تظل باسطة نفوذها حتى في الآلايات التي يحدث فيها التغيير كما جري مثل هذا في الحرب الأخيرة اذ احتفظت بقايا آلاي متفرق بروح اتحاده ومجده فسرى هذا الروح الى سائر العناصر التي استجدت في هذا الآلاي .

ولقد ألفيت في آلاي الذي تألف من الآلاي الأول من الحرس المشاة روح مدرسة بوتسدام الصحيح القديم ، ذلك الروح الآتي من أحسن التقاليد التي كانت متبعة في الجيش البروسي فيما سلف ولم تكن

لهيأة الضباط البروسية اذ ذاك ثروة مكنوزة وهذا أحسن ميزة كانت لتلك الهيأة . راعا كان قوام ثروتها عدم الاحتياج . أما الرابطة التى كانت تربط الضباط وهم يدركونها تمام الادراك لاعتقادهم أنها تصلهم بملكيهم — وهي التى أطلق عليها أحد مورخي الالمان اسم الاخلاص للأمير — فكانت العوض الوحيد لهم عما ينقصهم من متممات المطالب المادية . وكانت هذه الأمنية القيمة ذات فائدة جلى لجيشنا و بهذه الطريقة صار للفظة «خدمة» مدلول خاص .

وكثيراً ما زعموا أن هيأة الضباط بتمسكهما بهـذه النظرية في مهنتها لم تجنح الى أي عمل آخر . وماشاهدت فى هذا الوسط تخصصا بالاعمال أعظم من التخصص الموجود فى سائر المهن الاخرى التي يتساندون فيها بالمرافق وهـذا مايدل على أن أعضاء كل هيأة لا يمكن ان تكون فى حالة احسن من التواجـد بين أقرانهم . وتوجد صورة واضحة تماماً تصور الروح الذى كان مستولياً إذ ذاك على مجموع الضباط البروسيين في كتاب خطه وزير الحربيـة رون . فان هيأة ضباط ذلك العهد موضحة فيـه كمجموعة اريستقراطيـة محكمة التضام ولكنها غير منعزلة ولا بعيدة عن الحياة العامة ولا هي عروفة الامتزاج بالعناصر الحرة وهي مع النزول الى أحكام الصواب لاتزال قديرة في خصيصتها . ولقـد ظهرت فى هيأة الضباط المذكورة نزعة حديثـة ترمي إلى اسمى درجات الكمال معتمدة على التدقيق فى التأديب اللازم لهـذه المهنة وهذه النزعة نهضت فى وجه تلك الغايات التي كان الناس يتعاقون بها فيما سلف .

وكان أشـد النازعين الى هـذه الامنية ابنـاء الاسرات القديمـة من

المحافظين وانتصار الامبراطورية فى بروسيا . وقد أيد هذه الامنية الشعور بقوة الحكومة وسلطانها المتمكن من النفوس ثم جاءت النهضة التى نهضها فردريك بقصد أن يمهد لبروسيا بجيشه مجالا للعمل فوق ظهر الغبراء متمما للمساعدات الجلة التى تأيدت بها تلك النزعة الشريفة المحمودة .

ولما انخرطت فى سلك آلايى وكان حينئذ مرابطاً فى دانتزيج كان قد بدأ يتلبد الافق اكفهراراً من جراء المشاكل السياسية التى حدثت فى الاشهر التالية . ولم يصدر الى ذلك الحين أمر بتعبئة الجيوش للزحف على الدوله النمسوية بل صدر الأمر فقط بزيادة الفرق الموجودة تحت السلاح وبدىء بتنفيذ هذا الأمر على وجه السرعة .

وعندما كنا نفكر فى المعركة الفاصلة التى ستقع ما بين بروسيا والنمسا كانت افكارنا العسكرية والسياسية تنطلق مسرعة الى اتجاه فردريك الكبير . وهذا هو الذى دعانا ونحن فى بوتسدام حيث نقل آلايننا معداته الحربية التى جهزت الى أخذ رماتنا وصفهم أمام قبر هذا الملك الذى لا يبارح البال ذكره . وكذلك الأمر الصادر الى جيشنا قبل دخوله بوهيميا ألم فى مختتمه بهذه الحالة النفسية حيث جاء ضمنه : « كونوا أيها الجنود واثقين بقوتكم وتذكروا أننا نحارب لاجل الانتصار على نفس العدو الذى قهره ملكنا الأعظم فيما غبر بجيش صغير ! »

ومن الوجهة السياسية كنا فى حاجة الى البت فى مسألة أي الشعبين أقوى ، النمسويون أم نحن لانه من المستحيل على شعبين قادرين أن يعظما ويزدادا رقياً ورفاها بحرية وهما متجاورين وتشملهما الجامعة الجرمانية . فمن الضرورى أن يتنحى أحدهما عن مكانته العليا للشعب الآخر ويعد

أن هذا الأمر لا يمكن الفصل فيه بمقتضى المعاهدات والاتفاقات فقد كان من اللازم الفصل فيه بحد الحسام . وبناء على هذا الاعتقاد فى الموقف الحربى لم يعد أحد يظن مطلقاً عندنا أن النمسا عدوة وطنية لنا . وكانت فكرة الوحدة الجرمانيـة المنتشرة بين العنصر الألماني المتغلب على سائر العناصر المتكونة منها تلك المملكة الدانوبيـة تحول دون تولد روح العداء بين هذين الشعبين . وقد اثبت مجرى الحوادث اثناء هـذه الحرب مراراً عديدة صحة هذه النظرية . فكان الاسرى النمسويون يعاملون لدينا معاملة الوطنيين الذين يتم الفصـل بينهم فى المسائل المختلف عليها فتعود العلائق القديمـة الى حالتها الاولى وكذلك أهالى البلاد المعادية بل أغلبية العنصر التشيكى اسـتقبلونا فى أغلب الاحيان بحفاوة ودية حتى أن المعيشـة فى مضاربنا كادت تشبه مثيلتها فى ألمانيا أثناء الاستعراضات الكبري .

واذا كانت أفكارنا تجعلنا نتذكر أثناء الحرب الملك فردريك فان أعمالنا كانت تقودنا بالمثل الى السير على آثار هذا الملك العظيم . وهكذا فعل فيلق الحرس الذى سافر من سيليزيا إذ دخل بوهيميا على مقربة من برانا بواسـطة عـدة ادلاء حربيين كانوا قد طافوا من قبل هذه الاماكن كلها بقطعانهم . وقد قادتنا معركتنا الأولى التى حـدثت فى يوم ٢٨ يونيه الى نفس البقعـة التى حارب فيها الحرس البروسى فى ٣٠ سبتمبر عام ١٧٤٧ وجعلتنا ننتهج خطة ايتل فنزحف على بوكرسدورف ذلك الزحف الذى قامت به تلك الفرقة فى وسط جيش الملك العظيم أثناء معركة صور وهو الجيش الذى التزم فى كل المعارك ادق الانظمة والطرق الفنية الحربية .

وأما طابورنا الثانى — وهو الذى كنت ملتحقا به بصفتى رئيس الفصيلة الأولى من رماة البلوك الخامس وهي الفصيلة المؤلفة بحسب نظام

ذلك الوقت من الصنف الثالث — فقد تعذر علينا انتهاز فرصة تمكننا من الزحف الأول لاننا بمقتضى الخطط الفنية المتبعة حينئذ لم نكن سوى جزء من الوحدات الاحتياطية التي كانوا يؤلفونها قبل نشوب الحرب على أن الفرصة لم تلبث أن سنحت لنا بتبادل الرصاص مع المشاة النمسويين في غابة صغيرة كائنة في شمال بوكرسدورف الغربي وأخذنا بعض الاسرى ثم أتيح لنا أن نهزم بنيراننا كتيبتين من الاوهلان الاعداء كانتا قد حصرتا في نقطة منكشفة لم تستطيعا التخلص منها . واستولينا على مركبات النقل فوجدنا فيها صندوق الآلاي الذي قدمناه الى الوكيل وكثيراً من الخبز الذي حمله رماتنا على أطراف الاسنة الى معسكر بوكرسدورف ، ووجدنا بالمثل صحيفة الآلاي المدونة فيها أنباؤه فاذا بحوادث الحملة الحاضرة مدونة في نفس الكراسة التي دونت فيها حوادث حرب عام ١٨٥٩ التي نشبت ضد ايطاليا . ولقد تعرفت بعد اثنتي عشرة سنة برجل كهل من مكلمبورج كان ملازماً في احدى الكتيبتين النمسويتين من الاوهلان السالف ذكرهما فباح لي بانه فقد في تلك المعركة قميصا جديداً كان قد أعده ليوم دخول جيشهم برلين ظافراً فاتحاً .

واذ لم يكن لي سوى عمل ضئيل في وقعة صور فقد اكتفيت باستنشاق رائحة البارود وبالاستعلام عن التأثير الأدبي الذي يشعر به الجند عند أول التحامهم مع الاعداء .

وفي اليوم التالي تنبهت من فخار المعركة وعرفت ما يسمونه بظهر الوسام فقد اسندوا الي بعثة محزنة تقتضي ان اهتم بمعونة ستين من الرماة بدفن الموتى الذين يغطون ساحة القتال وهو عمل شاق وزاد مشقته وجود الحصاد قائماً في الحقول . وبكل جهد شديد توصلت الى اللحاق

بعد الظهر ومعى رجالى بطاريتي الذى كان مركزه متوسط الفرقة والذى كان قد تقدم فى طريق الجنوب . وقد اضطررت غالباً الى تخطى بعض الوحدات وانا اركض فى الطريق مجتازاً الحفر العارضة امامى . ولقد وصلت فى الوقت المناسب اذ تمكنت من رؤية طلائعنا وهى تستولى بمنتهى القوة على معبر الالب فى جهة كونيجينهوف .

وعرفني يوم ٣٠ يونيه بالحقيقة الوديعة من الجوانب الصغيرة للحرب . فقد كان من اللازم ان آخذ الى تراوتناو مع حرس طفيف وفى جنح الظلام ثلاثين مركبة مفعمة بالاسرى ثم بعد التخلص من هؤلاء اعود بمركباتى ملأى بالازواد والميرة واقود هذه القافلة الى كونيجينهوف . فصدعت بالامر ولم اعد الى بلوكى الا فى يوم ٢ يوليه . وكنا قد اقدمنا على مواجهة احرج الاوقات لان فرقتي كانت ستشترك فى الغداة فى معركة كونيجراتز .

وفى الليلة التالية قمت مع فصيلة من رجالى بمهمة الاستطلاع على مقربة من قلعة جوزفستاد وفى صباح ٣ يوليه وانا غير مفكر فى شيء مما سيحدث رأيت نفسى فى مكمن بارد مشبع بالرطوبة حول منفذ كونيجينهوف الجنوبى فسمعنا حينئذ . نفير التأهب يؤذن ، وبعد قليل وصل الينا الأمر باعداد قهوة الصباح سريعاً ثم الاستعداد للزحف الى الامام . وبتدقيق الاستماع وصل الى الآذان صوت اطلاق مدافع بشدة آت من جهة الجنوب الغربى . فجرى تبادل الآراء فى صدد الاسباب التى يمكن اعتبارها بواعث لهذه المعركه . فكان الرأي السائد هو ان الجيش الأول وهو جيش الأمير فردريك شارل الزاحف من لوزاس والذى دخل بوهيميا — نحن تابعون للجيش الثانى — قد اصطدم بفيلق نمسوى منعزل .

ووصل أمر الزحف في أثناء هذه الحوادث فقوبل بصيحات الابتهاج . وكان الحسد قد دب في الحقيقة الى نفوس رجال الحرس من جراء الانتصارات الباهرة التي احرزها على ميسرتنا الفليق الخامس الذي يقوده الجنرال فون ستاينمتز وتقدمنا تحت وابل مدرار من المطر ونحن نتصبب عرقاً على الرغم من رطوبة الجو صفوفا مستطيلة مجتازين طرقاً محتفرة . وقد تولدت بين صفوفنا غيرة شديدة الى التسابق في السير وأما عندي فان هذه العاطفة بلغت من استيلائها على نفسي ان صرت اخشي من وصولنا متأخرين الى المكان المنشود .

ثم تحققت فيما بعد ان قلقي في غير محله . اذ بعد ان تسلقنا سفح وادي الألب اصبح اطلاق المدافع يشتد وضوحاً لدينا في كل خطوة نتقدمها وحوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً رأينا أحد اركان الحرب الذي وقف على ربوة مشرفة على الطريق التي نسير فيها قد أخذ يستشرف بمنظاره الافق في اتجاه الجنوب . وكان هذا هو أركان حرب الجيش الثاني الذي يرأسه اميرنا ولي العهد الذي صار فيما بعد الامبراطور فردريك و بعد مضي مدة طويلة قص علي الجنرال فون بلومانتال الذي كان رئيس اركان الحرب في هذا الجيش الثاني التفاصيل الآتية عن هذه الآونة التاريخية فقال :

« في الوقت الذي كانت الفرقة الأولى من الحرس تجتاز فيه امامنا طرقاً مفعمة بالحفر رجوت من الامير ولي العهد ان يتفضل بتبادل المصافحة معي . و بما انه نظر الي نظرة المستفسر عن سر هذا الرجاء قلت له انني اردت ان اهنئه باكتسابه المعركة لان نيران المدفعية النمسوية اتجهت من كل جانب نحو الغرب وهذا يدل على ان العدو قد اجتذب الى سائر خط الجبهة لصد الجيش الأول فلم يبق الا ان يهاجمه جيشنا الثاني في هذه الآونة من الجناح مع هجوم جزئي نوجهه الى المؤخرة وعلى اثر هذا

الايضاح كان لابد من استمرار فيلق الحرس والفيلق السادس على زحفهما مع توجيه اولهما الى الميمنة وثانيهما الى الميسرة ليتمكنا من صعود ربوة كائنة على مقربة من هورنوز وهي ربوة واضحة من بعيد على الرغم من حجاب الضباب ومتوجة بشجرتي زيزفون. وقد تبع الفيلق الأول والفيلق الخامس اللذان كانا لايزالان سائرين في اتجاه ساحة القتال آثار فيلق الحرس والفيلق السادس. ولم يصدر الامير ولي العهد في هذا اليوم امراً آخر يقتضي التنفيذ. »

واستمرت حركة زحفنا خلال الحقول ثم انتشرنا وبعد ردح من الزمن تلقينا القنابل الأولى من مدفعية العدو الكائنة على الهضاب المجاورة لهورنوز. واثبتت المدفعية النمسوية شهرتها القديمة الحسنة وقد جرحت القذيفة الأولى رئيس بلوكي وقتلت قذيفة اخرى حالا ضابط الصف المساعد لي الذي كان خلفي تماما واخيراً انفجرت قنبلة في وسط صفنا فاصابت خمسة وعشرين شخصا. وعندما خفت وطأة نيران العدو وسقطت تلك الربى بدون قتال بين ايدينا — لانها لم تكن سوى نقطة امامية شغلها العدو اثناء مناجأته ، بقوة ضئيلة وعلى عجل ليكتسب الوقت اللازم له — استولى علينا شعور طارد للوهم . ولكنه لم يلبث مستولياً علينا مدة طويلة لاننا لم نلبث ان انكشف امام ابصارنا قسم كبير من ساحة القتال الواسعة . فامامنا وعمودياً على يميننا في الجو المغبر كانت تتراءى سحب كثيفة من الدخان ترتفع من مواقع مدفعياتنا في الجيش الأول ومن مواقع مدفعيات جيش العدو الكائنة على البيستريتز وقد كسا بريق المدافع المطلقة والضوء الشديد المنبعث من الجهات المندلعة فيها السنة النيران هذا المنظر المنبسط امامنا صبغة مخصوصة

واشتد تكاثف الضباب فكان من ستاره الكثيف ومن ارتفاع الحصاد ومن طبيعة الارض ما أخفى حركاتنا عن العدو وبهذه الطريقة كانت طلقات مدافعه المصوبة الينا من اتجاه الجنوب ضعيفة بدرجة مدهشة ولم تستطع أن تحول دون تقدمنا . وقد صار الاستيلاء على هذه المدافع فيما بعد عقب المدافعة عنها بشجاعة وعزم . وأخذنا نتقدم باسرع ما تسمح لنا به الاراضي الرخوة والبقاع المتعبة الزلقة والمحصولات المنتشرة على اختلاف أنواعها . وكان هجوم جيشنا مرتباً على أصول القواعد المتبعة في ذلك الحين بدقة وأحكام تادبين الاأن النظام لم يلبث أن سقط أساسه فقد تفرقت الكتائب والفصائل متخيرة كل واحدة منها شطراً من جنود العدو تنازله . وتسارعت سائر الوحدات الى الامام ! ولم تبق من رابطة تربط بين هذه الافواج المتموجة سوى رابطة الارادة المشتركة بين الجميع وهى : « الى الامام ! صوب الاعداء ! »

وقد التقى نصف طابورنا الذى آل الى هذا الشكل بحكم الحرب والذى أصاب فى هذا الوقت حظوة كبيرة بفصيلة من مشاة العدو ما بين خلوم ونيديليتز على غير انتظار بسبب الضباب والزرع وكانت هذه الفصيلة المعاديه قادمة من الجنوب . فاضطرت بعد مدة وجيزة الى الانثناء على أعقابها أمام تفوق بنادقنا ذوات الابر . وباقتفائي أثر هذه الفصيلة مع رجالى المنتشرين والموالين اطلاق بنادقهم ألتقيت فجاة ببطارية نمساوية أسرعت الينا بحماسة شديدة وأرسلت علينا وابلا من الطلقات السريعة .

وأصابتني قذيفة اخترقت قلنسوتي فسقطت فاقداً صوابي هنيهة وجيزة وعند ماعاد الي صوابى اندفعنا الى الهجوم على البطارية فاستولينا على خمسة من مدافعها وأفلت الثلاثه الاخرى من قبضتنا . وتملكتني زهوة

الاعتياب بالنفس عندما استنشقت نسمة الحياة ودمي يقطر من الجرح الخفيف الذى أصيب به رأسي ورأيت نفسي واقفا فى وسط مدافعي التي اكتسبتها .

ولكن الوقت لم يتسع أمامي للاستراحة قليلا والتمتع بثمرات نصري اذ تراءت من الظلال شرذمة من جنود العدو الصيادين المعروفين بريش الديوك المرتفع على قبعاتهم . فصددتهم واقتفيت آثارهم الى طريق منحدر.

وعندما بلغت الطريق المنخفض ادرت بصري فى الافق فاذا بصيادي الاعداء قد اختفوا فى الضباب المشبع بالرذاذ . والقرى المحيطة بنا — وكانت أمامي قرية وسيستار وعلى يميني روسبريتز وعلى يساري سويني — لا تزال بحسب الواضح لنا بين يدى العدو ، والقتال لم ينفك ناشبا فى روسبريتز . فانا اذن وحيد مع ثلتي ولا ترى العين آثارا لفصائلنا خلفي والاجزاء المتلاحقة بنظام يجعلها متضامة الى بعض خلفى لم تتبعني الى اتجاه الجنوب ولكن يظهر أنها عطفت يمنة . فصحت عزيمتي حينئذ على أن اضع حداً لهذه العزلة التي جعلتني وحيداً في ساحة القتال الواسعة باتجاهي نحو روسبريتز سالكا تلك الطريق المنحدرة . وقبل وصولي الى هذه القرية مرت بجوارنا عدة بلوكات نمسوية بدون أن تشعر بي وبقبضة الرجال الموجودين معي . واجتازت هذه البلوكات الطريق المنحدرة من مكان تساوت فيه الطريق بالاراضي المشرفة من الجانبين عليها واصطدمت بعد هنيهة قصيرة مع قوى من مشاتنا لم أتبينها من الجهة الشمالية الشرقية من روسبريتز كما يدل على ذلك صوت اطلاق البنادق المنبعث من تلك الجهة . وبعد قليل عادت من تلك الناحية خيول مجردة من خيالتها وأخيراً ارتدت كل القوة النمسوية التي كانت قد مرت من أمامنا فعاجلتها

أنا أيضاً بخطر خفيف من الرصاص . وكانت أرديتهم البيضاء الواضحة من خلال الضباب خير هدف لاحكام الرماية .

وحالما وصلت الى روسبرتيز كان الموقف فيها قد بلغ منتهى الحرج . فقد اندفعت عدة فصائل و باوكات من آلايات مختلفة من فرقتي الى هذه القرية وأشتبكت فيها بقوى متفوقة فى العدد عليها بكثرة . ولم يصل الى هذه العناصر الضئيلة أى مدد فى بادئ الامر لان مجموع الفرقة كان قد اجتذب الى قربه خلوم الناهضة على يفاع من الارض وخاض فيها معركة شديدة . فكان نصف طابورى هو أول مدد وصل لانجاد الشراذم القاتلة فى روسبرتيز .

فأى الجانبين كان أشد دهشة النمسويون أم نحن ؟ لا استطيع أن أبدي رأيي فى هذا الصدد . وعلى كل حال فقد تدفقت علينا أفواج الاعداء فى صفوف متلاحقة من ثلاث جهات فى آن واحد للاستيلاء على القرية ثانية . وكلما كانت طلقات بندقيا تناهائلة فان صفوفاً جديدة من الاعداء أخذت تتدفق علينا على الدوام متخطية جثث الصفوف الاولى الساقطة على الارض . فحدث حينئذ اشتباك دموي فى حارات القرية خلال البيوت التى كانت النيران مشتعلة فى سقوفها . وأخذ كل واحد يطلق النار و يطعن بالسنان حوله بغير حساب و بقدر ما يستطيع . وقد سقط الامير انطوان هوهنزلرن قائد الآلاى الاول من فرقة الحرس مصاباً بجرح خطر . فاحدث الضابط حامل العلم الفون و يريش وهو مرشال الآن — معركة بجوار الامير مع بضعة من رجالنا الا انها معركة مضطربة وأحضروا لى ساعة الامير الذهبية لكى لا تقع بين أيدى الناهبين من الاعداء . ثم لم نلبث أن أصبحنا تحت خطر الانشطار فى حارة منعطفة

تتسرب الى مؤخرتنا وطرقت اذاننا أصوات أبواق الاعداء وطبولهم التي هي أقوى من أصوات أبواقنا وطبولنا . فأسرعنا من الجبهة واضطررنا الى الانسحاب . وتخلصنا بواسطة سقف محترق كانت قد سقطت أنقاضه على الارض في هيئة متراس ملتهب ومستور بالدخان الكثيف . وتمكنا تحت حماية هذا المتراس من أن نلتجيء الى هضبة متاخمة كائنة في الشمال الشرقي للقرية .

وحملنا عنادنا الوحشي على أن لا نتراجع الى ما وراء هذا المكان فأصدر الكونت والدرسيه من ضباط الآلاى الاول من الحرس المشاة — وهو الذى سقط أمام باريس عام ١٨٧٠ أثناء قيادته آلايا من رماة حرس الملكة أوغوستا — بصفته أقدم ضابط فى الآلاى أمره بنصب الرايتين الموجودتين معنا على الارض . فتجمعت الوحدات حولها وانتظم شملها وكانت قد وصلت أمداد من الخلف وقرعت الطبول وتكرر الهجوم على العدو الذى اكتفى باحتلاله القرية . غير انه لم يلبث أن أخلاها ليلحق بجيشه الآخذ فى التقهقر .

وقد ألفينا الامير هوهنز يللرن فى روسبريتز غير انه مع الاسف قضى نحبه بعد قليل من جراء جراحه وهو فى مستشفى كونيجينهوف النقالى . وقد أسر العدو الرجال القلائل الذين دافعوا عنه باخلاص . ولقد سقط فى الاسر أيضا عدة من رجال فصيلتي الرماة بعد أن أبلوا فى الدفاع عن أنفسهم أحسن ابلاء فى مصنع الطوب غير انهم تمكنوا من العودة الينا بعد يومين . وكنا اذ ذاك قد نصبنا خيامنا فى الجنوب الغربي من كوينجراتز . وقد قصد هؤلاء الرجال فى بادىء الامر القلعة فاحالهم قائدها الى صوب النار التى تنبعث من مضاربنا البروسية ليتخلص من عبء أطعامهم فكان

من حظهم أن عادوا الى وحدتهم .

وفي عشية الوقعة تقدمت فرقتي الى وسيستر واستقرت بها الى الوقت الذى فارقت فيه ميدان الكفاح ولقد أراد الطبيب أن يرسلني الى المستشفى النقالى لمعالجة جرح رأسى ولكني بالنظر لاعتقادى بحدوث معارك فيما وراء الايلب اكتفيت بوضع مكمدات وبتنظيف بسيط غير انى اضطررت فى خلال الحركات التالية أن أستبدل خوذتى بقلنسوه .

أن العواطف التي عرضت لى فى ٣ يوليه مساء كانت شديدة التعارض فاذا كنت قد حمدت الله مولانا على فضله العظيم فان قلبي كان كذلك طافحاً بالافتخار لاعتقادى بانني اشتركت فى عمل يثبت صحيفة جديدة من المجد فى تاريخ جيشنا البروسي ووطننا البروسي . واذا كنا لم نتحقق بعد من قيمة انتصارنا فقد أدركنا على الاقل ان هذه المعركة لها شأن بالنسبة لوطننا أعظم من المعارك السالفة . وكذلك أخذت أفكر بتأثر فى رفاقنا الامناء الموتى والجرحى . وقد فقدت فصيلتي نصف رجالها دالة بذلك على انها قامت بواجبها .

وقد انتظر الامير ولى العهد الابنا يوم ٦ يوليه فى باردوبيتز على مقربة من جسر الزوارق الذى كان لا بد لنا من عبور الايلب فوقه حتى اذا صرنا بين يديه أعرب لنا عن امتنانه من منهجنا الجميل فى خلال الموقعة . فشكرناه بالهتاف المردد وواصلنا سيرنا فخورين بالتهنيأت التي اسداها ايانا قائد جيشنا و ريث التاج البروسي ونحن على استعداد لان نتبع ذلك المنهج المحمود فى كل الوقائع التي يمكن حدوثها .

غير أن بقية مهمة الحمله لم تتعد حد الزحف من مكان الى آخر ولا يوجد من حوادث هذه المدة ما يستحق الذكر .

وقد أمضيت المدينة فى يوم ٢٢ يوليه ونحن فى جنوب النمسا على بعد ٤٠ كيلو متراً تقريباً من فينا وعندما آذن الابى بالقفول الى ألمانيا بعد مدة قصيرة ألم بنا ضيف مشؤوم وهو الكوليرا ولم يغادرنا الا على مهل بعد أن فتك بعدة من رجالنا .

وقد أقمنا بضعة أسابيع على شاطىء الايجير فالتقيت فى خلال هذه المدة بابى فى مدينة براج الذى صار عضواً فى جمعية القديس حنا فتعين فى أحد المستشفيات النقالة بكونيجراتز . ولم ندع هذه الفرصة تمر بنا دون ان نزور ساحة القتال الذى دار حول براج حيث قاتل ملكنا العظيم فيها . ولقد عظمت دهشتنا عندما رأينا بجانب التمثال الذى أقامته الحكومة البروسية بعد حروب التحرير تذكاراً للمارشال الكونت فون شويرين الذى سقط على مقربة من براج تمثالا ثانياً اقامه الامبراطور يوسف الثانى من زمن مديد المعجب بفردريك الكبير اجلالا لهذا البطل الذى هو العدو القديم لوطنه .

وظلت ذكرى زيارة ساحة القتال ماثلة فى ذاكرتى طول مدة الحرب الاخيرة . وذلك لان حالة بروسيا فى عام ١٧٥٧ يمكن مضاهاتها بحالة المانيا فى سنة ١٩١٤ حتى أن وقعة كولين التى انتجت الانتصار حول براج تماثل معركة المارن التى انتجت عدة انتصارات .

وفى كلتا الحالتين كان لصدى خطة هجومنا العظيم من التأثير ما اضطر وطننا الى اطالة الكفاح الحرج للمحافظة على كياننا . ولكن بروسيا خرجت من حرب الاعوام السبعة قوية أما ألمانيا فخرجت كسيرة الجناح من الحرب الاخيرة الميؤوس منها والتى ظلت اربعة أعوام . فهل لم نكن اذن نحن جديرين بالانتساب الى ابائنا ؟

واجتزنا فى ٢ سبتمبر اثناء عودتنا الحدود الكائنة بين بوهيميا وساكس كما اجتزنا فى ٨ سبتمبر ونحن فى طريق جروسنهاين الستير حدود مارشه براندبورج . وكان قد أقيم لنا قوس نصر فى مدخل هذه الولاية . فمررنا من تحته على وقع نشيد عسوى حماسى عنوانه : سلام عليك أيها المستظل تاج النصر . وهكذا دخلنا وطننا . ولا داعى لان نعبر عن شعورنا إذ ذاك

وكان دخولنا المجيد مدينة برلين فى ٢٠ سبتمبر . وصار استعراضنا فى رحبة كونيج بلاتز الآن التى لم تكن فى ذلك العهد سوى أرض رملية مختصة للتمرن وكان يوجد فى المحل المشيدة فيه عمارة عموم اركان الحرب معمل خشبي يتصل بالمدينة بطريق مظللة باشجار السرو وكانت عمارة كرول على عكس ذلك موجودة إذ ذاك وعندما تركنا ميدان الاستعراض سارت الجنود صاعدة الليندين منتحية وجهة ميدان الاوبرا مارة من باب براندبورج حيث مر الجيش امام جلالة الملك فى هذا الميدان وحضر هذا العرض بلوخر وشارنهورست وجنايسيناو وهم جلوس فى شرفة عالية اعدت لهم ! ومن الممكن انهم سروا منا !

وقبل الذهاب الى الاستعراض اجتمع طابوري في رحبة فلورا بلاتز وسلمني قائد الآلاي وسام النسر الاحمر ذى السيوف من الدرجة الرابعة قائلا لى بوجوب تعليقه على صدرى حالا لان الاوسمة الجديدة ممنوحة لدخول برلين بها . واذ أخذت اتلفت حولى وأنا على جانب من الحيرة تقدمت الي امرأة كهلة من وسط الجمهور وعلقت الوسام فوق ردائى بدبوس . ومن ذلك الحين كنت كلما مررت من ساحة فلورا بلاتز أتذكر تلك البرلينية الوقور مع الاعتراف لها بالجميل .

وبعد انتهاء الحرب انتدب الآلاي الثالث من الحرس ليعسكر فى هانوفر . وأريد تشريف هذه المدينة بهذا العمل لانها كانت الى ذلك الوقت لاتزال احدى العواصم . على أننا ذهبنا الى هانوفر على غير ارادتنا . ولكن عندما استدعي الآلاي الى برلين بعد مضي اثنى عشر عاماً وأزمعنا على مغادرة هذه المدينة كان الفراق شاقاً على نفس كل فرد منا . وأما من جهتى فقد اصبحت هذه المدينة عزيزة علي جداً حينما اضطررت الى مفارقتها عام ١٨٧٣ حتى انى فيما بعد عندما تحولت على الاستيداع اتخذتها مستقراً لى .

وتوثقت بيننا صلات الود فى حاميتنا الجديدة بهانوفر . وفى الحقيقة أن بعض الهانوفريين تجنبونا لاسباب سياسية . لكننا لم نسىء مطلقاً الى أى انسان ظل محتفظاً بولاء البيت الملكى القديم مع اعتقادنا بضرورة ضم هانوفر الى بروسيا . ولم نعتبر احداً من أعضاء الحزب البابوي الهانوفرى خصما لنا الا اولئك الافراد القلائل المنعزلين الذين بدلا من تحمل آلامهم بكرامة وشهامة استرسلوا في انتهاج مسالك غير قويمة وقاموا بهجمات وفتن متعددة .

وكلما كانت الايام تمر بنا سراعاً كلما ازداد امتزاجنا بالحياة الهانوفرية التى على الزعم من توفر سائر مطالب المدن الكبرى فيها لم تشب بالمفاسد المتشبعة بها أجواء العواصم الاخرى . وكانت حياتنا حياة جمعية مبتهجة لطيفة بلغت منتهى بهجتها وزهائها بعد انتهاء الحرب التى شهرت على فرنسا أي عند ماجاء الى هانوفر صاحب السمو الملكى الامير البيرت البروسى وزوجه وأقاما فيها أعواماً طوالا . وازدادت محبتنا لهذه الحياة المنعشة بغشياننا مسرح البلاط الاميري البديع الذى كان من الهين دخوله

على الضباط بقيمة زهيدة . وازدانت المدينة بمناظر شائقة فقد أحيطت بسبل منظمة على جوانبها المروج وبغابة من ابدع الغابات الالمانية وهى المسماه ايلنريد وطفقنا نروح عن انفسنا بالتنزه فيها على الاقدام او فوق صهوات الجياد فى ساعات الحرية التى تسمح لنا بها اعمالنا . وبما اننا كنا نلبث فى هـذه الولاية للقيام بالمناورات بدلا من ذهابنا الى بوتسـدام لحضور التمرينات الجزيئيـة التى يقوم بها فيلق الحـرس فقد اخـذنا نتعرف تدريجاً كل جنوب ساكس ونقـدر خصائصها حتى قدرها من جبالها الى البحر . وكان التدريب اليومى يحـدث فى ساحـة واترلو التى لبثت ثلاث سـنوات ادرب عساكرى الجدد فيها وقد أقمت فى اول مسكن عسكرى بالثكنـة المشرفة على هـذه الساحة ، وهو مؤلف من مكتب للعمل وغرفة النوم . والى الآن كلما اجتزت بهذا القسم من المدينة المذكورة أتذكر بابتهاج ذلك الزمن الذهبي من شرخ الشباب . ويكاد كل زملائي فى ذلك العهد يكونون قـد انتظموا فى سلك جيش الموتي العظيم . ومع ذلك فقد رأيت من عهد قريب الرفيق الذي ظل رئيس بلوكى مدة عدة سنوات وهو البنباشى المستودع فونسيل . واني لمدين لهذا الرجل الذي تخطى الثمانين من العمر باعظم فضل لانه هو الذي كان خير قدوة ومعلم لى فى القيام باشق ما يمكن تأديته من الخدمات .

وزار جلالة الملك هانوفر لاول مرة فى صيف عام ١٨٦٧ فحضرت حفلة تشريفه مع بلوك الشرف الذي أدى له واجب التعظيم أمام القصر في جوز جيسبارك : فشرفني مليكى بان سألني عن الفرصة التي سمحت لى بحمل وسام النسر الاحمر ذى السيوف وفيما بعد عندما حصلت أثناء حرب عامى ١٨٧٠ و ١٨٧١ على الصليب الحديدى وجه الي امبراطوري

وملكي هـذا السؤال عدة مرار حينما كنت أمثل بين يديه بمناسـبة تغير مركزي وبمناسبة الترقيات التي كنت أحصل عليها . وفي كل مرة كنت أشعر بنفس الفخر ونفس الحبور اللذين شعرت بهما في عام ١٨٦٧

وقد ازداد توثق العلائق السياسية والعسكرية والاجتماعية بين بروسيا وهانوفر . واستطاعت أن تظهر هذه الولاية الجديدة بعد قليل في ميادين القتال الدامية أنها صارت قسما غير قابل الانفصال من بروسـيا كسائر ولاياتها الاخرى .

وحينما اشتعلت نيران حرب ١٨٧٠ سافرت مع الحملة بصفتي ضابطاً مساعداً لقائد الطابور الاول البنباشي فون سيجينبيرج الذى اشـترك في حربي ١٨٦٤ و١٨٦٦ في الآلاى بصفته رئيس بلوك. فهو محارب مدرب وبروسي نقي الدم ذو شجاعة لا حد لها واخـلاص لا يشوبه ضعف لرجاله . وكانت علائقنا حسنة .

ولقد كان مستهل الحرب عسـيراً على آلايي كما كان عسيراً بالمثل على قيلق الحرس لاننا سرنا عدة أسابيع من غير أن نلتقي بالعدو .

ولم ندع الى خوض غمار القتال الا فيما بعد عقب اجتيازنا الموزيل وبون أموسون وصرنا على مقربة من الموز وذلك في ١٧ أغسطس لمناسبة الوقائع التي كانت جارية في غرب ميتز . فغـيرت فرقتي اتجاه سـيرها الى الشمال وبعد سير فوق كل ما يمكن تصوره من الصعوبة وصلت الى ساحة معركة فيونفيل في مساء ١٧ . ولقد كانت آثار الصراع الهائل الذى دار بين فيلقينا الثالث والعاشر من جهة وحامية المدينـة من جهة أخرى تظهر في أجلى مظاهرها لعيوننا من كل جانب . ولم نكد نعلم شيئاً من الحالة الحربية . وهكذا عندما تركنا نزلنا الكائن في هانوفيل غرب مارس لاتور في صباح يوم ١٨

أغسطس دخلنا بعمى أوضح فى دائرة الجهل المطبق. فبلغنا رونكور حوالى الظهر. وكانت مسافة السير نسبياً قصيرة ولكننا لم نقطعها ونصل الى النقطة المنشودة الا بمجهود هائل لاننا قطعناها فى مناطق صخرية وجو ملتهب الحرارة ونحن مجلببون بغمامة كثيفه من الغبار و بدون أن نتوصل من الليلة الماضية الى الحصول على ما يلزمنا من الماء. وقد كان من الواجب علينا عدا ما تقدم أن نقوم بجولات استكشافية نكون بها أدلاء غير خبراء للفيلق الثانى عشر الساكسونى. وأما أنا شخصياً فقد ذهبت أثناء السير الى مقبرة مارس لاتور زائراً قبر أحد أبناء عمى الملحق بالبلوك الثانى من خيالة الحرس الذى سقط قتيلا يوم ١٦ أغسطس وانتهزت هذه الفرصة لاجوب بجوادى ميدان الهجوم الذى قام به اللواء الثامن والثلاثون من المشاة والبلوك الاول من فرسان الحرس. فرأيت خطوطاً باكملها وفى بعض أماكن ربوات حقيقية مكونة من جثث الفرنسويين والالمانيين وكذلك كانت الجثث تغطى حافة وهدة وتكسو سفوحها بشكل يوضح باجلى دلالة هول الموقعة التى نشبت بين الفريقين على مسافة قصيرة جداً.

وألقينا عصى التسيار على مقربة من رونكور ونحن نفكر فى اعداد حسائنا. فجرت اشاعات منبئة بان بازين سار نحو الغرب وتمكن من الافلات. فهبط بالطبع روح الحماسة الذى كان يشملنا فى الصباح. وعلى أثر ذلك طرق الاسماع صوت اطلاق مدافع آت من الجانب الشرقى بشدة. وما ذلك الا أن الفيلق التاسع قد اصطدم بالعدو. ولقد أكسبت جلبة المعركة كل ما يحيطبنا روحاً جديداً. فأخذت الاعصاب تتوتر من جديد كما شرع القلب يخفق بشدة و يستشعر أعظم سرور. فبدأ السير فى اتجاه الشمال الشرقى. وأخذ يزداد الشعور بقرب الدخول فى معترك هائل ما بين

كل دقيقة وأخرى . وانتشرنا فى الفضاء ونحن جادون فى السير حتى اذا ما قاربنا باتيالى صدر الينا الأمر باخراج راياتنا من غلافاتها . فلما خفقت فى الجو حييناها بالهتاف لها ثلاثا ! وانها لدقيقة مؤثرة فى النفوس ! وفى الوقت عينه تقريبا مرت أمامنا بطريات من مدفعية الحرس وهى منطلقة خببا نحو الشرق فى اتجاه مواقع الاعداء . ولقد بدأت صورة المعركة تتوضح بجلاء شديد من آونة الى أخرى . فعلى القمم المنتشرة من أمانفييه الى سان بريفا ترتفع غمائم من الدخان القاتم الكثيف . وفوق هذه القنن توطنت المدفعية والمشاة المعادية فى عدة خطوط عميقة الاحتفار . وكانت كل قوة نيرانهم مصوبة فى هذه الآونة الى الفيلق التاسع ويظهر أن العدو كان متفوقا على جناح هذا الفيلق الايسر. ولم يكن من المستطاع تبين التفاصيل.

ولكى نجتنب مهاجمة موقع العدو من الجبهة اتجهنا صوب الشمال منسابين فى وهدة مغطاة بالمروج . فسرنا نحو سانت مارى أو شين حيث حللنا على بعد خمسة كيلو مترات تقريبا من العدو بمحاذاة جبهته. وهوجمت سانت مارى واحتلت بطليعة فرقتنا وبعناصر من الفيلق الثاني عشر الذى كان زاحفاً فى ميسرتنا على أوبيه . وبعد احتلال سانت مارى انسحب لواؤنا فى الحال الى جنوب القرية متخذها واجهة له . واسترحنا ولكنها راحة غريبة فى الحقيقة ! اذ كانت تتساقط من آونة الى أخرى فى وسط وحداتنا المتضامة فى أتم نظام رصاصات من رماة الخط الاول من جنود العدو المستحكم فى سان بريفا . وقد قتل من جراء هذه الرصاصات الطائشة الملازم فون هيلدورف من الآلاى الاول من الحرس بجوارى ، وكذلك سقط أبوه قائد طابور فى الآلاى نفسه غير بعيد منى عام ١٨٦٦ فى روسبيريتز أثناء وقعة كونيجراتز . وأصيب عدة رجال بجراح

واستشرفت الافق بنظرة فرأيت قرية سان بريفا ناهضة على يفاع من الارض فى اتجاه الشرق على الجانب الايمن من جهتنا تقريباً . وهى تبعد نحو كيلو مترين من سانت مارى اوشين ومتصلة بهذه القرية بواسطة طريق كبيرة مستقيمة ومحفوفة الجانبين باشجار الحور . واحتجبت عنى الارض الكائنة فى شمال هذه الطريق احتجاباً يكاد يكون عاما لتراميها خلف صفي الاشجار الناهضة على جانبي الطريق ولكني كنت أشعر بانها عراء كالارض المنبسطة فى جنوب الطريق . وقد استولى على اعالى سان بريفا نفسها سكون مقلق . وعلى غير ارادتنا أخذت أبصارنا تستكنه الاسرار التى كنا نتخيل اختباءها هنالك . ويظهر ان قيادتنا لم تر من الضرورى ارسال مستطلعين يمزقون الحجاب عن ذلك السر المستور . فلبثنا حينئذ فى اماكننا هادئين .

وصدر الأمر الى لوائنا بالهجوم فى الساعة الخامسة والنصف مساء . فوجب علينا أن نمر باستطالة سانت مارى من جانبها الشرقى متجهين نحو الشمال ثم نستقبل فى الحال سان بريفا النهاجمها ، فعن لنا على الفوران جنود سان بريفا تستطيع أن تهاجم جناحنا الايمن أثناء هذه الحركة المعقدة .

وقبل تحرك طوابيرنا بقليل اهتزت الأراضى المحيطة بسان بريفا من سائر الجهات فجأة ثم اختفت تحت دخان الخطوط الفرنسوية التى فتحت أفواه نيرانها . وكان اللواء الرابع من الحرس وهو غير تابع لفرقتنا قد ابتدأ بالفعل فى التحرك فى جنوب الطريق الكبيرة . فاتجهت نيران العدو كلها فى هذه الآونة نحو هذا اللواء . فهذه الحالة اذا لم يمكن تلافيها فى أسرع ما يمكن أدت الى تلاشى هؤلاء الجنود فى أقل ما يمكن تصوره من الزمن ولذا وجب تداخل لوائنا الأول من فيلق الحرس بالهجوم من شمال الطريق

الكبيرة لنخفف بهذه الوسيلة وطأة النيران المرسلة عليهم .

ولكن ظهر أنه من المستحيل تقريباً اجتياز الطريق الى جانبها الآخر . فتقدم رئيسي معي لاختبار الارض وارشاد الطابور الى اتجاه السير الذي يجب أن يتبعه في منطقة عمل لوائنا .

والآن وقد أبصرنا العدو فقد بدأ بتصويب نيرانه الينا بغير انقطاع فاكتسحت كل ما على وجه الارض . ومع ذلك فلا مناص من تنفيـذ الحركة التي ابتدأنا فيها . ونجحنا بالفعل في اجتياز الطريق . وفي الجانب الآخر من هذه الطريق واجهت صفوفنا وهي متضامـة بعضها الى بعض خطوط الاعداء وبعد ان أعدت انفسها اندفعت نحو سان بريفا . وكان مقصـدنا الأول ان ندنو بقدر المستطاع من العدو لنتمكن من استعمال بنادقنا التي كان مدى مرماها أقل من بنادق شاسبو . ولقد كان المنظر رهيباً بقدر ما كان مهيباً . وقد تغطت الارض باجساد الساقطين من الموتى والجرحى خلف الكراديس المتدفقة الى الامام تحت نيران العدو المنهمرة قذائفه كعاصفة من البرد ، الا أن جنودنا الشجعان واصلوا هجومهم بغير تلكؤ . وكان التقاط الصرعى منهم متواصـلا كما كان الضباط وضـباط الصف لا ينفكون يقودونهم الى الامام ويحثونهم على الهجوم حتى اضطر هؤلاء الضباط وضباط الصف الى الحلول محل خيرة الرماة وحملة البنادق فيما بعد . وفي أثناء مروري بصرت بقائد فيلق الحرس الأمير أوغوست الورتمبورجي ممتطياً صهوة جواده عند منفذ سانت ماري وهو يرى الغمرة الشـديدة التي تترامى خيرة آلايانه نحوها والتي ربما استأصلت كل هـذه الآلايات الباهرة . وكان المارشال كانروبير واقفاً قبالة الامير عند مدخل سان بريفا على ما يظهر .

ولكي يتمكن رئيسي من تخليص طابوره من الافواج المتراكمة في الشمال الشرقي من سانت ماري ومن تيسير الحرية اللازمة له ليتمكن من المكافحة لم يسيره في الحال الى سان بريفا بل تمشي به أولا متبعاً انحداراً في الارض يقودالي الوجهةالتي لبثنا قاصديها الى هذه الآونة أي الى الشمال . فلبثنا ونحن مبتعدون قليلا عن آلايينا ونكاد نكون مستورين عن العدو مكونين الجناح الايسر للواء بعد أن أتممنا حركة استدارتنا . وبعد استقرارنا على هذا الوضع بلغنا المنطقة الكائنة في منتصف الطريق ما بين سانت ماري و رونكور ولكننا اصبنا في هذه الحركة بخسائر فادحة .

وقبل التفكير في تطويق سان بريفا كان لابد لنا من تعرف ما هو جار في رونكور التي يظهر أن الساكسونيين القادمين من أبويه لم يصلوا اليها بعد . فانطلقت بجوادي خببا في هذا الاتجاه ولم الف في القرية لا جنوداً موالية ولا عساكر معادية . ولكني لمحت مشاة فرنسويين في مقالع حجارة كائنة شرق القرية . ونجحت في اقتياد بلوكين من طابوري الى رونكور في وقت لا يزال ملائماً . وبعد قليل خرج العدو من مقالع الحجارة وقام بحملة علينا كان نصيبها الاخفاق . أما البلوكان الباقيان من طابوري فاذ لم يبق خوف عليهما من الجنب ولا من الخلف امكنهما أن يواجها مدخل سان بريفا من جهة الشمال ليحولا بهجومهما شيئاً من الشدة المتناهية الرازحة تحت كلاكلها بقية أجزاء لوائنا المشتبكة في كفاح قاس على الجبهة . وفيما بعد عندما احتلت عناصر من الفيلق الثاني عشر رونكور حمل البلوكان الآخران من طابوري وهما اللذان احتلا من قبل رونكور على سان بريفا .

وكانت المعركة الناشبة في الجبهة لا تزال الى هذه اللحظة على أشد

حالاتها من غير أن يطرأ عليها أي تخفيف . فمن جانب العدو كانت تتماطر قذائف النيران بغير انقطاع من عدة خطوط من المشـاة همهم القضاء على كل كائن حي يشغل ميدان هجومنا المتسخ الذى ليس له ما يستره و يقيه . وأما من جانبنا فلا يرى الا خط بقايا وحدات كثرت فيها الاماكن الخالية ، ومع ذلك فان هذا الخط لم يكن ثابتاً فى الارض لا يتحول من مكانه فقط بل كانت تنتابه هزات عصبية تشعر بانه يحاول دائما الترامى على خصمه . واخذت اتأمل هذا المشهد الحربى الدموى وانا أحبس انفاسى وطفقت اسائل نفسى وأنا فى منتهى الحيرة والقلق اذا كانت كرةمن العدو لاتكفى لقلب جنودنا رأسا على عقب . ومع ذلك فالفرنسيون لا يتحركون من مواقعهم بل فرسانهم هم الذين يقومون بحركات ترمى الى الخروج من جهة القرية الشمالية على أنهم فى محاولاتهم هـذه لم يبتعدوا عن حدود سان بريفا .

وساد السكون هنيهة على معركة المشاه . فقد خارت قوى الفريقين و واجه بعضهما بعضا ولا تكاد الطلقات تتبادل بينهما : و بلغ من شأن الهدوء السائد على ميدان العراك أن أسير محازيا خط النار من الجنـاح الايسر الى قلب اللواء ثم اعود الى النقطـة التي تحركت منها بدون ان يخامرني شعور بأني تحت طائلة الخطر . غير ان مدفعيتنا التي تقدمت الى الأمام شرعت فى تادية مهمتها وهى التدمير ثم اقبلت وحـدات جديدة منتعشة من وحدات اللواء الثاني من فيلق الحرس قادمة من سانت مارى لتقوى الفصائل المتبقية من اللوائين الرابع والأول بينما كان السكسونيون يهرعون من جهة الشمال الغربي لاسعاف تلك البقايا . و بهذه الوسيلة صار الضغط الذى كان و اقعاً على المشاة اخف مما كان عليه . ولقد طرأ على

هذه الساحة عامل جديد غير شكلها فبعد ان ظلت مدة تحت سلطتي الاهلاك والتخريب غشي صفوفنا نشاط حربي جديد ظهرت آثاره فوراً باندفاع جنودنا باقدام على مهاجمة العدو .

وبدت ساعة من الزمن مؤثرة فى النفوس لا يمكن وصفها اذ بينما الشمس الجانحة الى الغروب ترسل اشعتها الاخيرة الى الافق مودعة نهض رجالنا الموجودون فى الصفوف الأول واندفعوا الى الامام لآخر مرة . ولم يكن قد صدر لهم أي أمر بالزحف على العدو ، وانما عاطفة واحدة سائدة على الجميع وهي عاطفة ادبية ممزوجة بقوة الارادة المتجهة الى الانتصار هى التى انعشتهم وحركتهم وقذفت بهم الى الامام . وهذه الحركة التى لا تغالب اقتادت كل انسان وكل شيء معها . فما لبثت حصون العدو الامامية ان سقطت عند تخييم الظلام . فاستولى علينا سرور لا حد له .

وعندما احصيت بقيه رجال طابورنا تحت جنح الظلام وعندما رأيت فى الصباح بقايا الوحدات الاخرى من آلاينا وهى أقل منا عدداً وأخيرا عندما انفجر البركان الذى كان كامنا فى فؤادى فاضت منه عواطف رحمة واشفاق على نفسي ففكرت حينئذ فى النتائج التى خرجنا بها من هذه المعركة ولم يكن تفكيرى مقصوراً على ماربحناه بل كان يشمل ما تقاضاه هذا الربح من الخسائر النفسية . لقد كانت خسائر الآلاي الثالث من الحرس ٣٦ ضابطا و ١٠٠٠ ضابط صف وجندى منهم سبعة عشر ضابطا و ٣٠٤ جنود قتلى . وكانت خسائر باقى آلايات الحرس على مثل هذا النمط من الفداحة . وفى خلال الحرب الاخيرة الكبرى اصيبت آلاياتنا بمثل هذه الخسائر الجسيمه التى ابتلى بها الحرس فى سان بريفا جعلتنى اعتقد

دائما باصابة الجنود فى كل معركة بمثل تلك الخسائر . فأية جموع قوية فى منتهى البراعة والاقدام بل أحيانا لا يمكن الاستعاضة عنها كان نصيبها من هذه الساحة الانتقال الى ساحة القبور ! ولكن من جهة اخرى أي روح عجيب احتفظ به شعبنا فجعله طول مدة هذا الصراع الاخير الذى ظل أربعة أعوام باقياً على الرغم من كل العوامل المختلفة على وتيرة واحدة من الثبات والاستعداد لخوض غمار كل كفاح !

وفي ١٩ اغسطس وارينسا موتانا وبعد ظهر اليوم العشرين شرعنا فى الزحف الى الغرب . وأعرب لنا قائد فرقتنا أمير اللواء فون باب عن امتنانه من الانتصارات الباهرة التى أحرزناها وصرح لنا أثناء الطريق باننا لم نفعل الا ما يقتضيه الواجب . وختم تصريحه بقوله : « ليس ما هو أجدر بنا من المثل العسكرى القديم القائل : « اذا سقط الف عن اليسار والف عن اليمين بل اذا سقط كل أحباؤنا فاننا سنظل راغبين فى استمرار الكفاح ! » فكان جوابنا على مقاله أن أرسلنا فى الفضاء هتافاً عالياً رنانا اجلالا لصاحب الجلالة الملك

وكيفما كان الانتقاد الذي يمكن توجيهه الى معركة سان بريفا من الوجهة العسكرية فانها لم تفقد شيئاً من مجدها الادبي . وهذا المجد الادبي الراسخ فى نفوس جنودنا هو الذي جعل مشاتنا يتحملون الاهوال ساعات عديدة وأخيرا يتغلبون بعزيمة ماضية على شدائد أعظم موقعة هائلة وينتزعون الظفر باطراف الأسنة . هذه العظمة هي الشعور المتولد من ذكرياتنا المتخلفة من يوم ١٨ أغسطس ولقد اختفت الازمة الأدبية التى كانت قد تغلبت على رجالنا عقب المعركة ولم يبق لها من أثر فى أقرب وقت وبالعكس بقيت الافعال الفردية والمجهودات الاجتماعية تنفث فينا روح الفخار الى ايامنا

هذه . وأمكنني أن أحتفل في عام ١٩١٨ بعيد ذكرى سان بريفا السنوي وجرى الاحتفال بهذا العيد فوق أرض العدو وكنت اذ ذاك مع الالاى القديم وهو الالاي الثالث من رماة الحرس الذى اتصلت به مرة اخرى بفضل مليكى . ولقد أسرع كثيرون من « السادة الكهول » من متقاعدى عام ١٨٧٠ وفيما بينهم البنباشى المستودع فون سيل الذى أسلفت الكلام عنه بالحضور الى الجبهة تاركين مواطنهم المتفرقة ليشتركوا فى الاحتفال بهذا العيد السنوي . وكانت هذه آخر مرة رأيت فيها آلالاي المجيد !

ولقد سمعت بأن النصب التي أقيمت على ربى سان بريفا تذكاراً للحرس البروسى أزيلت من أماكنها بايدى أعدائنا . فاذا صح هذا القيل فانى لا أخال مثل هذا العمل يقلل من قيمة الشجاعة الباهرة المتحلية بها جنودنا. وكم من مرة بصرت بضباط وجنود ألمانيين يقفون سكوتاً حتى فى الارض الألمانية أمام النصب الفرنسوية وكنت أحاصيهم فى فكرة الاحترام العظيم لاولئك الذين أجهدوا نفوسهم من خصومنا وتحملوا المشاق والتضحيات الهائلة لاجل الغرض الاسمى .

وبعد المعركة تولى رئيس طابورى وهو الضابط العظيم الوحيد الذى بقى سليماً من الجراح قيادة الآلاى فبقيت شخصياً مقرباً منه لاقوم بوظيفة مساعد له على تأدية أعماله الحديثة .

ولم يكن لجرى الاعمال التى أدت الى انتصار جيوشنا فى وقعة سيدان تأثير خاص فى حياتى . ففى ٣٠ أغسطس أثناء معركة بومون التى تعتبر كرفع الستار عن معركة سيدان لم نكن نحن الا شهوداً فقط فى خطوط الاحتياط . وكذلك فى أول سبتمبر كان عملى مقصوراً على مشاهدة المعركة كمتأمل حر الارادة فى ملاحظاته. وكان فيلق الحرس يكون القسم الشرقى

من الحلقة الحديدية الآخذة فى الاحتباك أثناء النهار حول جيش ما كماهون.
وقد بقى اللواء الاول من الحرس بوجه خاص من الصباح الى ما بعد الظهر
فى موقف الانتظار خلف الاكمات الناهضة فى نهاية جيفون . وانتهزت
هذه الفرصة لاقترب من بطاريات الحرس التى اتخذت لها موقعاً ممتداً
على خط مستطيل على الذروة المجاورة وشرعت تطلق مدافعها من وراء
لوهدة على الفرنسويين المقيمين على التلال المقابلة وهى تلال مكسوة أغلبها
بالاشجار وقد كان من الميسور رؤية المنطقة الممتدة ما بين غابة الاردين
والسفوح المنحدرة الى الموز من المكان الذي كنت موجوداً فيه . وكانت
وادى ايالى الجبلى والموقع الفرنسوى الكائن فى قاع جيفون ومعهما غابة
جارين تكاد تمسها قبضة يدي بنوع خاص . فالنكبة الفرنسوية حادثة اذن
على مرأى ومسمع مني . وعلى ذلك فقد استطعت أن أرى طوق مدفعيا تنا
الحديدى يلتأم طرفاه رويداً رويداً حول خصمنا التعس المحروب . كما
استطعت أن أرى المحاولات الجريئة المصحوبة بالشجاعة التى أراد بها
الفرنسويون تحطيم هذا الطوق من بعض نقطه بهجمات متفرقة . وكان
لهذه المعركة تميز خاص بي . وذلك انني فى الليلة التى أعقبت صباح الالتحام
بينما كنت ماراً بكارينيان علمت من سروجى فرنسوى ثرثارة ابتعت منه
سوطاً ان امبراطور الفرنسويين موجوداً فى وسط جيشه . فانبأت رؤسائى
بهذا الخبر ولكنهم لم يصدقونى . فحينما رأيت جيش العدو آخذاً فى التلاشى
التام بالتدريج أفضيت بهذا التصريح : «ان نابليون موجود فى هذا السعير
الملتهب » فسخروا منى . ولكن حينما تحقق قولى فيما بعد كان فوزى
عظيما .

ولم يشتبك فى هذا اليوم الاىي مع العدو بصفة جدية . وقد لحقنا في

الساعة الثالثة مساء بالآلاى الاول الذى اجتاز وهدة جيفون . وفى هذه الآونة تمكنت مدفعيتنا التى كانت تطلق نيرانها على سائر المواقع من اسكات النيران الفرنسوية والتغلب على مقاومة الفرنسويين . ولم يكن القصد من ازاحة العدو الى سيدان الا افهامه أن كل مقاومة صارت عبثا . ولقد كان منظر التدمير الذى رأيته فى الجانب الشمالى من غابة جارين أثناء زحفنا الى الامام فوق كل الفظائع التى رأتها عيناي فى ساحة قتال .

ومن الساعة الرابعة الى الخامسة اتجهنا الى أماكننا فى المعسكر لان القتال قد انتهى . ولقد أطلقت بندقية واحدة فى العشية ومرت رصاصتها فوقنا وبالتأمل جهة الغابة رأينا جزائرياً يحمل بندقيته بهيأة وحشية ويذهب مختفياً فى الغابة الظلماء بسرعة .

ولم يسبق لى قبل مساء أول سبتمبر ان قضيت ليلة فى ساحة القتال وأنا متمتع بتمام السرور كهذه الليلة . ولما تجاوبت الاصوات من جميع الجهات بانشودة . « الآن احمدوا الله جميعاً » لم يبق انسان لم يحلم بقرب انتهاء الحرب . ولكننا لم نلبث أن صحونا من أحلامنا : فان الحرب قد استمرت . ولم يكن لاستمرار مقاومة الفرنسويين بعد وقعة سيدان لدينا معنى سوى انها تضحية لا فائدة منها . أما أنا فلم أشترك فى هذا الرأى ولم استطع أن أمنع نفسى من تحبيذ عمل القائمين بشؤون فرنسا فى ذلك الحين . ومن رأيي أن عمل الجمهورية الفرنسوية المرتبط باشهار السيف الذى اضطرت الامبراطورية الى اغماده لا يحمل على مجرد تظاهر وطنى وانما هو عمل له تأثير عظيم فى مستقبل سياسة فرنسا . ولا أزال أعتقد حتى اليوم أن فرنسا لو ألقت سلاحها اذ ذاك لفقدت أعظم جانب من كرامتها الوطنية بل لفقدت كل أمل لها فى المستقبل الحسن .

وفى صباح يوم ٢ سبتمبر جاء الامير ولي العهد ليرانا فكان أول من أنبأنا بان نابوليون وجيشه سقط فى الأسر . ثم زارنا بعد الظهر ملكنا وهو القائد الاعلى لجيوشنا . ولا يمكن وصف التحمس العظيم الذى استقبل به مليكنا وصار من المستحيل حجز الرجال فى اماكنهم بالصفوف . اذ قد احاطوا بملكهم المحبوب جداً وتراموا على يديه وقدميه يوسعونها تقبيلا وكانت هذه أول مرة رأى فيها جلالته حرسه منذ ابتداء الحرب . فشكرنا والدموع فى عينيه على ما أتيناه فى سان بريفا . فما أعظمها من مكافأة على الساعات العصيبة التى اجتزناها ! وكان بسمارك فى جملة حاشية الملك . فتقدم بسكون فوق جواده خلف الخيالة الملوكية ، ولكنه عرف وحيته جنودنا بهتاف مخصوص تلقاه بغضب . ولم يكن مولتك حاضراً .

وفى يوم ٣ سبتمبر صدر الامر لآلايى بالمسير الى سيدان وازاحة كل الفرنسويين المنتشرين فى الخارج الى حصونهم . وكان الغرض من هذه الحركة منع الفرنسويين الذين لا يزالون منتشرين فى الساحة بمعزل عن رفاقهم من التقاط البنادق التى لا تحصى والتى كانت متناثرة فوق وجه الارض ومنعهم من استعمالها والتجمع اذا تهيأ لهم ذلك بقصد محاولة اختراق الحصار الامر الذى لا سبيل اليه . فركضت بجوادى مندفعا الى الامام مخترقا غابة جارين الى أن بلغت الربى المشرفة على سيدان مباشرة . فاذا بلابسي السرابيل الحمراء الذين يلفتون الانظار لم يكونوا سوى فريق منتشر فى البطحاء من البائسين المعزولين خارج القلعة يبحثون عن أردية وأغطية يلتحفون بها فى اسارهم . فلم يكن إذن ثمة من داع لتداخل الالاى بل كانت بعض الوحدات من القوى المعسكرة على مقربة من هذا المكان كافية لاتمام الغرض المقصود وفيما انا عائد الى الالاى للانباء بما تم اذا بغبرة تحكى

غمامة قد ظهرت فجأة في الطريق الكبرى الذاهبة الى الشمال و رأيت الى جانبي طبيبا على ابواب ضيعة كريموت وهذه الضيعة قد تحولت أثناء المعركة الى مستشفى نقالي فسايرني الطبيب الفرنسوى حصة من الطريق أخبرني في أثنائها أن نابوليون تحت هذه الغمامة المغبرة راكباً مركبة تحرسه كوكبة من الفرسان وهو ذاهب الى البلجيك . ولو كنت وصلت الى هذه الطريق منذ دقيقتين من قبل لكنت من شهود هذا الحادث التاريخي .

وتركنا ميدان القتال في عشية ٣ سبتمبر حيث عسكرنا في جهة قريبة منه . وبعد قضاء يوم في الراحة سارت فرقتنا قاصدة باريس . فاجتزنا في بادىء الامر ميدان معركة بومون ثم اجتزنا مناطق صارت فيما بعد أثناء الحرب الكبرى الاخيرة ميادين لمعارك قاسية وعسكر الاي يومي ١١ و١٢ سبتمبر بجهتي كراون وكوربيني وهما مدينتان صغيرتان لطيفتان قائمتان على سفح وينتربيرج (هذا اسم أطلقه الالمانيون على وادي كراون الجبلي) . وفي ٢٨ مايو عام ١٩١٨ أثناء معركة سواسون ريمس كنت مع امبراطوري الجليل فوق مسطح وينتربيرج هذا . فوجدت الفرصة سانحة للفت نظر جلالته الى انني كنت معسكراً في سفح هذا المسطح الجبلي منذ ثمانية واربعين عاما . ولم يكن باقياً من هتين البلدتين سوى دمن متفرقة حتى اني لم اهتد الى آثار البيت الذى كنت نازلا به في كوربيني مع أنه كان مشرفاً على رحبة مارشيه لانه تحول الى تراب . ووادي وينتربيرج الجبلي الذى كان في عام ١٨٧٠ سلسلة جبال منخفضة خضراء وجانب منها مكسواً بالاشجار لم يبق منه في عام ١٩١٨ سوى صخور عارية جافة وانتزعت منها القذائف كل ما كان أخضر زاهياً . وانها لاعادة نظر محزنة على الرغم من نشوة الانتصار التي كانت

تغشى نفوسنا اذ ذاك .

وفى يوم ١٩ سبتمبر لمحنا العاصمة الفرنسوية لأول مرة من أعلى وادى جونيس الجبلي الناهض على بعد ثمانية كيلومترات من الشمال الشرقى لسان دنيس . وكانت قباب قصر العجزة وقباب الكنائس المذهبة تتوهج التماعا تحت أشعة شمس الصباح . وأحسب ان الصليبيين تغلب عليهم مثل هـذا الشعور الذى تغلب علينا عندما رأوا بيت المقدس على مقربة منهم كما رأينا نحن باريس على قيد خطوات منا . وبعد ان فارقنا مضاربنا فى الساعة الثالثة صباحاً والليل لايزال حالك الجلباب بقينا طول النهار على قدم الاستعداد للاسراع اذا ما اصطدمت طلائعنا او طلائع الفرق المجاورة لنا بعوائق واخطار . ولم نعد الى معسكرنا الا بعد ساعة متأخرة من الليل . وسكنا مدة الأيام الأول فى جونيس ولهـذه القرية شأن تاريخى احرزته عام ١٨١٥ فان بلوخرو ولنجتون عندما بلغا أبواب باريس تقابلا فى هذه القرية وتداولا فيما يقتضى القيام به من الاعمال الحربية .

وبدلا من احراز فوز عاجل حاسم كما كنا نتوقع صار من المقرر الواجب علينا أن نقضى أشهراً أمام باريس محاصرين مراقبين أشد مراقبة . ولم تقاطع هذه المهمة فى جهتنا بهجات لا تستحق الذكر الا مرات قليلة . وفي عيد الميلاد تقريبا بدأ اطلاق المدافع على الحصون يحدث تغييراً فى حياتنا العسكرية المستمرة على وتيرة واحدة .

وفى منتصف يناير حدث أمر هام فى حياتى . وذلك انى انتدبت ومعى شاويش لتمثيل الايناقى حفلة تتويج الامبراطور . واستلمت الامر المختص بهـذه المهمة فى يوم ١٦ يناير مساء . وكان هـذا الأمر يحتم على الذهاب فى نفس هذه الليلة الى مارجانسى الكائنة على ١٥ كيلو متراً لانها

كانت المستقر الذى أعدته ادارة أركان حرب الجيش المخيم على ضفتى الموز لاجتماع جميع ممثلى الوحدات الموجودة فى الشمال الشرقي لجبهة الميدان . ثم نفارق مارجانسى فى ١٧ يناير لنذهب الى فرساى فى مرحلة واحدة مجتازين بسان جرمان . ولا يسعنى أن أقطع كل هذه الاربعين كيلو متراً بالجواد لانني كنت مضطراً لحمل بعض أشياء معى فاستقر رأيى على الركوب مع شاويشي فى مركبة العفش التابعة للالاى الاول من الحرس المعسكر فى نفس الجهة التى نحن معسكرون فيها والتى كانت مخصصة للذهاب الى فرساى مثلى . فسارت المركبة الهوينا والبرد قاس حتى اذا ما بلغنا مارجانسى وجدنا الشاى اللذيذ والمأوى الدافىء فى بيت خلوى صغير فنمنا على فراش من القش .

وفى صباح ١٨ علمت أن عربة الآلاى الاول من الحرس صدر اليها الأمر بعدم الذهاب الى فرساى والعودة الى معسكر الآلاى عن معها . الا أننى وجدت لحسن الحظ زميلا آخر ذاهبا الى فرساى قبل أن يأخذنى فى عربته ومعى مراسلتى وأما شاويشي الذى لم تتسع له العربة فركب مع آخرين من زملائه فسرنا مسرعين فى ضحوة مشرقة من فصل الشتاء نقصد سان جرمان وهو المقصد الاول من سفرتنا هذه . غير أن دوكارنا ذا العجلتين الذى كان حمله ثقيلا لم يلبث أن فقد أحدى عجلتيه فسقطنا على أرض الطريق . ومن حسن الطالع اننا وجدنا حداداً فى فى القرية القريبة منا فاصلح لنا دوكارنا بدرجة جعلتنا ندرك زملاءنا فى سان جرمان فى متسع من الوقت كاف لان نتناول معهم طعام الغذاء فى قاعة هنرى الرابع المشيدة بنظام بديع فوق السطيحة المشرفة على نهر السين . ولقد كان موكب المركبات التى وصلت فرساى عند جنوح الشمس الى

الغروب غريباً فى بابه لانه كان مؤلفاً من كل أنواع المركبات التي أمكن الحصول عليها من القصور والبيوت الخلوية والضيعات المنتشرة فى ضواحى باريس وكانت ادعاهن الى لفت النظر عربة تحمل البطاطس وضع سائقها علمين بروسيين على يمين مقعده ويساره احتفالا بهذا اليوم المشهود لان الاعلام الالمانية لم تكن موجودة الى هذا الحين . وحالما وصلت نزلت فى مسكن حسن عند امرأة كهلة لطيفة المعشر فى شارع باريس . وفى المساء اجتمعنا نحن الضباط جميعاً وتناولنا حساء شهياً جداً كنا محرومين من مثله منذ زمن طويل .

ولقد كان احتفال يوم ١٨ يناير من الشهرة فى المكانة التى لا تحوجنا الى التكلم عنه هنا . ولقد حفظت منه تاثيرات عديدة. فاهم هذه التأثيرات، وهذا أمر بين، منظر ملكى ومولاى العظيم الذى حرك واستجاش نفسي. فهيبته الهادئة البسيطة استولت على العواطف وأكسبت الاحتفال من الابهة ما هو أعظم من سائر المظاهر الباهرة الخارجية . ولكن الحماسة الهائلة التي كنا نستشعرها تجاه مليكنا كانت هي أيضا عظيمة وهى حماسة اشتركت فيها كافة العناصر الالمانية على اختلاف أنواعها . وكان اخواننا ألمانيو الجنوب أكثرنا اعرابا عن شعورهم باعلان الامبراطورية الالمانية . أما نحن البروسيين فقد استطعنا أن نظهر التؤدة والوقار وهذا لاسباب تاريخية فان الماضى قد سمح لنا من قبل بمعرفة قيمتنا فى وقت لم تكن فيه ألمانيا سوى تعريف جغرافى . أما الآن فقد صارت حقيقة ملموسة!

وفى مساء ١٨ دعى القواد الحاضرون فى فرساى الى دار الولاية لتناول العشاء على مائدة جلالة الامبراطور . وأما الوفود فقد استقبلت باسم

الامبراطور في فندق فرنسا .

وفى ١٩ يناير بدأنا بزيارة قصور ملوك فرنسا العتيقة ومشاهدة مجموعات صورها الجيدة التي تخلد مجد فرنسا . ثم زرنا المتنزه الواسع. واذا باصوات مدافع تتجاوب فى الافق وتصل الى الآذان فاسرعنا بالذهاب الى داخل المدينة .

لقد تهيجت حامية فرساى وأسرعت فعلا بالزحف . وهذا التهيج أحدثه خروج الفرنسويين فى جمع حاشد من ابتداء جبل ڤاليريان فاخذنا نشهد مدة من الزمن عن كثب مجرى الوقعة . وسرنا بعد الظهر قافلين الى معسكراتنا لننضم الى وحداتنا . ولم أصل الى معسكر الآيي الكائن بقرية فيلبيه ليبيل على بعد ٨ كيلو مترات من سان دينس الا فى ساعة متأخرة من الليل . وكنت فى منتهى السعادة لوجودى على قيد الحياة فى مثل هذه الآونة الجليلة من تاريخنا ولاستطاعتي أن أحيي باعلا صوتى المقرون بالطرب والابتهاج مليكى الذى صار من الآن فصاعداً امبراطورى .

ولقد كان الهجوم الذى لافائدة منه الذى قام به الفرنسويون فى جبل ڤاليريان آخر مظاهرة عظيمة دالة على ما بقى الى ذلك الوقت كامناً من القوة فى فرنسا . واعقبه فى ٢٦ يناير تسليم باريس وفى ٢٨ الهدنة العامة . وعلى أثر استسلام الحصون زحف لواؤنا نحو الغرب الى شبه الجزيرة التى يكونها نهر السين مابين جبل ڤاليريان وسان دنيس . واتخذنا مضارب حسنة بديعة الموقع على ضفة النهر نفسه قبالة باريس على مقربة من قنطرة نويى .

وفى خلال هذه المدة سنحت لى الفرصة لزيارة باريس ولو على الاقل زيارة سطحية . وفى ٢ مارس اجتزت قنطرة نويى وانا ممتط جوادى

وتقدمت الى قوس النصر فررت من تحته كما فعل فى العشية الماضية صديقى الفون برناردى الذي كان ملازما فى وحدة الهوسار و الذى كان أول من دخل باريس . ثم انحدرت الى الشانزليزيه واجتزت ساحة الكونكورد ثم التويلرى وتقدمت بعد ذلك الى داخل اللوفر واخيرا سرت على محاذاة النهر حتى وصلت الى معسكرى من غابة بولونيا . وكان لعمارات عدونا الاثرية الفخمة تأثير عظيم فى نفسي أثناء الطريق . وقد أبدى سكان العاصمة القليلون الذين ظهروا فى الشوارع تحفظاً فى موقفهم تجاهنا .

واني كذلك قليل الاهتمام بامتداح خطة الامتزاج والمسايرة التى كنت بعيداً عن توجيه الملامة بشأنها الى الشعوب الاخرى . وعلى الرغم من مخالفة صفاتهم لصفاتنا فاني لا أريد أن أبخس ما فى خصالهم من المزايا الحسنة . وعلى ذلك فمن رأيي ان الشعب الفرنسوى ذو مزاج شديد الحدة الا أنه لايلبث أن ينقلب فجأة ولكني من جهة اخرى أرى ان هذا الشعب يستجر فائدة خاصة من تحمسه لان هذه الحماسة تصبح لديه فى أصعب المواقف قوة لايستهان بها . وأهم ما لاحظته من خصائص الشعب الفرنسوى ان فى استطاعة بعض الرؤوس الكبيرة من ذوى الارادة القوية الفعالة أن يأثروا فى هذا الشعب و يخلبوا البابه و يقودونه وراءهم الى حيث شاءوا بدرجة تجعله من قبيل الاخلاص و باعث الشعور الوطني يتناسى كل مصلحة شخصية بل يقدم نفسه ضحية كاملة . ولكن سلوك بعض الفرنسويين فى معاملة الاسرى المحرومين من سائر وسائل الدفاع أثناء الحرب الاخيرة ذلك السلوك الذى بلغ منتهى البشاعة والذى ربما لايجد مبرراً له وقد أقدموا عليه بمحض عامل المغالاة فى التهييج هو على نقيض مما ذكرته من مزايا حماستهم الطبيعية

فى اليوم التالي لزيارة باريس حظي فيلق الحرس بشرف العرض امام امبراطوره ومليكه فى ساحة لونجشامب . ومرت الايالتنا فى اعوادها البروسية الصلبة على طرزها القديم امام رئيسها الاسمى الذى بمجرد صدور أمر منه لا تزال مستعدة فى كل آونة لان تقدم أرواحها مرة أخرى ضحية فى سبيل حماية الوطن واعلاء مجده . ولم يجر التفكير فى مسألة دخولنا باريس بصفة رسمية على مثل ما سمح به لفيالق أخرى وذلك لان مقدمات الصلح كانت قد تمت ولا تريد المانيا أن تحرج خصومها الذين غلبوا على أمرهم فى نزال قانوني الى درجة سكب ما في الجعبة من ثمالة التحقير والاهانة .

ولقد تهيأ لنا أن نحتفل امام باريس في يوم ٢٢ مارس بعيد جلالة الملك سنوي . وكان ذلك اليوم دافئا وضاحا من خير ايام الربيع فبدىء الاحتفال بالمراسم الدينيه في العراء وأطلقت المدافع من الحصون تشريفاً وتكريما ونصبت الموائد الفاخرة للضباط وللجنود وكانت حماسة كل واحد منا بعد هذا العيد منصرفة الى قرب عودتنا الى منازل اسراتنا بعد أن قضينا واجبنا الوطني خير قضاء . ولكن صار من الواجب أن لا نغادر فرنسا في الوقت الذي أملنا العودة فيه . اذ وجب علينا أن نظل معسكرين في بادىء الأمر على الجبهة الشمالية من باريس في سان دنيس وما جاورها . وفى أثناء اقامتنا فى هذه المنطقة شاهدنا الصراع القائم ما بين الحكومة الفرنسوية والمشاغبين .

ولقد كنا شاهدنا أثناء الحصار نمو هذه الحركة الثورية . فعدم اطاعة الاحزاب السياسية المنتمية الى الجانب الشمالى الاقصي للحكومة كان معروفا لدينا . وعند ما أمضيت الهدنة أخذت الحركة الثورية فى الازدياد

انتشاراً وجرأة . وكان بسمارك قد قال للقابضين على أزمة الحكومة الفرنسويه : « أن الثورة رفعتكم الى منصة الاحكام وثورة جديدة ستنتزعكم منها . » ويظهر أنه كان على صواب فى قوله . وعلى العموم كانت هذه الحركات الثورية أقل ما يهمنا شأنه فى بادىء الامر ، ولكن من منتصف مارس عند ما ابتدأت المشاعية تصبح ذات السلطان الاعلى وأخذت الحالة تتغير الى شكل صراع واضح ما بين فرساى وباريس أخذ نعير هذه الحوادث جانبا عظما من العناية . وأخذت الصحف والفارون من المدينة توضح لنا تفاصيل ماهو جار داخل العاصمة. وبينما كانت فيالق ألمانية تكتسح باريس من الشمال ومن الشرق متخذة بهذه الصفة شكل محالفة مع الجنود الحكومية النظامية كانت هذه الجنود تزحف من الغرب ومن الجنوب على المدينه مشتبكة مع أعدائها الجدد فى معارك عنيفه . وكان أحسن موضع يمكننا أن نشاهد منه ما يحدث داخل دائرة الحصار بوضوح تام هو هضاب سانوا الناهضة على ضفة السين على بعد ستة كيلو مترات من شمال باريس الغربى . وكان بعض مهرة الفرنسويين قد عمدوا الى نصب منظارات كبار فى تلك البقعة ليسهلوا للجنود الألمانية بواسطة أجر من النقود رؤية المأساة الجارية فى المدينة على شكل حرب أهلية . أما أنا فلم الجأ الى هذه المنظارات بل أقتصرت على الذهاب كل صباح الى سان دنيس لالقى نظرة بالعين المجردة على ما يحدث داخل باريس سواء بالتطلع من نافذة مرتفعة فى فندق الظبي الذهبي أو بالذهاب . على ظهر الجواد الى جزيرة السين الكبيرة الكائنة على مقربة من سان دنيس. ومن أواخر ابريل أخذت الحرائق العظيمة ترشدنا الى الاماكن التى يتقاتل فيها الفريقان . وأتذكر أنني كنت أشعر فى ٢٣ مايو خاصة بان كل ما هو

داخل باريس ستأتي عليه أيدي المحو والتدمير . وكان الفارون من داخل المدينـة يصفون لنا حالها الداخلية بشكل فاجع . وحقيقـة الواقع لم تكن بالفعل اقل هولا مما كان يصل الى آذاننا . فمن حرائق الى سلب الى قتل وبالايجاز كل أعراض المرض الذى تصاب به الدولة المهزومـة فى الحرب والذى يطلقون عليـه اليوم اسم البولشفية ظهرت من قبل فى ذلك العهد بباريس . وقد صاح أحـد زعماء أولئك المشاعيين عند ما أطلق سراحه بعـد أسره : « ان الحكومة لم تجرأ على اعـدامى رميا بالرصاص ولكنني سأجرأ على اعدام الحكومة بالرصاص » ويظهر ان هذا الوعيد أخذ يتحقق بالفعل . والالفاظ التي كانت تخرج من أفواه هؤلاء المشاعيين تدل على أن الشعور الوطني تلاشى بتاتاً من نفوسهم على الرغم من قوة العقيدة الوطنيـة المتمكنـة من نفوس الشعب الفرنسوى ، اذ كانوا يقولون : « نحن نفتخر بضرب حكومتنا من خلف على مرأى من أعـدائنا . » ومن هنا يرى أن القاعـدة التى تريد البولشفية أن تستعملها لتنظيم شؤون العالم وهى القاعدة التي أريد استعمالها لدينا أيضا فى هذه الاوقات الاخيرة لا يمكن الزعم بانها حديثة الابتكار .

وأتيح لى أن أشاهد من نافذة غرفتي بفندق سان دنيس نهاية الحكم المشاعى . اذ دخلت جنود الحكومة الى ما وراء الاستحكامات محيطـة بمونمارتر من الغرب ومتسلقة القمة الشمالية من الربوة التي لم تكن قد عمرت بالمبانى الى ذلك الحين واستولت بالهجوم على آخر معقل مستمر على المقاومة من معاقل المشاعيين .

اني اعتبر كسخرية مصحوبة بالغضاضة من جانب القدر ان الحزب الوحيد السياسى فى اوروبا الذى يتجاهله تمام الجهل الحوادث الجارية

عناها الحقيقي بجسد فى ذلك العهد الحركة الثورية ثم اضطر فى ايامنا الحاضرة الى مقاومة مجهودات المشاعيين لدينا باقصى الشدة . فهذه المتناقضات توضح الى اين تقود خصائص التعاليم التى لم تمحصها التجارب العملية ولم تتفتح بعد لاغلاطها وعيوبها العيون .

وغادرنا ضواحى باريس فى أوائل يونيه بعد ان استوعبت افكارنا العبرة البالغة من الحوادث التى مر ذكرها وبعد السفر ثلاثة ايام في السكة الحديدية بلغنا وطننا المنصور السعيد .

ولكى نجعل دخولنا برلين باهراً تحركنا هذه المرة من براح التدريبات العسكرية بتامبلهوف . وقد اشتركت فى هذا الموكب وفود من سائر الوحدات الالمانية بانضمامها الى فيلق الحرس . وحفظت فى اعمق مكان من قلبي لا لاجلى بل لاجل امبراطورى ومليكى ولاجل وطنى مدة طويلة من الزمن عاطفة الرجاء في ان ارى جنودنا الظافرة مارة للدفعة الثالثة من باب براند بورج : الا ان هذا الرجاء لم يتحقق .

العمل فى زمن السلم

عدنا الى وطننا بعد ان حصلنا فى فرنسا على معلومات ثمينة فى كل فروع وخصائص الفن العسكرى . وكما اننا حققنا املنا فى اتحاد اجزاء وطننا فقد افلحنا فى توحيد جيشنا . ولم يطرأ على انظمته الاساسية سوى بعض مظاهر عرضية ارضاء لامتيازات بعض حكومات الاتحاد الالمانى . وقد اكتملت وحدة الخطط العسكرية والفنية كما اكتملت وحدة التنظيم والتسليح والتعليم . وكانت احدى النتائج الطبيعية لتكون المانيا التاريخي ان التجارب التى اكتسبها الجيش البروسى والنظام الذى استنه لنفسه صارا قاعدتين لتنظيم الجيش الالمانى فيما بعد .

وابدأ عملي زمن السلم حالا . ولبثت السنوات الاولى من عهد السلم مؤدياً الخدمة العسكرية في أحد الفيالق ولكني عملا بالرغبة المختمرة في نفسي للالمام بالتعليم العسكري العالي اعددت نفسي للتقدم الى الاكاديمية الحربية وقبلت فيها عام ١٨٧٣ .

ولم يتفق تعليم السنة الأولى اتفاقاً تاماً مع آمالي . فبدلا من تعليمنا التاريخ العسكري والمعلومات المستخلصة من الوقائع الحديثة قذفوا بنا في فوهة العلوم العسكرية وافعموا حوافظنا بدروس مختصة بتاريخ الفن العسكري وبالخطط القديمة اي باشياء مملة تافهة . ومن جهة أخرى وجب علينا ان نحضر اضطراراً دروساً رياضية لم يستفد منها فيما بعد الا أفراد قلائل من بيننا اشتغلوا بوظيفة حاسبين في الالويه الطبوغرافيه و السنتان الاخيرتان ومدة التمرن في الاسلحة الاخرى ما بين كل سنة وأخرى من سنوات التعليم هي التي ارضت مطامع الضابط الشاب الراغب في توسيع معلوماته. وكنت اشتغل تحت اشراف اساتذة أجلة أريد أن أعدد من بينهم الى جانب البنباشي فون ويتيخ الذي اسلفت الكلام عليه القائمقام كيسلير واليوزباشي فيللاوم من اركان الحرب وكمؤرخين المستشار الخصوصي دونكير والاستاذ ريختر وكنت مختلطا بزملاء من سني مجدين في التحصيل أمثال القواد فيما بعد فون بيلوف وفون ايخهورن وقائد الفرسان فون برناردي وبفضل هذه الظروف المساعدة توصلت الى انماء معلوماتي بدرجة عظيمة .

وللامتزاج بالاوساط البرلينية المتنوعة دخل كبير في توسيع دائرة معلوماتي. فلقد تشرفت باستدعائي لاكون عضواً في مجتمع صاحب السمو الملكي اسكندر البروسي وهذا ما يسر لي أحكام العلائق لا مع رجال عسكريين من ذوي المرتبة العليا فقط بل أيضاً مع رجال علماء ورجال من الحكومة وافراد من الحاشية .

وبعد أن أتممت دراستي في الاكاديمية الحربية عدت ثانية مدة ستة اشهر في الالاي القديم بها نوار ثم التحقت في ربيع ١٨٧٧ بعموم أركان الحرب .

وفي ابريل سنة ١٨٧٨ تعينت ركن حرب وارتقيت في الوقت عينه الى مرتبة اليوزباشي . وبعد بضعة اسابيع انتقلت الى أركان حرب الفيلق الحادي عشر بستلتين . وهذا هو أول دخولي ميدان العمل العسكري خارج الوحدات ومنذ ذلك الوقت الى أن تعينت في وظيفة قيادة اللواء لم أعد الى وحدات أي فيلق الا مرتين .

ان أركان الحرب من أهم العناصر المتكون منها جيشنا الالماني فهو فضلا عن اتباعه نظام تتابع الدرجات بشدة يعتبر عضواً خاصا اعتماده على المنزلة الادراكية العليا التي يمتاز بها رئيس أركان حرب الجيش المارشال مولتك والتعليم الذى يتلقاه ضباط أركان الحرب في زمن السلم خير ضمانة لأن يسود في وقت الحرب مبدأ واحد في سائر أعضاء القيادة وأن يجرى تيار موحد في أفكار عموم الرؤساء ولم تسو مسألة أركان الحرب وتأثيره على الرئاسة فى الفيالق بوضع تعليمات ثابتة . بل بقيت مرتبطة على الاخص بالصفة العسكرية والشخصية المأثورة عن كل ضابط ثم ظهرت بمظاهر مختلفة جدا . وأول ما يطلب من ضابط أركان الحرب أن يبقى مجهولا فى شخصيته وفى اعماله . اذ يجب عليه ان يشتغل تحت جنح الخفاء لان واجبه هو أن يوجد لا أن يظهر

واعتقادى ان أركان الحرب الالماني في مجموعه عرف أن يقوم بالمهمة المتناهية في الصعوبة الملقاة على عاتقه . فخدماته كانت جليلة جداً ولو ان في تفاصيلها بعض غلطات وأوهام . ولا نجدما هو أدعى الى تشريفه

من طلب خصومنا في شروط الصلح فض هيأته

وطالما توجه الظن الى وجود علم سرى فى خدمة أركان الحرب . ولا يوجد ما هو الصق بالشطط من هذا الوهم . وأعمال اركان الحرب كسائر أعمالنا الحربية الأخرى قائمة على سلامة الذوق ودقة الشعور فهو لا يقتصر على الاهتمام بالاعمال ذات الشأن الخطير فقط بل لا بد له أيضاً من الاهتمام بمجموع المسائل التفصيلية التي ينبغي أن يفصل فيها بحكمة ورزانة

وأعرف كثيرين من الضباط الاكفاء لا يعرفون كيف يتصرفون فى هذه الاعمال الاخيرة أى المسائل التفصيلية، فلا يمكن استخدامهم كضباط من أركان الحرب ولو عهدت اليهم هذه المهمة لتألم الجنود من نتائج أعمالهم

وبما اني كنت احدث ضابط أركان حرب فى هيأة اركان حرب الفيلق الذى يصير الحاقى به فقد كنت بالطبع أشتغل بالمسائل التفصلية التي أوضحتها فيما تقدم. وفى أول الامر شق علي هذا العبء جداً الا انى فيما بعد تعودت على هذه المسائل ووجدت فى نفسي ارتياحا لدرسها لعلمى بانها اساس كثير من الاعمال ذات الاهمية الكبرى ولانها تتعلق براحة الجنود . ولم يكن اشتغالى بالمسائل العالية الا أثناء فصل اجازات أركان الحرب اذ أصير حينئذ مساعداً لرئيس أركان الحرب . وفى هذا الحين ندبت للاشتراك فى أول سياحة يقوم بها أركان حرب قلعة كوينجسبرج ، وهى سياحة يتولاها الجنرال الكونت والدرسى رئيس أركان حرب الفيلق العاشر وكان رئيسى قائد الفيلق هو رئيس فرسان هان الفون وابهرن وهو جندى محنك خدم فى أثناء شبابه فى شليسويج هولستين ثم قاد فرقة خيالة عام ١٨٦٦ وفرقة مشاة عامى ١٨٧٠ و١٨٧١ وكان من المفرح اعتلاء صهوة الجواد في لباس الخياله الخفيفة وهم فرسان

بلوخر قائدنا القديم الذى كان من أمهر الخيالة. ويرجع الفضل في معرفة الشؤون العملية في وظيفة اركان الحرب لرئيسي الأولين في هيأة أركان الحرب وهما أمير الالاى الفون بيترسدورف والقائمقام الفون زينجلير

وفي عام ١٨٧٩ اشترك الفيلق الحادى عشر في المناورات الامبراطورية واستحق عبارات الثناء من جلالة الملك . وتعرفت في هذه الفرصة بالقائد الروسى سكوبيليف الذى كان في ذلك الوقت عقب انتهاء الحرب الروسية التركية في قمة مجده . فرأينا فيه مظهر الرئيس المتناهى في الشجاعة فهو قوي وذو قيمة سامية . وكانت أعمال فخفخته غير محمودة

ولا ينبغي نسيان ذكر زواجي في ستيتن . وزجتى تنتمي كذلك الى اسرة عسكرية فهي بنت القائد الفون سبيرلنج الذي تولى على التعاقب رئاستيْ اركان حرب الفيلق السادس عام ١٨٦٦ والجيش الأول عامي ١٨٧٠ و ١٨٧١ ومات بعد انتهاء الحرب الفرنسوية بقليل . وكانت امرأتى زوجة محبة لى تشاطرنى باخلاص ومن غير فتور افراحى وآلامى وهمومى واعمالى فكانت بهذه المثابة احب الناس الي واعز رفيق علي . واتت لي بولد و بنتين . فاما الأول فقد أدى واجبه اثناء الحرب الكبرى بصفته ضابطاً من اركان الحرب . واما بنتاي فتزوجتا وزوجاهما ذهبا كذلك الى الجبهة .

وفي عام ١٨٨١ انتقلت الى الفرقة الاولى بكوينجسبيرج وهذه الوظيفة جعلتني اكثر حرية واستقلالا فادنتني من الجنود واعادتني الى الولاية التي تقطنها اسرتي .

ويجب ان اذكر بين الحوادث العسكرية التي صادفتني اثناء اقامتي في كونيجسبرج ان المنشيء العسكري المشهور جداً القائد فردي الفرنوازي

صار قائد فرقتى حصة من الزمن . وكان هـذا القائد رجلا عظيماً ذا كفاءة فائقة ومفيدة . و بما انه امضى مدداً طويلة في هيا ّت اركان حربه مهمة في حربي ١٨٦٦ و ١٨٧٠ فقد حصـل على معلومات قلما يعلمها انسان عن الحوادث الحاسمة فى ذلك الزمن . وكذلك كان قد التحق عام ١٨٦٣ بالمعسكر العام للقيادة الروسية فى فارسوفيا أثنـاء الثورة البولونية التى اشتعلت فى تلك السنة فوقف على معلومات دقيقة عن الحالة السياسية فى مناطق تخومنا الشرقية . ولهذا فكل ما يقصه من أنباء حياته و بالطبع بطريقة شائقة فى التعبير — مفيدة لنا ، وليس من الوجهة العسكرية فقط بل من الوجهة السياسية أيضا . وعدا هذا فقد كان القائد فردى الفرنوازى مصلحا ومحدثا فى دائرة التعليم العسكرى المتبع فاشتغلت تحت اشرافه وكنا نتبادل الآراء غالبا حتى انى استفدت منه اموراً جمة افادتنى فى الدروس التى القيتها أخيراً فى الاكادمية الحربية فكان لهـذا الرجل المشتعل ذكاء فى كثير من الآراء تأثيراً عظما جداً . وكان لى دائمـا رئيسا محباً للخير وأظهر لى فى كل وقت ثقته التامة بى .

وأذكر بالمثل مع الشكر الجزيل لرئيس أركان الحرب فى فيلقى أمير الالاي الفون بارتنوفر . فان اسفاره مع أركان الحرب ومشروعات اعماله الشتوية كانت مرتبة ترتيبا محكما وانتقاداته منيرة للاذهان

وفى نهاية ثلاث سنين غادرت أركان حرب الفرقة الاولى وتعينت رئيسا لبلوك من الآلاي الثامن والخمسين من المشاه فى فرواستادت فى بوسنانيا . وهذه العودة الى الجنود جعلتنى اتولى رئاسة بلوك مؤلف من رجال كلهم تقريبا من اصول بولونية وهذه الفرصة جعلتنى اقف على كل مصاعب الطريقة المتبعة فى تعليم وتهذيب مثل هذه الوحدة اذ الرؤساء

والمرؤ وسون لا يستطيعون أن يتفاهموا لان كلا الطرفين لا يعرف سوى لغته
وأنا شخصياً لا أعرف من اللغة البولونيـة سوى بعض تعبـيرات التقطتها في طفولتي . ولقـد ازدادت صعوبة التأثير الذى اردت احداثه فى بلوكى من جراء تفرقهـم فى المساكن اذ كانوا يذهبون الى اكثر من ثلاثة وثلاثين مأوى مختلف بل والى الطواحين الهوائية المجاورة للمدينة . ولكن على كل حال لم تكن التجارب التى استفدتها من هذه الفصيلة البولونية سيئة . فقد كان رجال هـذه الفصيلة نشطين ومتشبعين بالارادة الحسنة واريد أن أقول انهـم يصيرون شديدى الارتباط اذا امكن التغلب على الصعوبات التى يغالبونها للتوصل الى تعلم مهنتهم واذا اعتني بهم مع التزام خطة الشدة .

وكنت اعتقـد فى ذلك الوقت أن معظم حالات السرقات والسكر المنتشرة لدى البولونيين لا يجب نسبتها الي انحطاط المستوى الادبي بل بالأحرى الى التأديب الناقص فى ايام الشبيبة . وانى لآسف الآن لسماع ما تتناقله الألسنة عن أعمال القسـوة التى يقترفها الثائرون ضد اناس لا وسائل للدفاع لديهم ولاضطرارى الى العدول عن الرأى الجميل الذى كنت ارتأيه للبولونيين المسـتوطنين فى بوسنانيا . انى ما كنت اتصور صدور مثل هذه الاعمال من مواطني جنودى حملة البنادق القدماء !

ولا أزال أفـكر اليوم بارتياح فى الوقت الذى قضيته فى ترأس ذلك البلوك الذى لم يلبث اكثر من خمسة عشر شهراً مع الأسف . وعرفت لأول مرة كيف تكون حياة حامية صغيرة نصف قروية ، وقد قوبلت في هـذه المدينة باستقبال ودي لا فى وسط الزملاء فقط ولكن فى وسط ملاك الضياع المجاورة للمدينة أيضاً ، وتهيأت الفرصـة مرة أخري لان

أعيش محتكا مباشرة بالعساكر . واجتهدت فى دراسة أطوار رجالى بالتحادث مع كل واحد منهم على حدة وهذا ما أمكننى من ايجاد رابطة قوية ما بين مرؤوسى وبيني ولذا كان من الشاق على نفسى الانفصال عن بلوكى على الرغم من كل المزايا التى كانت ستتيحها لى عودتى الي اركان الحرب .

وكان هذا الفراق فى صيف سنة ١٨٨٥ وهو الوقت الذى اتصلت فيه بعموم اركان الحرب . وفى خلال بضعة أشهر تعينت قائداً وانضممت الى الشعبة التى يرأسها الكونت الفون شليفين الذى كان إذ ذاك أميرالاي والذى صار فيما بعد قائداً ورئيس اركان حرب الجيش وفضلا عن ذلك فقد كنت تحت طلب شعبة امير الآلاي فوجل فون فالكنستاين الذى صار فيما بعد قائد الفيلق الثامن ورئيس فيلق المهندسين ومنظمى الطرق واشتركت أكثر من حول مع ضباط هذه الشعبة فى وضع الصيغة الأولى لقانون الخدمة فى الحرب وهو قانون جديد وذو اهمية أساسية . وبهذا العمل المشترك احتككت برئيسى شعبتين من شعب هيأة أركان الحرب الكبرى اللذين كانا يشغلان فى ذلك العهد أهم الوظائف .

واشترك صاحب السمو الملكى الأمير غليوم البروسى اثناء ربيع ١٨٨٦ فى العمل الذى جرى بضعة أيام فى منطقة زوسين والذى كان الغرض منه اختيار عدة مشروعات جديدة للخدمة فى الحرب اختباراً فعلياً قبل تنفيذ قانون هذه الخدمة . فكانت هذه اول فرصة تشرفت فيها بمقابلة امبراطورنا فى المستقبل ملكنا وحاكمنا غليوم الثانى . وفى بحر الشتاء التالى حضر الأمير تمريننا على خريطة عموم اركان الحرب وكنت فى هذا الظرف أترأس القسم الروسى .

واذا كان المارشال مولتك فى خلال هذه السنوات قد عهد الى الكونت والدرسى بصفته مساعده الفصل فى أعمال شعب عموم اركان الحرب المختلفة فان روح المارشال وطريقة نظره فى الامور ما زالا واضحى الاثر . ومما لاشك فيه ان كافة الضباط كانوا يشعرون بعاطفة اعجاب لاحد له للكونت مولتك ولم يكن احدنا يحاول ان يتخلص من نفوذه العجيب .

ولم تسمح لى مقتضيات الاحوال فى سائر الاعمال التى وصفتها فيما تقدم بالدخول فى علاقات رسمية مع المارشال ولكنى تشرفت بمقابلته فى عدة اوقات خارج الخدمة ، ولقد حضرت فى ليلة لدى الأميراسكندر منظراً يوضح شخصية مولتك ومواهبه . فبعد تناول طعام العشاء أخذنا نتامل فى لوحة تمثل كاينها وزن وفيها ترى مقابلة الأمير فردريك شارل مع الامير ولى العهد فى ساحة قتال كو ينجراتز وكان بين الحضور القائد فون و ينتر فلدت الذى كان موجوداً اثناء تلك المقابلة فذكر أن الأمير فردريك شارل صاح عند ما شاهد الامير ولى العهد قائلا : « أحمد الله على وصولك والا فربما كانت الامور تجرى فى مجرى سيء بالنسبة لى ! » ولما سمع الكونت مولتك هذه القصة وكان يبحث عن سيجارة التفت الينا وتقدم ثلاث خطوات واسعة وقال بلهجة قوية : « لم يكن الامير فى حاجة الى التلفظ بهذه الكلمات اذ انه كان يعلم حق العلم ان الامير وريث التاج صدر اليه الامر بالمجىء وان قدومه كان منتظرا فى الظهر الى ساحة القتال وان الانتصار كان محققا بهذه الطريقة ! » وبعد ان انتهى من هذه الملاحظة عاد المارشال الى البحث عن سيجارة

وفى الاحتفال بعيد ميلاد الامبراطور السنوى كان القواد وضباط هيأة أركان الحرب الكبرى يدعون الى وليمة المارشال . ففى أحدى ولائم

هذا الاحتفال زعم احد المدعوين ان النخب الذى سيشرب به مولتك فى شرف الامبراطور لا يقل عن عشر كلمات من أول لفظ يفوه به الى أول هتاف. فحدث رهان في هذا الصدد لم أتداخل فيه انحيازاً لاحد فلم يوفق صاحب الزعم فى رأيه لان المرشال اقتصر على قوله : «ليحيي الامبراطور أيها السادة !» وهى كلمات كافية لان تخرج من مثل هذا الفم فى وسط هيأة كهيئتنا. وحدث مثل ذلك الرهان فى العام التالى ولكن ذلك الشخص الذى خسر في العام الماضي رفض الاشتراك فى رهان هذه السنة ولو قبل لربح فى هذه الدفعة لان الكونت مولتك قال فى هذا النخب: «سادتي ليحيي صاحب الجلالة ليحيي امبراطرنا وملكنا هوراه !» فكانت جملة ألفاظه أحد عشر

و بالجملة لم يكن الكونت مولتك في المجتمعات ملتزما جانب الصمت بل كان متكلما لطيف المعشر كثير الانتعاش

وفى عام ١٨٩١ رأيت المرشال آخر مرة وهو على فراش الموت . ودخلت غرفته ثانى يوم للوفاة فوجدته راقداً فى سريره وليس على رأسه القبعة التى كان رأسه يكتسى بها عادة فظهر شكل رأسه فى المظهر الذى يدل على قيمته الحقيقية. فلم يكن ينقصه الا اكليل من الغار يلتف حول جبينه ليصبح رأسه رأس قيصر تصورى . كم من فكرة عظيمة تولدت من هذا الرأس ! وكم من امنية سامية كانت تحتويها هذه الهامة ! وباى شهامة وشرف نفس وسمو فكر بل باى تجرد من الغاية اشتغل هذا الرأس لمصلحة وطننا ومليكنا ! ومنذ ذلك العهد وانا مقتنع بان شعبنا لم ينجب شخصا في مثل عظمته سواء امن جهة العقل أو من الصفة الشخصية . اجل ان مولتك هو الرجل الوحيد الذى بلغ فيه اجتماع هتين الميزتين

منتهى مبلغهما من السمو !

وكان امبراطورنا الأول المتناهى فى العظم قد انتقل من هذا العالم منذ ثلاث سنوات مضت . وقد عهد الي بالاشراف على الليلة الحزينة فى الكتدرائية فتثنت لى تادية آخر خدمة لمولاى الامبراطور الملك المحبوب فوق كل حب! وحينما كنت قائما بالمحافظة كانت افكارى تسبح فى الماضى الى ذكرى ميميل وكوينجراتز وسيدان ويوم فرساى العظيم واخيراً الى ذكرى أحد أيام الآحادمن العام الماضى حيث اختلطت بالجمهور المتحمس تحت النافذة المشهورة الكائنة فى زاوية القصر الملكى . ودفعتنى حماستى الى حمل ولدى البالغ من العمر اذ ذاك خمس سنوات بين ذراعي لاريه ملكنا ذا الشعور البيضاء وأنا أقول له : «اياك أن تنسى هذه اللحظة طول حياتك ولتقم دائما بتأدية واجبك ! »فالآن نفسه العظية الملكية والبشرية لحقت بنفوس رفاقنا التى بمثاليها بتحنيه منذ سنوات قلائل مع المارشال رون المتوفى .

على مائدة عملى قطعه من المرمر الازرق ! وهى مأخوذة من الكتدرائية القديمة ومن المكان الموضوع فيه نعش امبراطورى . ولست أعلم تذكاراً أعز من هذا الحجر قدراً ولا أحتاج الى استعمال ألفاظ لوصف المواطف التى تتحرك فى نفسى اليوم أيضاً عند رؤية هذا الحجر !

ولم يطل حكم ابن غليوم الأول الامبراطور فردريك فخر المانيا وأملها! لانه أصيب بمرض عضال سبب وفاته بعد بضعة أشهر من وفاة أبيه . وكانت هيأة أركان الحرب الكبرى اذ ذاك فى سياحة بحث واستقراء فى بروسيا الشرقية فاقسمنا يمين الاخلاص لجلالة الامبراطور والملك غليوم

الثانى ونحن فى جومبينين . فكان اشتراكى فى اداء يمين الاخلاص الملكى الجديد فى مكان أتيح لى بعد مضى ستة وعشرين حولا فى وقت عصيب ولكنه عظيم أن أقيم له الدليل باعمالى على صدق هذا الاخلاص .

ولقد خدمني الطالع السعيد بتهيئته لى فى داخل هيأة أركان الحرب التنقل فى متنوع الوظائف . فمع بقائى فى وظيفتى بهيأة أركان الحرب عهد إلي بالقاء دروس فى الخطط الحربية بالاكاديمية الحربية . فشعرت بابتهاج شديد لتأديتى هذه المهمة ولبثت اؤديها مدة خمس سنين متعاقبات . وفى الحقيقة أن العمل الذى اختصصت بتأديته كان عظيما جداً لانى مع القائى الدروس المفروضة علي فى الاكاديمية الحربية كان من الواجب علي أيضاً ان اؤدى عملى اليومى أولا فى هيأة أركان الحرب وأخيراً فى الفليق الثالث الذى صرت الضابط الاول فى أركان حربه . وعلى هذه الصفة كان اليوم المؤلف من أربعة وعشرين ساعة غير كاف . وأمست تمضية الليل فى العمل عادة لى .

وفى مدة تعليمى فى الاكاديمية الحربية تعرفت بعدة ضباط شبان كانوا فى منتهى النشاط والذكاء ومزودين بابدع الآمال . واسماء اغلبهم مسطرة الآن فى بطون التواريخ . ولااذكرهنا الا لاونستاين ولوتويستز وفراى تاج لورينجهوفن وبشتاين وهوتير . وكان يحضر دروسى ايضا ضابطان من اركان حرب الاتراك مدة عامين وهما شاكر بك وتوفيق إفندى وقد صارا فيما بعد فى وطنهما احدهما مشيراً والآخر فريقاً . وفى خلال اقامتى باركان حرب الفيلق الثالث كان قائد هذا الفيلق ثانى القائدين المتسميين بالفون برونسارت وهو ضابط عظيم الجدارة كان مستخدماً فى عام ١٨٦٦ و فى عامى ١٨٧٠ — ١٨٧١ فى اركان الحرب وقد صار وزير

الحربية كما سبقه الى هذا المنصب اخوه من قبل .

ولقد سمح لى انتدابى الى وزارة الحربية بنوع من العمل حديث بالنسبة لى اذ وكلت الى عهدتى شعبة من ادارة الحرب العامه . وهـذا التعيين يجب عزوه الى ان رئيسى القديم فى الفرقة القائد فون فيردى الذى عند ما اسندت اليه وزارة الحربية استدعانى اليه اثناء حدوث تعديل فى وظائف الوزارة . وعلى اثر ذلك تعينت رئيس شعبة

وفى اول استلامى اعمال هذه الوظيفه لم اجد فى نفسى ميلا اليها غير اننى فيما بعد قدرت الفائدة التى استفدتها من هـذه الوظيفة حق قدرها لاننى استطعت ان ادخل فى دائرة عمل وفى مسائل كانت الى ذلك الحين لاتزال مجهولة تمام الجهل لدي .

وعرضت لى فرص عديدة ساعدتنى على معرفة الصيغ الرسمية المتبعة فى الاعمال العادية والتى يصعب التخلص منها مع تلك الطرق المتعبة والنزعة الديوانية المتمكننة من نفوس بعض الاشخاص المرؤوسين وهى نزعة مترتبة على الصيغ الرسمية ، ولكننى مع ذلك تأكدت من ان كل واحد يشتغل باعظم همة الى درجة استنفاد قواه .

وكان من جملة الاعمال البالغة فى الاهمية التى كنت اقوم بها فى تلك المدة تنقيح قانون جنود تنظيم الطرق والتعليمات التى يجب اتباعها فى المدفعية الثقيلة أثناء القتال فى الارض المكشوفة . وكلا هـذين القانونين مستمد من تجارب الحرب .

ان الخدم التى أدتها وزارة الحرب فى زمن السلم وعلى الاخص أثناء الحرب الاخيرة جديرة بأن تصيب نصيبها من الاجلال . ولكن لا يمكن تأكيد رأيى هذا وتبريره برمته الا اذا درس درساً جيداً وبفكر هادىء

خال من كل شائبة .

واذا كنت مع طول الزمن قد عرفت كل المنفعة المترتبة على اشتغالى في الوزارة الحربية فانى لا استقبل عهد تخلصى من نير الخدمة الديوانيـة المقيدة بتحية اقل حرارة من التحية التى اودع بها الوظيفة التى افادتنى كل تلك المعلومات الجديدة . فقد تعينت فى سنة ١٨٩٣ رئيساً للالاى الحادى والتسعين من المشاة المخيم فى اولدنبورج

ان وظيفة رئاسة الالاي هى أبدع ما يمكن الحصول عليه فى الجيش ان رئيس مجموعة من الضباط يطبع آلايه بطابعه الخاص وهو تمثيل العادة المتبعة تمثيلا محكما . فينير عقول هيأة ضباطه لا منوا لوجهة العسكرية فقط بل من الوجهة الاجتماعية أيضاً و يشرف و يراقب على تعليم الجنود وهذان هما الواجبان الجوهريان لرئيس هيأة الضباط فبذلت جهدى فى أن أغرس فى نفوس الضباط روح الشهامة والاباء وفى طوابيرى الميل الى الحـرب والاطاعة العمياء . ولكنى حاولت كذلك أن أوجد فى جميع مرؤوسي مع المحافظة على تنفيذ الاوامر واطاعة التعليمات بكل دقة مع محبة العمل والابتكار والابتهاج بهما . وبفضل هذا التعبير المحكم تيسر لى أن امرن حامية اولدنبورج المؤلفة من مشاة وفوارس ومدفعيين على سائر الاعمال العسكرية

ولقد أظهر لى صاحبا السمو الملكى الجراندوق والجراندوقة أعظم رعاية وكذلك كان نصيبي من ولى العهد وقرينته . ومن جهة أخرى كنت دائما اقابل بالحفاوة فى كل مكان وحببت الي اولدنبورج جداً بصفتها مدينة الحدائق المحبوبة . وقد وافقتنى مشية اهالى اولدنبورج الهادئة الوقورة . وهذا هو السبب فى انى اتذكر بارتياح واعتراف بالجميل تلك المـدة التى قضيتها فى المدينة المذكورة . ومن أعظم بواعث الحبور ان امبراطورى من طيبته

وكرمه هيأ لى الفرصة باعادة صلاتى بالالاى القديم اذا أنعم علي « بالتبعية » للالاى الحادى والتسعين بمناسبة الاحتفال بمرور سبعين عاما على مولدى وهذا الأمر جعلني اليوم محسوبا من عداد الاولدنبرجيين .

وفى عام ١٨٩٦ تعينت رئيس أركان الحرب فى الفيلق الثامن وهذه الوظيفة جعلتنى أتصل لأول مرة مع ولايتنا الرينية . ولقد تأثرت أعظم تأثر للخلق الجميل والمقابلة الحبية التى تلقانى بها الرينيون . وانى معترف بانى بذلت جهدى لاعتاد على طريقتهم المشوبة بالخفة فى نظرهم الى أهم الشؤون فى الحياة وعلى طريقة شعورهم المشوبة بالليونة على نقيض الشعور الالمانى الشمالى . وان توسعنا التاريخى وكذا اختلاف الموقع الجغرافى والحالة الاقتصادية كل هذه الامور توضح باجلى بيان ان البروسيين والرينيين لا يتفقان فى التفكير ولا فى الشعور فى كثير من النقط . ولكن من رأيى ان اتخاذ تكأة من هذه الاختلافات فى هـذه الأيام لفصـل البلاد الرينية من بروسيا جريمة ونكران للجميل .

ولقد اجتذبتنى الحياة اللذيذة على ضفتى الرين الى حبائلها فقضيت فى هذه الولاية ساعات عذبة . وكان الرئيس الأول للفيلق القائد فوبجيل فون فالكينستاين الذى عرفته من قبل فى هياة أركان الحرب الكبرى رئيسا لاحدى الشعب وفى وزارة الحرب رئيساً للقسم الذى كنت ملتحقا به . ولكن صاحب السمو الملكى الجراندوق وريث التاج البادى حل فيما بعد محله فى قيادة الفيلق

ولقـد تيسر لى أن ألبث ثلاثة أعوام ونصف عام بجانب هذا الشخص الجليل . وأعد هذه السنوات بين اهنا سنى حياتى . فان عواطفه الشريفة التى تمتزج فيها عظمة الامارة بعودة آخذة بمجامع القلوب واخلاصه المقتدى

به والذى لا يعتريه ملل من القيام بالواجب ومشيته وصفاته التى تمثل الجندى الحقيقي تيسر له فى الحال حب وثقة مرؤوسيه والاهالى الرينيين

وفى أثناء رئاستى اركان الحرب عام ١٨٩٧ اشترك الفيلق الثامن فى المناورات الامبراطورية . فارتاح جلالة الامبرطور الملك من التمرينات العسكرية . ويجب ان نذكر بين الحفلات التى اقيمت فى كوبلانس حفلة رفع تمثال الامبراطور غليوم الأول فى دوش أيك وهى نقطة بديعة الموقع فى المكان الذى ينصب فيه الموزيل فى الرين قبالة حصن ايهرينبرايتستاين.

وبما انني بقيت اربع سنوات رئيس اركان حرب فقد صارت اقدميتى فى الدرجة لاتجعل مكانا للتفكير فى ترقيتى الى رئاسة لواء من المشاة . وهذا هو السبب فى انى بعد انقضاء هذه السنين ألاربع رقيت فى سنة ١٩٠٠ الى قيادة الفرقة الثانية والعشرين بكار لسروب .

فتلقيت هذا الأمر الصادر من مليكى المبجل بمنتهى الحبور . ولقد هيأت لى علائق الخدمة التى دامت الى هذا الحين مع الجراندوق وريث التاج البادى حظوة التمتع برعاية خاصة من جانب صاحبي السمو الملكى الجراندوق المذكور والجراندوقه قرينته . وهذه الراعاية تمتعت بها أيضا زوجى وكان لنا منها نحن الاثنين سعادة عظيمة . ويجب أن نضيف الى هذه السعادة المسرات التى اتاحتها لنا بلاد باد البديعة بكل محاسنها الريفية وسكانها البشوشين وكذلك كارلسروب بمصادرها العديدة الفنية والعلمية وبمجتمعاتها التى تضم شمل سائر الاوساط والمهن .

والفرقة المشاة هي الوحيدة الأولى التى تجتمع فيها الاسلحة الثلاثة تحت رئاسة واحده . فمهمة رئيس الفرقة متوزعة على عدة أعمال مختلفة فهى اعلى من النظر فى المسائل الفرعية ويظهر عملها على الأخص فى المسائل

بذات الأهمية العظيمة فى الحرب .

وتركت كارلسروب فى عام ١٩٠٣ وأنا احفظ لها فى قلبي أعظم عواطف الامتنان : فقد دعتني ثقة رئيسى الاعلى المعظم الى ترأس الفيلق الرابع . فتوليت حينئذ منصباً حفيلا بالتبعات تكون الاقامة فيه على العموم مدة أطول من أية وظيفة أخرى . ان قائد الفيلق بصفته رئيساً له لا ينظر الا فى أهم الشؤون المختصة بالوحدات المتألفة منها فيلقه . على انني لبثت اعمل بحسب المبادىء التى اتبعتها الى هــذا الحين واظن انني حصلت بواسطتها على نتائج . ولقد كنت اهتم جد الاهتمام بعطف مرؤسي وميلهم الي لانني اراهما خير القواعــد التى تنتج أحسن الجنـود وقد ظهر الي فى ألطف مظاهرهما بعد ثمانية اعوام عند ما غادرت وظيفتي اللطيفة .

وقد تشرفت بتقديم فيلقى فى اول عام استلمت فيه قيادته الى صاحب الجلالة اثناء المناورات الامبراطورية التى ابتدئت بعرض فى ميدان القتال فى روسباخ ، فتلقيت التهنئات من مليكى وهى تهنئات نقلتها الى مرؤسي وجنودى .

ولقد تشرفت بحظوة تقديمى الى صاحبة الجلالة الامبراطورة فى اثناء هذه المناورات . ولقد عرضت لى ساعات فيما بعد حينما اصبحنا فى موقف عصيب بالنسبة لنا ادركت فيها قيمة هــذه السيدة الفاضلة تجاه بعلها الجليل وتجاه الوطن وتجاهى .

وكان الفيلق الرابع على عهــدى تابعاً فى التفتيش الجيشى لصاحب السمو الملــكى الامـير ليوبولد البافارى . ولقد رأيت فيه الرئيس الـكفء والجندى المتناهى فى البراعة . ولقد اراد القدران نتواجد معاً فيما بعد فى ساحة الحرب الشرقية . ومع انه اقدم عهداً منى فى الرئاسة فقد تفضل

ووضع نفسه تحت اوامرى لاجل انجاح مسألتنا الكبرى . وفى ديسمبر عام ١٩٠٨ اشتركت مع القائد فون بيلوف بناء على امر صاحب الجلالة الامبراطور وكان فيلق هذا القائد تحت تفتيش الأمير البافارى فى الاحتفال الذي جرى بمونيخ بمناسبة مضي خمسين عاماً على هذا الامير فى الخدمة . وقد تشرفنا بهذه المناسبة بحظوة المثول بين يدى صاحب السمو الملوكى الامير لو يتبولد المضطلع بأعباء الاحكام فى تلك الولاية فقابلنا بمنتهى الرعاية .

وكثيرا ما ينتقص ماجدبورج مقر الفيلق الرابع من لا يعرفها حق المعرفة . اما هي فمدينة بديعة قديمة فيها من الآثار القيمة ما يستحق المشاهدة مثل برايتروبج والكتدرائية الفاخرة . وعلى أثر استئصال الاسوار اقيمت مكانها ضواح لطيفة حافلة بكل المطالب الحديثة . ولقد استعاضوا بسبيل واسعة شيقة محفوفة بالمروج عن المناظر الطبيعية الجميلة الخالية منها ضواحي ما جدبورج . وأما فيما يختص بالفنون والعلوم فقد اهتموا أيضاً بايجاد المسارح التمثيلية والمعازف الموسيقية والمتاحف الاثرية وأماكن المحاضرات الى امثالها . فيرى من هذا البيان أنه من الممكن الاقامة بارتياح فى هذه المدينة فى ساعات الفراغ من الاعمال ولا سيما اذا اريد الاختلاط بامثال المجتمعات اللطيفة التي تمتعنا بحسن عشرتها . ولم تكن عشرتنا مقتصرة على الامتزاج باوساط المدينة بل لقد لاقينا حفاوة ووداً فى برونسويك وديساو والتنبورج وفى قرى اخرى وضياع ريفية عديدة . ولا يسعنى أن أحصي كل الزيارات التي تمتعنا بها لان مثل هذا الامر يذهب بي مذهبا بعيداً جداً . على أنني اريد أن أذكر احداهن لانى احتفظ منها بذكرى مقرونة بالامتنان . وهي الاقامة التي كنا نتمتع بها كل عام فى

كاروف بجانب قائد الفرسان الكونت وارتينسليبين صديقي الموقر الذى احله محلة الوالد وهو الآن يبلغ الثالثة والتسعين من العمر .

ولم تعوزنا الفرص اللازمة للاصطياد أثناء اقامتى فى ماجدبورج ففضلا عن أوقات الصيد الكبير المشهور المخصص للارانب والطيور الكبيرة من ولاية ساكس فقد كان يوجد صيد البلاط الاميرى فى ليتزنجين وموزيجكاو بجوار ديساو ، وبلانكانبورج فى جهة هارز والتنبورج وخلاف الذهاب الى المصائد الاخرى فى ضياع يتاح فيها اقتناص الخنازير البرية والغزلان والايائل والوعول .

وأخذت فكرة اعتزال الجيش تزداد اختماراً على توالى الايام فى نفسى اذ انني حصلت فى مجالى العسكرى على أكثر مما انتظره . ولم يكن اذ ذاك أدنى تصور لنشوب حرب فرأيت من الواجب علي أن أفسح مكان الترقي والعمل لقوى انضر شباباً منى . ولذا طلبت فى عام ١٩١١ احالتى على المعاش . وبما انه قد انتشرت اشاعات فى منتهى الغرابة عن هذا الحادث الذى لا أهمية له فاني أصرح بان استقالتي لم تكن ناجحة عن أى سبب مختص بشؤون الخدمة أو أي باعث شخصي .

ولقد شق على جد المشقة التخلى عن علائق صارت عزيزة لدى بطول العهد عليها ولا سيما انفصالى من الفيلق الرابع الذى كان قلبي متعلقاً به أشد التعلق . ولكن كان لابد من هذا الاعتزال ! ولم أكن اظن فى ذلك الوقت انى بعد مضى بضع سنوات قلائل سأعود الي حمل حسامى والى الاضطلاع من جديد بخدمة امبراطورى وامبراطوريتى ومليكى ووطنى كما كنت أفعل فى فيلقى القديم .

وفى خلال مدة خدمتى الطويلة تعرفت كل القبائل الالمانية على وجه

التقريب . وهذا هو السبب فى كونى أستطيع أن أقول اليوم ان الصفات السامية المختص بها شعبنا تعتبر فى الحقيقة مورد أثراء عظيم وانه لا توجد بلاد فى العالم باسره تحتوى بمثل الدرجة التى تحتويها المانيا على سائر الوسائل الجوهرية التى تهيىء نمو الحياة الادبية والفكرية الثمينة .

اعتزالى الاعمال

تركت الخدمة العاملة وانا معترف بفضل امبراطورى وملكى اعترافاً مشفوعاً بالإخلاص متمنياً لجيشه أعظم الامانى واثقاً تمام الثقة بمستقبل وطنى . ومع ذلك لبثت جندياً فى ضميرى .

ان الحوادث الجليلة التى عرضت لى فى كل الوظائف التى التحقت بها فى مدة عملى تسمح لى بان أنظر بامتنان ورضى الى عملى الماضى . ولا يتأتى لاى كان ان يشوه جمال الصحيفة التى ترتسم فيها مجموعة أعمالى التى تسجى عليها أحلام شبابى المتناهية فى الحرارة خماراً شفافا آخذاً بمجامع القلوب وهكذا عند ما التزمت العزلة التى التمستها انا نفسى لم تكن مفارقتى الوسط العملى الذى قضيت حياتى فيه من غير حسرة ولم يكن بغير جزع ابتعادى عن صفوف الجيش . ولازمنى فى هدوء حياتى الجديدة ملازمة شديدة الامل فى ان يستدعينى امبراطورى اذا أصبح وطننا عرضة للخطر لاطفىء لهيب شغفى بتضحيتى قواى الاخيرة فى خدمته .

وفى الوقت الذى غادرت فيه الجيش كان روح فكري ذو قوة خارقة للعادة يحدث فيه اضطرابا . فان الصراع الحاد المستحكم ما بين المذاهب العتيقة والمذاهب الحديثة ما بين أشد أنصار التقدم والمتأخرين المتخوفين بحث وجد الحكم المرضي فى التعاليم العملية المستمدة من أقرب الحروب

نشوبا . وبهذه التعاليم على الرغم من السبل الجديدة التى مهدتها لنا لم تبق لدينا أدنى شك فى انه فى هـذه الاوقات التى ازدادت فيها أهميـة سائر وسائل القتال يجب الاهتمام كما كان الحال فيما سلف بتعليم الجندى وتهذيبه. والاقدام فى العمل لا يزال حافظا مركزه فى التفوق على البراعة فى أحكام الرأى . وكذا حضور الذهن ومتانة الخلق بقيا فى الحرب أهم من مستنبطات التهذب الفكرى . وعلى الرغم من التحسين الذى طرأ على أسلحة التدمير فان الحرب حفظت أشكالها البسيطة بل يمكننى أن أقول أشكالها المتوحشة. فهى لا تتحمل ان يكسبوها مخالفة كاذبة للجبلة البشرية وان يحاولوا تهذيب التعليم الحربى . وانما كل ما تتطلبه قبـل كل شىء هو ان يجعلوا الانسان قوى الارادة .

لقد ذهب الظن فى وقت السلم الى امكان النعى على الجيش بانه غير مثمر . وربما كان الذاهب الى هذا الظن على أتم صواب اذا عنى بالاثمار ابتداع أشـياء مادية ولكنه يكون على أعظم خطأ اذا قصـد بالاثمار الوجهات الادبية وما هو اسمى منها . ان أى انسان لا يصدر حكمه قبل الاختبار و بغير تغرض وسوء قصـد على عملنا العسكرى فى زمن السلم يكون مضطراً للاعتراف بان الجيش أعظم مدرسة لقوة الارادة وللعمل بل مدرسة للابتهاج بالعمل . كم آلاف من الرجال لم يتعلموا الا فى هـذه المدرسة ماهم أكفاء له أدبيا وطبيعة . وكم من الرجال لم يتحصلوا الا بواسطتها على الثقة بالنفس والقوة الداخلية الذاتية التى حافظوا عليها طول حياتهم ! وأين وجدت فكرة المساواة وعاطفة الاتحاد الحاصل عليهما شعبنا مكانا لانتشارهما أعظم رحبا من مدرسة جيشنا العملية الكبرى ، وهى المدرسة التى تجعل كل أعضاءها متساويين ؟ ان الميل الى حب الذات الفردى الذى

لاحد له والذى يرمى الى استئصال المجتمع والحكومة قد تطهر فى الجيش وتحول الى اطاعة ذاتية شديدة الوطأة لاجل سير المجموع . فالجيش هو الذى ربى وقوى هذا الهيام الشديد بالنظام الذى تراه فى كل مكان من وطننا سواء فى مجرى السياسة أو فى مضمار العلم أو فى التجارة بل فى الفن وفى الصناعة وفى كتلة العمال وفى الزراعة والخلاصة فى سائر الحرف الاخرى. فالجيش والفضل مرجعه اليه والشعب الالمانى كذلك أدركا حق الادراك ان مبدأ الاطاعة الفردية لاجل المصلحة العامة هى ضرورة بل هى خير . وهذا المبدأ وحده هو الذى يسر المجهودات التى لم يسمع بمثلها تلك المجهودات التى كان من الواجب علينا ومن الممكن لنا القيام بها لمقاومة عالم لجب من الأعداء فى أحرج الاوقات . لان الضباط والجنود الالمانيين الذين قاتلوا فى ميادين أوربا وآسيا وأفريقيا وجدوا ان التعليم الذى تلقوه فى الجيش هو التعليم الوحيد الواجب اتباعه . وعلى الرغم من انه بعد حوادث مختلفة قد أحدث طول الحرب الاخيرة تأثيراً مضاداً للحالة الادبية لدى بعض الطباع ناجماً عن رد الفعل للتشدد البالغ فى المحافظة على حالة النفس الادبية وقوة الجسد الطبيعية فاضطربت الى حد المبادىء الادبية . وعلى اثر محاولات عديدة شوهد ضعف فى أخلاق كانت الى ذلك الحين مجردة من كل ما يستوجب المؤاخذة ومع كل هذه الطوارىء بقيت نواة الجيش الخاصة به سليمة من الوجهة الادبية وفى غاية ما يرجى من القيام بالواجب على الرغم من العبء الباهظ الذى كان يضغط على هذه النواة بدرجة لم يسمع بمثلها .

لقد عابوا على الجيش السالف اجتهاده فى حمل الرجل الحر على أن يكون آلة لا ارادة لها . ولكن الذى شوهد فى ميادين الحرب العالمية

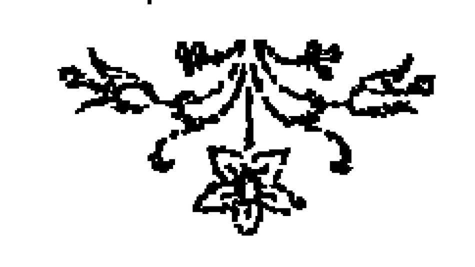
الكبرى أثناء البواعث المثبطة الناجمة عن تتابع معارك لامنتهى لها هو التأثير العظيم الذى احدثه تعليمنا بتقويته ارادات الرجال . فقد أظهرت أعمال لاتعد ، مجيدة ومؤثرة فى النفوس ، مقدار الكفاءة التى يزدان بها الجندى الالماني الباسل بالتضحيات العظيمة التي يؤديها بمحض اختياره لا بقوله « يجب على أن أفعل كذا » بل بقوله « أريد » .

أن مجرى الحوادث الحالية يقضى بانتهاز فرصة حل الجيش القديم لاتباع طرق مستحدثة لتعليم الشعب وتجديد قوته المسلحة . وفيما يختص بمسألة التعليم لا أزال متشبثاً بمبادئنا القديمة التى دلت على مقدار نفعها . أن مقصدنا الذي نرمى اليه هو تمكين شعبنا من القيام بأعمال حربية عظيمة تضارع امثالها السالفة . ربما كان البعض لا يعير أهمية اولية للوسائل والمشروعات التي ستنفذ للوصول الى هذا المقصد ، ولكن الجميع سيوافقونني على الأهمية الأولية للمقصد نفسه . فالذى ينبغى الاهتمام به الآن هو العلم بما اذا كنا نريد التخلى عن مركزنا فى العالم ونتحط الى منزلة السندان لاننا لن نكون حاصلين على الشجاعة وعلى القوة اللازمتين لتمثيل دور المطرقة فى الساعة التى تسنح لنا فيها الفرصة المناسبة .

وربما لا تتعلق المسألة فقط بنجاح المانيا السياسى بل تتعلق كذلك بنجاحها الاقتصادى وبمعرفة الطريقة التى ستوصلنا الى اعادة مدرسة النظام وقوة العمل تلك المدرسة العظيمة التى كنا حاصلين عليها فى جيشنا القديم .

واذا كانت توجد بلاد على وجه الارض لاتتهيأ لها السعادة ولا الاحتفاظ بمركز خليق بحياتها ما بين بلاد العالم الاخرى الا بجمع كل قواها المبتكرة فما هى بلا شك الا البلاد الالمانية . فالنتائج المحزنة التى تنجم

عن حرب سيئة الطالع والتوهم الكاذب بان انقياد سائر قوى الامة لارادة وحيدة لم يستطع ان يدرأ المصيبة عن وطننا أوجدا عندنا لسوء الحظ معارضة قوية للنظام الدائم المتبع بشدة عظيمة . ان التمرد على الخضوع الاختياري أو الاجباري الذى ظهرت بوادره منذ عدة سنوات تخطى حدوده المعروفة الى الآن وضل بغير خطة معلومة فى مسالك حديثة . وعلى كل حال فالى الآن قد افقدتنا نتائج تمزقنا الوطني مقداراً عظيما من القيمة الادبية اكثر مما افقدتنا منها نتائج الحرب المباشرة . فاذا لم نوجد فى امد قريب قوى معلمة جديدة واذا ثابرنا على ما فعلناه حتى الآن من استئصال قوى شعبنا الفكرية والادبية فاننا نستنفد بغير أوان كنز حياتنا الوطنية الثمين ونجعله قاحلا غير قابل لافاضة الخير .



القسم الثانى

قيادتي الجبهة الشرقية

المكافحة لاجل بروسيا الشرقية

اشهار الحرب : إسناد قيادة الي

أن الهدوء الذى تمتعت به حياتى أتاح لى منذ عام ١٩١١ ان أقف حياتى كلها بتمام الارتياح على الاهتمام بشؤون العالم السياسية . وفى الحقيقة ان الملاحظات التى لاحظتها اذ ذاك لم تكن داعية الى الارتياح . لقد كنت بعيداً عن القلق ولكنى لم أكن استطيع التخلص من بعض العواطف الموجبة لضيق الصدر . وكانت تخامرنى فكرة مقتضاها اننا نترامى فى اقيانوس السياسة العالمية الواسع بدون أن يكون مركزنا فى أوربا ناهضا على أقوى أساس . وعند ما كنت أرى السحب المتلبدة فى سماء مراكش والغمائم الزاحفة الى أفق البلقان كنت أشعر كما كان يشعر مثلى أغلب أبناء وطنى بان الارض الالمانية ملغمة . ولقد تواجدنا فى الاعوام الاخيرة أمام لجة طاغية من الحقد الفرنسوى يظهر أن طغيانها يتجدد بانتظام . وأساس هذا الحقد معلوم وقد بحث عن ظهيرله ووجده فى الروسيا وفى انجلترا مع اختلاف رجال هذه الدول الثلاث فى الصفات وفى الاعمال وفى النزعات .

وما جهلت البتة الصعوبات الخاصة التى تعترض ادارة السياسية الالمانية اذ من الممكن أن يلمس المرء بيده الإخطار الناجمة عن مركزنا

الجغرافى ومطالبنا الاقتصادية ولا سيما بقاعنا المنتشرة على سائر تخومنا والتى يقطنها مزيج من السكان .

ولقد حشدت سياسة أحد الدول المعادية لنا المطامع الاجنبية ضدنا ولم تحتج الى المهارة الفائقة لنجاحها فى تلك السياسة التى قادتنا من شؤم الطالع الى الحرب . وقد أبينا أن نعاكس هذا الخطر . فلم يدر سياسة تحالفنا الا قانون من الشرف يتجاوز مطالب شعبنا ومركزنا بين دول العالم.

وقد بلغ من قلة عنايتنا بسياستنا ان أحد الذين صاروا فيما بعد مستشارين للامبراطورية الالمانية اعتبر عدم النظام المتزايد فى شؤون حليفتنا المملكة الدانوبية كامر طبيعى ولا يتصور العقل كيف لم تدرك سياستنا العواقب المنطقية المترتبة على تخبط تلك الحليفة فى شؤونها .

وكنت أشعر دائما بعاطفة من الميل الذى لاحد له لاخواننا فى العنصر وهم النمساويون الالمانيون. وكنا جميعا على أشد الاهتمام بالمصاعب المحدقة بمركزهم فى داخل وطنهم. ولكن هذا الشعور بحسب ما أرى قد استخدمته السياسة النمساوية المجرية فى مصلحتها الخاصة أكثر من اللازم .

فكلمة « اخلاص النيبيلونجن » كانت فى الحقيقة كلمة فى موضعها الحقيقى عند النطق بها . ولكن لا يمكننا ان نخدع أنفسنا من جهة كون الدولة النمسوية المجرية اجتذبتنا بطريقة مفاجئة وبدون اتفاق سابق مطابق لمعاهدة تحالفنا الى الازمة البوسنوية ـ التى كانت قد أعطيت الكلمة بشأنها ـ والتى تطلبت منا فيما بعد تحمل عواقبها . ومن الواضح اننا لم نكن نستطيع التخلى فى ذلك الوقت عن حليفتنا ، لان مثل هذا العمل من شأنه أن يقوى الكتلة الروسية التى لا تلبث على أثر تقويها أن تسحقنا بكل تأكد وبكل سهولة .

وأن عـدم التوازن ما بين مطامع السياسـية النمسوية المجرية وقواها العسكرية والداخليـة كان من أهم ما يلفت بصري بنوع خاص بصفـتي جنـديا . اننا ازاء التسلح الروسي الهائل وتجـديد قواها على أثر الحرب الروسية اليابانية لم نتأخر نحن الالمانيين عن تقوية وسائل دفاعنا ولكننا لم نطالب حلفاءنا النمسويين المجريين ببذل مثل المجهود الذي قمنا به . ومع ذلك فقد كان من السهل على هؤلاء الحلفاء عند ما نطالبهم بزيادة تسليح بلادهم ان يتترسوا بالمصاعب الناجمة عن حالتهم الداخلية . ولكن لماذا لم نجد نحن الوسيلة التي نتوصـل بها الى الاشتراط عليها أما ان تنصاع الى نصائحنا وأما أن تكف عن مطامعها ؟ ومع ذلك فقـد كنا عالمين بتفوق خصومنا في عدد النفوس ومقادير المواردعلينا ! وهل كان من المستصوب أن ندع حليفتنا تهمل تسليح قسم كبير من قواها الوطنيـة لاجل الدفاع المشترك ؟ وما الفائدة من اتخاذ حليفتنا منفذاً لنا الى الجنوب الشرقي اذا كان هـذا المنفذ معرضاً من جوانبه الاخرى للاخطار وليس فيه حماة أكفاء للدفاع عنه ؟

لقد كان يتراءى لي ان تعضيد ايطاليا لنا بالسلاح تعضيداً فعالاً مسألة تستدعي النظر . ان هذا التعضيد مشكوك فيه حتى لو وثقنا بحسن ارادة رجال الحكومة الايطالية . وذلك لاننا وجـدنا الفرصة التي مكنتنا من مشاهـدة أوجه الضعف العظيم في جوانب الجيش الايطالي اثناء الحملة الطرابلسية . ومنذ ذلك الحين لم تنصلح حالة هـذه البلاد انصلاحا تاما بسبب التزعزع الشديد الذي أصاب ماليتها . وبالاختصار لم تكن ايطاليا على استعداد لخوض غمار الحرب

كانت أفكارى وهواجسى منصرفة اذ ذاك نحو هذه النقط المختلفة .
لقد بلوت الحرب مرتين من قبل . وكانت سياستنا فى كل مرة حازمة حتى ان أغراضنا من الحرب كانت بسيطة ومعينة . وما خشيت الحرب من قبل وما أخشاها الآن . ولكنى أعلم ان فى جانب نتائجها السامية توجد النتائج المدمرة التى ينوء بها العالم الانسانى ولهذا كنت أعنى توقيها بقدر الامكان مدة طويلة من الزمن

ولكن الحرب لم تلبث أن أرسلت لهيبها علينا ! فاستحالة تفاهمنا مع فرنسا على البقعة الحادث التنازع عليها . وتلطيف الحسد التجارى الانجليزى ومناظرتها المقلقة، والتمكن من ارضاء مطامعها بدون فصم عرى اتحادنا مع النمسا كل هذه الامور حركت من مدة طويلة فى المانيا توتراً ادبيا شديدا حتى ان شعبنا عند ما اشتعلت نيران الحرب كان يتصور انه تخلص من عبء باهظ كان يثقل كواهله بلا انقطاع ويؤثر فى سائر مجرى حياته .

لقد أسرع الجيش الامبراطورى الالمانى الى امتشاق الحسام ! فيالها من قوة حربية عظيمة ! وقلما رأى العالمون مثلها ! وعند ما رأى الشعب الالمانى هذه القوة أخذ قلبه يخفق بقوة زائدة . ومع ذلك فلم يحدث استخفاف بهذه المهمة التى تنتظرنا لان بسمارك ومولتك لم يتركانا جاهلين ثقل مثل هذا الحمل الهائل الذى تلقيه على كواهلنا مثل هذه الحرب وكل رجل رزين عندنا أخذ يتساءل اذا كنا اكفاء من الوجهة السياسية والاقتصادية والعسكرية والادبية للاستمرار على تحمل اعباء الحرب . ومع ذلك فلم يكن ثمت أدنى شك فى تغلب عاطفة الثقة على عاطفة الانزعاج

ولقد نمى الي أيضاً نبأ انطلاق الحرب من عقالها وانا فى تلك الحالة النفسية وما بين تلك الأفكار . فتحرك الروح العسكرى في بقوته المتسلطة

علي فهل لامبراطورى ومليكى حاجة بى ؟ لقد مرت الساعة الأولى علي من غير أن تصلني اية اشارة رسمية فى هذا الصدد . فيظهر ان قوى أنصر شبابا كانت مستعدة فى عدد كاف . فوكلت أمرى الى القدر ولبثت مضطربا على أحمى من الجمر .

فى الجبهة

وقفت المانيا مصغية وهى فى حالة هياج .

أخذت أنباء ميادين القتال تصل الينا كما نامل وكما نريد . فسقطت لييج واصبحت وقعة مولهوز انتصارا لنا ، ووالى جناحنا الأيمن وقلبنا زحفهما فى بقاع البلجيك . وتنسمنا أريج الاستبشار عند ما وصلت الى المانيا المعلومات الأولى عن معركة اللورين . وتعالت من الشرق أصوات تشبه أبواق الانتصار .

ولم يبق مجال لتسرب الشكوك والهواجس الى الأفكار من أية جهة من جهات الحوادث الجارية .

وفى الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم ٢٣ أغسطس سئلت من المعسكر الاكبر المقيم به جلالة الامبراطور اذا كنت على استعداد لقبول وظيفة فى الحال

فكان جوابى : « مستعد »

وقبل ان يصل جوابى الى المعسكر العام استلمت تلغرافا آخر منه كانما هو واثق من قبولى الخدمة فى ساحة العراك وفى هذا التلغراف انبئت بان الجنرال لودندورف سيأتى لمقابلتى .

وأخذت الحالة تتوضح امام بصرى شيئا فشيئا على أثر المخابرات الواصلة الي من المعسكر العام بوجوب شخوصى حالا الى الشرق بصفة

قائد عام لتلك الجبهة

وقصدت المحطة فى الساعة الثالثة صباحا على عجل من غير أن اتمكن من اتمام لوازم السفر وانتظرت فيها بضجر ساعة الارتحال وليس حولى سوى نور ضئيل ولم يتخل فكرى عن مستقر أسرتى الذى اضطررت الى مغادرته فجاة الا عند ما دخل القطار الخصوصي المختص برفناء المحطة. فنزل منه الجنرال لودندورف وقدم نفسه لى بصفته رئيساً لاركان حربى فى الجيش الثامن.

والى هذه اللحظة لم اكن اعلم عن هذا القائد شيئاً، اذ كنت لا أزال أجهل سلوكه الباهر الذى اتبعه فى ليييج. فأول ما بدأ به اطلاعى على المعلومات التى تلقاها شخصيا فى يوم ٢٢ اغسطس فى المعسكر العام من رئيس اركان الحرب العام للجيش المحارب اللواء مولتك فى كوبلنس عن حالة جبهتنا الشرقية. وحسب هـذه المعلومات تكون حركات الجيش الثامن فى بروسيا الشرقية حدثت على النسق الآتى: ترك رئيس هـذا الجيش فى بدء الحركات الفيلق العشرين فى أماكن احتشاده معززاً بحاميات النقط المحصنة و بتشكيلات اخرى من اللاندوهر وجعل مهمته حماية الحد الجنوبى من بروسيا الشرقيه والغربيه من ابتداء الفيستول الى منطقة بحيرات لوتزن. اما الكتلة الكبرى من هـذا الجيش وهى مؤلفة (من الفيلقين الأول والسابع عشر العاملين ومن الفيلق الأول الاحتياطى والفرقة الثالثة الأحتياطية وحامية موقع كونيجسبيرج والفرقة الاولى من الفرسان) فقد احتشدت فى تخم بروسيا الشرقية وهاجمت هـذه القوة فى يوم ١٧ إغسطس بجهة ستاالليبونين وفى يومى ١٩ و ٢٠ منـه بجهة جومبيسنين جيش النيمين الروسى القادم من الشرق بقيادة القائد

م يننسكامبف ووصلت معلومات اثناء معارك جومبينين تفيد ان جيش
ة الريف الروسى زحف على خط التخوم الممتد ما بين سولداو وفيلنبرج الذي
كانت مستولية عليه جنودنا بناء على الامر الصادر اليه من القائد سامسونوف
. فتخيل قائد الجيش ان من الواجب التسليم بان الروس سيجتازون
التخوم ابتداء من يوم ٢١ اغسطس . وعلى اثر هذا التهديد المنبعث من
الجهة الجنوبيه والموجه الى مواصلاته ابطل القتال الذى كان حادثا فى
جومبينين وافضى بحقيقة الحالة الى المعسكر العام معلنا انه لا يستطيع
الاحتفاظ مدة طويلة بالبقعة الكائنة شرق الفيستول .

ولم تكن من رأي اللواء مولتك هذه الخطة بل كان من رأيه وجوب
الاستمرار على المكافحة لتحطيم جيش النار يف قبل التفكير فى التخلى عن
مركز الجيش الالمانى فى بروسيا الشرقيه ذات الاهمية العظيمة من
الوجهات العسكرية والاقتصادية والسياسية . فأدى اختلاف الآراء
ما بين المعسكر العام وقيادة الجيش الثامن الى حدوث تغيير فى الاشخاص
فى القيادة العليا للجيش الثامن .

ويظهر ان مركز هذا الجيش كان فى هذه الآونة كما يلى : استطاع ان
يفلت من قبضة العدو . فكان الفيلق الأول من الجيش العامل والفرقة
الثالثة من الاحتياط فى طريق الانتقال إلى الغرب . بينما الفيلق الأول
الاحتياطى والفيلق السابع عشر من الجيش العامل يقاتلان مرحلة اثر
الاخرى فى تراجعها الى الفيستول . وكان الفيلق العشرون لا يزال موجوداً
فى الاماكن المخيم بها فى الحدود .

وفى مدة وجيزة صرت على تمام الاتفاق مع رئيس اركان حربي على
الطريقة التى سنتبعها لتلافى الحالة فى الميدان الشرقى . وقد تمكن القائد

لودندورف وهو فى كوبلينس من اصدار الأوامر الابتدائية التى لا تستدعى اختلافاً فى الرأي والتى انما يراد بها ضمانة استمرار الحركات الحربية فى شرق الفستول . فكان اول ما يجب عمله عـدم التمادى فى نقل الفيلق الأول الي جهة متنائية نحو الغرب بل تحويل وجهته نحو داوتش ايلاوواي فى اتجاه العدو خلف الجناح الايمن من الفيلق العشرين .

وأما سائر القرارات الاخرى فلم يك من المستطاع ولا من الواجب اصدارها الا عقب وصولنا الى المعسكر العام للجيش الثامن فى ماريانبورج .

ولم تستغرق محادثتنا اكثر من نصف ساعه . ثم عمدنا بعـد ذلك الى تلمس الراحة . على انني لم أعرف هذا الوقت الا فيما هو نافع .

فنحن الاثنـين القائد لودندورف وانا اذن ذاهبان الى الأمام لملاقاة مستقبل مشترك ونحن على تمام الاقتناع بخطورة الحالة ولكننا أيضاً على ثقـة عظمى بالله مولانا وبجنودنا الابطال وبصـدق عزيمة كل منا . فمن الآن والى عدة أعوام ستتجمع بيننا وحدة التفكير والعمل .

وأريد أن أذكر هنا رأيي فى العلائق التى كانت تصل بيني وبين القائد لودندورف رئيس أركان حربي فى ذلك العهد والرئيس الاول لمعسكرى العام فيما بعد . لقد ظن الناس أنهم يستطيعون أن يقارنوا هذه العلائق بما كان يوجد من مثلها بين بلوخر وجنا يسيناو . ولست فى حاجة الى ايضاح وجه البعد عن حقيقة المبادئ التاريخية باتخاذ هذه المقارنة . لقد باشرت بنفسي مدة أعوام طوال كما أسلفت القول وظائف رئاسة أركان الحرب . فمهمته ازاء الرئيس المسؤول ليست معينـة فى الجيش الألمانى كما تحققت هـذا الامر باختبارى الشخصي وبقواعـد نظرية . فطبيعة تساندهما فى العمل والطريقة التى يتميان بها مهام شؤونهما المشتركة بينهما هما أمران

متعلقان بشخصيتها. فحدود مناطق أعمالها المشاعة بينهما لم توضح بتفاصيل دقيقة . فاذا كانت علائق الرئيس الاعلى مع رئيس أركان حربه كائنة كما ينبغي أن تكون فان هذه الحدود تختط بسهولة بواسطة الشعور العسكرى والذوق الشخصي وكذلك بواسطة مزايا الاخلاق الحاصل عليها كل واحد منهما .

ولطالما وصفت أنا نفسي العلائق التي كانت تربطني بالقائد لودندورف بتشبيهها بقران سعيد . فكيف يريد أو يستطيع مشاهد هذا القران ان يعين بالتدقيق كفاءة كلا القرينين ؟ فكلاهما يلتقي بالآخر في حلبة الافكار كما يلتقيان في مجال تنفيذ الاعمال . وغالباً ما تكون ألفاظ احدهما معبرة عن أراء الآخر وعواطفه .

وعند ما تحققت من عظم جدارة القائد لودندورف وهذا الامر تم بسرعة شديدة رأيت من أهم واجباتي ان أفسح له مجال العمل واذا كان من الضروري أن أفتح الطريق لآرائه الجليلة ولقوة العمل التي تكاد تتخطى المقدرة البشرية والرغبة في الاشتغال التي لا يكاد يطرأ على رئيس أركان حربي فيها أقل فتور . نعم أردت أن أترك له حرية العمل حسب المعنى الذي تتجه اليه ميولنا المشتركة ومقاصدنا المتحدة وهي : انتصار أعلامنا ، وسعادة وطننا ، والتوصل الى صلح جدير بالضحايا التي قدمها شعبنا .

يجب علي أن أحفظ للقائد لودندورف ولاء رفقة الحرب كما تلقيناه على عهد طفولتنا في تاريخ الشعب الالماني ، ذلك الولاء الحربي المتشبعة به فكرتنا الادبية. وحقيقة أن عمله وارادته وكذلك بقية ميزاته الشخصية لاهل لهذا الولاء . ليصدر من يشاء حكمه في هذا الصدد كما ينبغي . انه

الوقت الذى يعرف فيه قدر هذا القائد كما تعرف فيه أقدار كثيرين من عظماء رجالنا بل اقدار أعاظم أبطالنا لا يحين الا فيما بعد واذ ذاك ينظر الشعب باسره اليه نظرات الاعجاب والاكبار ! وكل ما أعناه الآن هو ان يستطيع أن يجدوطننا في مثل الساعات العصيبة التي يجتازها الآن مثل هذا الرجل الكامل الممتنع بقوة فى نفسه والذى مع الاعتراف بجفوته وتجهم وجهه صليب العود كاحسن ما ذكر التاريخ من أشداء الرجال للاضطلاع بعمل هائل عظيم .

وفى الحقيقة ان خصومه قد مقتوه وهم عالمون بقدره حق العلم !

ان اتحاد أفكارنا فى الوسائل التى تستخدم فى القتال ارتكزت على التوائم فى معتقداتنا الحربية والسياسية . وكل ما كان يعترضنا احيا من خلاف فى وجهة النظر كان يجد له حكما طبيعياً يفصل فيه بدون أن يشعر أحدنا باحتياجه الى التنازل للاخر عن حق خاص . ان قدرة رئيس أركان حربي على العمل أدخلت تغييراً فى آرائنا من جهة وظيفة أركان حرب جيشنا ثم من جهة مهمة أركان الحرب العام الاكبر عندما ألقيت الينا مقاليده . ان نفوذه أنعش الناس جميعاً ولم يستطع أحد أن يتخلص منه الا اذا تعرض للخروج عن المنهاج العام الذى يجب أن ينتهجه الجميع . وباية طريقة أخرى كان من الممكن القيام باعباء مهمتنا التى لم يسمع بمثلها من قبل ؟ بل باية وسيلة أخرى كانت تستطيع القوة الدافعة الى الامام أن تستمر على تأدية عملها ؟

لقد التف حولنا نحن الاثنين مساعدونا متمسكين باقوى رابطة ومؤدين واجبهم ببساطة كما يجب على الجنود تأديته . وهم متمتعون بتمام الارادة وبحرية التفكير . وساحفظ لهم ذكرى الاخلاص فى أعماق قلبي المعترف بجميل صنعهم .

تاننبرج

في الساعات الاولى من بعد ظهر اليوم الثالث والعشرين من أغسطس بلغنا معسكرنا العام فى مارينبورج وهكذا دخلنا البلاد الواقعة شرق الفستول وهى ميدان عملنا فى المستقبل . وكانت الحالة فى الجبهة كما يلى :

غادر الفيلق العشرون مواقعه على الحدود فى جهة نايد نبورج مرتداً الى جهة ايلجنبورج والمنطقة الشرقية . والحاميات الخرجة من موقعى تورن وجراودنز الـتى كانت مرتبطة بذلك الفيلق من جهة الغرب استقرت على طول التخم الى شواطىء الفستول . والفرقة الثالثة الاحتياطية المخصصة لانجاد الفيلق العشرين وصلت الى اللينستاين . ونقل الفيلق الأول الى داوتش ايلاو بدىء به ولكن مع تلكؤ والفيلق السابع عشر والفيلق الأول الاحتياطى وصلا بواسطة السير على مراحل الى منطقة جيرداوين والفرقة الأولى من الفرسان كانت موجودة في جنوب انستربورج قبالة جيش رنينكامبف . وحامية كوينجسبورج المرتدة نحو الغرب اجتازت انستربورج .

ومن المستغرب ان جيش النيمن الذى يقوده نينكامبف لم يرسل الى الامام فيما وراء انجيراب عناصر مهمة من المشاة . واحد فيلقى الروس الخيالة ظهر ازاء انجيربورج والآخر فى غرب داركهمان . وجيش الناريف الذى يقوده سامسونوف بلغ على ما يظهر بفرقة منه جهة اورتلسبورج ووجب عليه احتلال جوها نسبورج بالمثل . ومن جهة اخرى فان الكتلة الكبرى من هذا الجيش كانت لا تزال على ما يظهر تحتشد فى التخم مكونة الجناح الايسر فى مالوا .

وقد وجد مستند فى محفظة ضابط روسى قتيل تستخلص منه مقاصد القيادة المعادية . وهذه الرقعة تفيد استدارة جيش رنينكامبف من شمال بحيرات ما زوريك زاحفة على جبهة انستربورج – أنجيربورج . ويجب عليه أن يهاجم القوى الالمانية المفروض وجودها وراء الأنجيراب بينما يخترق جيش النار يف خط اورتلسبورج لوتزن ويباغت الالمانيين من الجانب

فكان مقصد الروسيين اذن تطويق الجيش الثامن ، ولكن جيش سامسونوف كان قد تطوح الى مدى شاسع يحول دون القيام بهذا الالتفاف وفق المرام

فما الذى كان يجب علينا بل ما الذى كنا نستطيع فعله ضد خطة العدو الخطرة جد الخطر علينا ؟ وهى خطة أقل خطراً فى جرأة التدبير من القوة التى ستباشر تنفيذها والتى انما ميزتها على ما يظهر فيما بعد بكثرة العدد لدى العدو لا بتفوق الارادة القوية . اذ قد أفلح الروسيون فى سوق ٨٠٠٠٠٠ جندى و ١٧٠٠ مدفع الى بروسيا الشرقية أثناء شهرى أغسطس وسبتمبر فى حين اننا لم نستطع أن نحشد فى هذه الاثناء أكثر من ٢١٠٠٠٠ جندى المانى و ٦٠٠ مدفع للذود عن هذه الولاية .

ان خطتنا ضد الهجوم بسيطة . وأريد أن أبذل جهدى لجعلها فى مجاريها العظيمة واضحة للقارىء حتى ولو لم يكن اختصاصيا .

لقد وضعنا قبالة الكتلة الضخمة من جيش سامسونوف قلباً دقيقاً من جيشنا ، وأقول دقيقا ولا أقول ضعيفاً . لان هذا القلب مؤلف من رجال قلوبهم قدت من الصلب وارادتهم أرهفت من الفولاذ ! وخلف ظهورهم مساكن اسراتهم تضم بين جوانبها نساء وأطفالا ما بين أباء وأمهات وأخوة واخوات وكل ما يملكون ! وهؤلاء هم رجال الفيلق العشرين

أبطال روسيا الغربية والشرقية ! ومن الممكن أن يلتوى هذا القلب الدقيق تحت الجموع الروسية ولكنه لا يسمح باختراقه . وبينما كان هذا القلب مشتغلا بالقتال كانت مجموعتان قويتان تحتشدان على جناحيه للهجوم الحاسم

وكذلك جنود الفيلق الأول الذين هم بالمثل من أبناء هذه الولاية المهددة يعززهم جنود من اللاندوهر استدعوا الى الميمنة أى الى الشمال الغربى لساحة القتال وجنود الفيلق السابع عشر وجنود الفيلق الأول الاحتياطى مع لواء من اللاندوهر استدعوا الى الميسرة أى الى اتجاه الشمال والشمال الشرقى . وعساكر الفيلق السابع عشر العامل والفيلق الأول الاحتياطى كلهم كرجال اللاندوهر واللاندستورم هم أيضا قد تركوا خلفهم كل ما هو عزيز عليهم .

فلم يكن الواجب علينا احراز نصر بسيط على سامسونوف . بل الواجب علينا محق جيشه . لاننا لم تكن لنا سوى هذه الوسيلة لنصبح أحراراً فى أعمالنا ونتمكن من مواجهة عدونا الثانى وهو جيش رانينكامبف الذى كان مقدما على نهب روسيا الشرقية واحراقها . بل لم تكن لدينا طريقة أخرى نستطيع أن ننقذ بها روسيا القديمة انقاذا حقيقياً تاما ، ونستطيع أن نتحصل بها على حرية العمل اللازمة لنا للاضطلاع بالمهمة التالية المنتظر منا القيام بها بنوع خاص وهى التداخل فى المعركة الشديدة الحاسمة المحتدمة فى غاليسيا وبولونيا ما بين الروسيا وحليفتنا دولة النمسا والمجر

فاذا لم تصر ضربتنا الأولى حاسمة فان الخطر يظل مهدداً وطننا كمرض خفى مستعص على الدواء ، وتلبث حوادث الاحراق والتقتيل بغير قصاص فى روسيا الغربية و وتبقى حليفتنا فى الجنوب منتظرة معونتنا على أحر من الجمر !

فهذا هو العمل المنتظر قيامنا به وهذه هي تفاصيل ما يترتب على انجازه فلنتقدم اليه جميعا ! ولاجل هذا وجب استخدام كل من يمكن استخدامه كيفما كان قليلا عدده فى الحرب المتحركة حيثما وجد يسرة او يمنة . فكل من كان لايزال فيه بقية للحرب من انفار اللاندوهر من المخلفين وراء جدر جراودنز وتورن سيق الى ميدان الكفاح . وتخلى اللاندوهر بون الذين كانوا يغطون حركتنا ما بين البحيرات المازوريه عن مراكز الدفاع فى هذه المنطقة الى عدد ضئيل من جنود اللاندستورم الشجعان وخرجوا من استحكاماتهم التى كانت مستقبلة الشرق وتقدموا الى الامام . فاذا فزنا فى هذه المعركة فلا تبقى لنا البتة حاجة الى حصون تورن و پوزن ونتخلص من اعباء المحافظة على معابر البحيرات .

ولم نبق لصدر نينكامبف الذى يستطيع ان ينحدر علينا من الشمال الشرقي كالسيل الجارف الافرقة فرساننا واحتياطى كونيجسبيرج العام ولواءين من اللاندوهر . ولكننا لانستطيع ان نعلم الآن اذا كانت هذه القوى كافية للوقوف فى وجه ذلك القائد لانها لاتمثل الا ستارا رقيقاً يستطيع بسهولة ان يمزقه رنينكامبف اذا تحركت جموعه كلها فى آن واحد ، واذا زحفت تلك الفيالق الخيالة كما نتوقع ذلك ونخشاه . ولكنها ربما لاتتحرك ; فحينئذ يظل الستار كافياً لحجب ضعفنا . فاذا شئنا الفصل فى هذا الموقف وجب علينا ان نتذرع بالاقدام فى جناحينا ومؤخرتنا لتتهيأ القوة لجبهتنا . ربما ننجح ، ولنجعل هذا رجاءنا ، فى خدع رنينكامبف ، بل ربما ينخدع هو من تلقاء نفسه . فموقع كونيجسبيرج المسلح القوي وحاميته وفرقة فرساننا ، هذه العناصر الثلاثه ربما كان لها فى مخيلة عدونا اهمية اعظم بكثير من قيمتها الحقيقيه .

ولكن اذا استسلم رينينكامبف لفائدتنا الى الاوهام الا تدفعه القيادة الروسية العليا الي زحف قوي يتجه به نحو الجنوب الغربي ليضربنا من الخلف ؟ والا تستجره الى مضمار الصدام صيحة استنجاد من سامسونوف ؟ بل لنفرض ان هذا الاستصراخ لم تتلقفه المسامع أفلا ينتشر هدير رعد المعركة مخترقاً الآذان الى خطوط الروس الكائنة فى شمال البحيرات بل الا يمتد تماوجه الى ان يبلغ آذان معسكو العدو العام ؟

اذن فمن الحزم الحذر من جانب راينينكامبف ، ولكننا لا نستطيع ان نتحمل الخسائر فى سبيل هـذا الحذر بترك مقدار عظيم من الجنود ازاءه لاننا بهذه الطريقة نصبح فى ميدان الكفاح اضعف مما كنا عليه حتى الآن .

ولنقدر القوى المحتشدة فى الميدان حاسبين بين جنودنا لواءي اللاندوهر القادمين من حرس شواطىء شلسويج — هولستاين واللذين لا يزالان يقطعان الطريق لانهما سيصلان في الوقت الذى يسمح لهما بالدخول فى حومة الوغي ، ولنقارن بعد التقدير ما بين قوانا والقوى الروسية المحتمل وجودها فى هذه الساحة : ان هذه المقارنة تدل على وجود فروق عظيمة ضد مصلحتنا حتى لو فرضنا ان رينينكامبف لا يريد التحرك ولا يتطلب النزال . وفضلا عما تقدم فان عناصر عديدة من اللاندويهر ومن اللاند شتورم يجب أن تقاتل فى وسط وحداتنا الكائنة فى الخط الأول : فطبقات عتيقة تصادم النضر الشبيبة الروسية ! وأخيراً لا يزال لدينا سبباً من أسباب انحطاطنا فى مصاف الموازنة وهو : أن أغلب جنودنا — والموقف يحتم أن يكون هؤلاء الجنود هم القائمون بالهجوم الحاسم — قد اجتذبوا حديثا من معارك دموية قاسية ! وبما أنهم اضطروا

الى التخلى عن ساحة معركة جومبينين للروسيين فلم يكونوا منتعشين بابهة الحماسة التي يعتز بها الجنود الظافرون ! ومع ذلك فقد تقدموا الى القتال بقلوب مبتهجة وعزم وطيد ! « أن الحالة الأدبية جيدة » هـذا ما تقوله لنا التقارير، فهذه الحالة تؤذن اذن بوجود ارادات جريئة ، وسيئما وجد شيء من الضعف كانت هذة الارادات الجريئة تتغلب عليه . لقد استمر الأمر على هذه الوتيرة طول الزمن فلماذا يتحول الى النقيض فى هذه الايام ؟ ان انحطاطنا فى النسبة الرقمية لم يكن له أقل تأثير في .

أن الذى لا تهمه من شؤون الحرب الا المقادير الواضحة للعيان يركب متن الشطط. ان قيمة الجندى الادبية هى التى تؤدى الى النجاح . وعليها اقمت دعائم ثقتى ، وناجيت نفسى بما يلي :

« قد يستطيع الروسى ان يكتسح أرضنا ، وعنـد ما يلمس الارض الالمانية يستطيع قلبه ان يخفق بشدة ولـكن هذه الارض لا تحوله الى جندي ألماني وأولئك الذين يقودونه ليسوا ضباطاً ألمانيين . ففي معتركات منشوريا قاتل الجندى الروسى وهو متجمل بأحسن طاعة ولو أنه كان جاهلا بالمقاصد السياسية التى تتوخاها حكومته على شواطىء الباسفيك (المحيط الهادى) . أما في حرب مشهورة على الدول الوسطى فان حماسة الجيش الروسى كانت اعظم لاجل الاغراض الحربيـة القيصرية فهذا شي. ليس مستحيلا حسب الظاهر . الا أننى ارى ان الجندى والضابط الروسيين لم يظهرا فى ميـدان الحرب الاوربية كفاءة حربية أعظم مما أظهراه فى الجبهة الاسيوية ، واعتقدت على أثر ذلك اننى استطيع الاقتناع بان كفتنا فى الموازنة بين القوى المتواجهة فى الميدان يجب ان ترجح على سواها لا خطأ فى الحساب الذى يقرر انحطاط نسبتنا العددية بل بالزيادة

التي تكسبنا اياها قيمتنا الادبية .

هذه هي خطتنا وهذه هي الافكار التي كانت تخامرنا قبل نشوب المعركة وفيما نتوقعه لها . ولقد لخصنا هذه الآراء وهـذه الارادة في تقرير موجز ارسلناه في ٢٣ اغسطس من مارينبورج الى المعسكر الاكبر العام ، وهو :

« احتشـاد الجيش مقرر يوم ٢٦ اغسطس على مقربة من الفيلق العشرين لاجل القيام بهجوم التفافي . »

وفي مساء ٢٣ اغسطس قادتني جولة صغـيرة قمت بها الى الشاطىء الغربي من مجرى النوجات . فتراءت لي من هنالك الجدر الحمر من قصر الفرسان الفخم وهو اجل اثر مشيد من القرميد على النسق القوطي الباقي وهي تهدى الى البصر أبدع منظر تحت أشعة الشمس المؤذنة بالغروب . فامتزجت في ذاكرتي افكار مترامية الى عهد الفرسان المجيد بمسائل مختصة بالمسـتقبل المجهول . لقد زاد في خطورة تأثراتي مرأى أولئك اللائذين باذيال الفرار من ولاية أسرتي عند مرورهم من أمامي . أنه لمنظر محزن ينذرنا بان الحرب لا تصيب الرجل القادر على الذود عن نفسه فقط بل انها مع استئصالها موارد الحياة التي يعتمد عليها الاناس المجردون من وسائل الدفاع تصير الداهية الدهماء التي تتوالى مصائبها على الانسانية .

وفي ٢٤ اغسطس تبوأت اتوموبيلا مع ضابط من أركان الحرب يشتغل بجانب قائد الفيلق العشرين وانطلقت الى المكان الذي ستكتسب اسمه المعركة التي سينبعث لهيبها قريبا .

تانينبيرج ! انه لاسم يحرك ذكريات مؤلمة بالنظر لقوة الفرسان الالمانيين ، ويبعث هتاف الابتهاج للظفر السلافي ، وقد بقي منقوشاً في حوافظنا على الرغم من انقضاء اكثر من خمسمائة عام على ذلك العهد ! ولم

نطأ قدماي قبل هذه الآونة المكان الذى بدأت منه المجهودات الفكرية الالمانية فتوحاتها الشرقية . وقد اقيم فى هذا المكان اثراً وديعاً يدل على مكافحة ابطالنا وصولتهم ! وقد توطن مركز قيادتنا على مقربة من هذا الأثر اثناء بعض الأيام التى توالت فيما بعد والتى فى خلالها استاقت الاقدار جيش سامسونوف الى هزيمة تامة .

ولقد تراكمت ازاء أبصارنا على طول الخط الممتد من ماريتبورج الى تانينبرج مناظر الشقاء الذى حل من جراء الحرب بسكان بروسيا الشرقية العديدين . فان جموعا من الهاربين المحرومين من كل معونة اخذت تتزاحم وهى مسرعة بامتعتها وحيواناتها فى الطرق وتمنع من آونة الى أخرى حركات جنودنا الزاحفين على العدو .

ووجدت فى هيأة أركان حرب الفيلق العشرين الثقة والارادة القوية اللتين هما الشرطان الجوهريان لنجاح خطتنا . وكذلك كانت حالة جنودنا فى هذه النقطة من الجبهة التى تهمنا فى هذه الآونة أكثر من سواها ذات تأثير حسن داع الى الطمانينة

ولم نستفد فى هذا اليوم أقل ايضاح نهائى لاعن أعمال رينينكامبف ولا عن حركات سامسونوف . وانما شيء واحد على ما يظهر هو الذى تأكد وذلك ان سرعة زحف رينينكامبف قد خفت بالتأكيد . ولكننا لم نستطع الوقوف على سبب هذا الطارىء . واما جيش الناريف فقد علمنا عنه انه يزحف بمعظم قواه على الفيلق العشرين الذى ارتد بجناحه الايسر تحت ضغط تلك القوى الهائلة . وهذا الارتداد الضرورى لم يكن فيه ما يستوجب الانزعاج . بل بالعكس . فان العدو فى مطاردة الجناح الأيسر أظهر بطريقة أخذت تزداد وضوحا جناحه الايمن لقوانا المتجمعة

على جناحنا الايسر للهجوم التي أصدرنا لها الامر فى هذا اليوم بالزحف الى بيشوفسبورج . واما حركات الاعداء التى ظهر انها موجهة ضد جناحنا الغربي وضد لاوتنبورج فانها لم ترم الى ضربنا ولا الى اقلاقنا . فدار فى خلدنا أن الروسيين يريدون الالتفاف حولنا ليحصروا قواتنا المهاجمه بحركات الالتفاف التى قررناها لاحتشادنا فى الجناح الأيمن .

وقد ازدادت معلوماتنا فى يوم ٢٥ أغسطس عن حركات رينينكاميف الذى أخذت صفوفه تتقدم الى انجيراب جهة الغرب . انه يقصد كوينجسبيرج فهل صار العدول عن الخطة الروسية الاساسية ؟ وان القيادة الروسية خدعت بحركاتنا واعتقدت ان المجموع الاكبر من قواتنا فى الموقع المحصن وما جاوره ؟ وعلى كل حال فاننا لم نزد على أن تركنا ستاراً امام جموع رينينكاميف العظيمة . وكذلك سامسونوف الذى اتضح تمام الوضوح ان حركاته مضطربة استمر فى هذا اليوم على الاتجاه بمعظم قواه نحو الفيلق العشرين . وجناحه الايمن زحف بدون ارتياب فى اتجاهه نحو بيشوفسبورج أي الى مواجهة فيلقينا السابع عشر العامل والفيلق الأول من الاحتياط اللذين وصلا فى هذا اليوم الى الجهة الشمالية من هذه القرية الصغيرة . وأخذت تتجمع حول ملافا قوى روسية أخرى على مايظهر

وكان يوم ٢٥ هذا هو آخر ايام انتظارنا واستعدادنا . فدفعنا الفيلق الأول الى الجناح الايسر للفيلق العشرين . وعلى هذا فالهجوم العام يمكن ابتداؤه من الغد .

وكان يوم ٢٦ اغسطس هو اول ايام الصراع الدموي المحتدم من لاوتنبورج الى الجهة الشمالية من قرية بيشوفسبورج . فابتدأ وقوع الفاجعة التى ينبسط منظرها على امتداد مائة كيلو متر لا فى جبهة معركة مجردة من الاماكن الخالية بل على شكل وقائع بين جموع لايجمعها عمل

واحد بل تقتتل في سلسلة ملاحم متناثره .

ففي الجناح الايمن يقود القائد الفون فرانسوا ابطاله جنود بروسيا الشرقيه . فاقترب هؤلاء الشجعان من اوسداو ليستولوا عليها في الغداة فيملكوا بواسطتها مفتاح القسم الجنوبي من ميدان القتال . وكذلك فيلق القائد الفون شولتز المدهش تخلص بالتدرج من قيود الموقف الدفاعي واتخذ خطة الهجوم . ومن ابتداء هذا اليوم اشتدت وطأة الكفاح حول بيشو فسبورج . فقد قمنا في هذه الجهة الى أن خيم الظلام بعمل مستحسن . فبضربات قوية تمكن جنود ماكنزن و بيلوف وهي المكونة (الفيلق السابع عشر العامل والفيلق الاول الاحتياطي ومعهما وحدات من اللاندوير) من سحق جناح سامسونوف الايمن واجباره على الارتداد الى أورتلسبورج . ولكن لم يكن من المستطاع تصور عظم نجاحنا . وكان قواد الفيالق يتوقعون دفاعاً عنيفاً في الغد في جنوب الميدان الذي حدثت فيه وقعة اليوم . ومع ذلك فقد كانوا يرجون خيراً .

ولكن ظهر خطر من جهة رينينكامبف مهدد . فقد شوهد أحد فيالقه زاحفا الى انجيربورج . أفلا يجد له وسيلة توصله الى ساقة جموعنا المحتشدة في جناحنا الايسر للهجوم ؟ ووصلتنا فضلاً عن ذلك أنباء مقلقة من جهة جنب جناحنا الغربي ومؤخرته . ففي جنوب الجهة التي يحتلها تتحرك قوة كبيرة من الفرسان الروسيين . فهل تتبعها قوة من المشاة ؟ ليس من المستطاع الاهتداء الى حقيقة ذلك . لقد بلغت شدة المعركة الى النقطة النهائية . فتبادر الى ذهننا السؤال الآتي : ما الذي يؤول اليه أمرنا اذا اضطررنا الى الانتظار بضعة أيام أخرى في مثل هذا الميدان الواسع الهائل ونحن أمام عدو متفوق علينا بكثرة عدده لنصل الى النتيجة

الحاسمة ؟ وهل من المدهش أن تتغلب الافكار المزعجة على أكثر من عقل واحد ؟ وأن يخالج الريب النفوس التي لم تك تعرف الى هذه الساعة سوى أثبت العزائم ؟ وأن يندس التردد الى رؤس كانت الى اليوم على أتم اقتناع بصواب آرائها ؟ وهل يجب الاستمرار على ضرب سامسونوف ؟ والا ينبغي بالاحرى أن نعزز قواتنا الكائنة أمام رينينكاميف وأن نقوم ازاء سامسونوف بعمل بسيط ؟ أو ليس من الافضل أن لا نتفرغ لمحق جيش سامسونوف حتى ننقذ جيشنا نحن من المحق أو التلاشي ؟ لقد تغلبنا على هذه الازمة الداخلية وذهبنا مذهب الثبات في تنفيذ ما صممت عزيمتنا عليه من قبل ولبثنا نتطلب الفصل في هذا الموقف بموالاة الهجوم بجميع قوانا . وعلى أثر ذلك قررنا أن يستمر جناحنا الايمن زاحفا بشدة على نايدينبورج وأن جموعنا المحتشدة في الجناح الايسر « تكون على استعداد في الساعة الرابعة صباحا لاتخاذ خطة الهجوم بمنتهى الاقدام » وهذا هو نص الامر الصادر منا تقريبا .

وقد علمنا في ٢٧ اغسطس ان الفوز الذي أحرزه الفيلق الاول الاحتياطي والفيلق السابع عشر العامل بالامس في بيشو فسبورج صار فوزاً حاسما . ولم يقتصر العدو على الارتداد الى الخلف بل ولى الادبار من ساحة الصدام . ولوحظ من جهة أخرى ان رينينكامبف لم يزحف على ساقتنا الا في مخيلة أحد الطيارين . وفي الواقع انه استمر في الزحف على كونيجسبيرج بتؤدة . فهل لم يرد ولم يرد ان يرى ان الخطر كائن في توجيه زحفنا كله على جناح سامسون الايمن وانه لا يزال يزداد أيضاً ضد جناحه هو الايسر ؟ لان القائدين فرنسوا وشولتز استولوا بالهجوم على مراكز الاعداء الكائنة في اوسداو وفي الشمال وضربوا خصمهم في

الجنوب . فليتقدم قلب العدو زاحفاً على الينستاين — هو بيفستاين فما هو بمحرز ظفراً في هذا الزحف بل سيكون نصيبه منه الخسار ! ان الموقف واضح لنا ، ولهذا أصدرنا أمرنا في المساء بتطويق قلب العدو وعلى الاخص فيلقيه الثالث عشر والخامس عشر

واستمر الكفاح دامياً يوم ٢٨ بأجمعه

وفي يوم ٢٩ تلاشى قسم كبير من القوى الروسية الاساسية تلاشياً تاماً . وبلغت جنودنا القادمة من الشمال اورتيلسبورج ووصلت جنودنا القادمة من الغرب الى ويللينبيرج . وابتدأت الدائرة تقفل حول الوف والالوف من الروسيين . وحقيقة ان العديدين من الابطال الروسيين صمموا على موالاة القتال في هذا الموقف الميؤوس منه في سبيل القيصر : ولقد أعلوا شأن الحسام ولكنهم لم يكسبوا المعركة .

واستمر رينينكامبف زاحفاً باطمئنان على كونيجسبيرج . أما سامسونوف فقد انتهى أمره فلم يعد يجديه عضد حتى لو علم زميله بحقيقة حالته . لاننا صرنا قادرين من سحب جنود من جبهة القتال لتغطية اعمال المحق التي نجريها في جميع ارجاء ساحة تاينبورج — فيللينبيرج — باسينهايم الواسعة التي بحث فيها سامسونوف عن حتفه حينما شمله اليأس ومن هذه الساحة خرجت صفوف الاسرى الروسيين طويلة في منتهى الطول . ودلتنا أمواجهم المتدفقة نحونا على عظم الظفر الذي احرزناه . وأرادت المصادفة العجيبة ان استقبل احد قائدي الفيلقين الروسيين اللذين سقطا في الاسر في اوستيرود أحد معسكراتنا في ميدان القتال بل في نفس النزل الذي أقمت به عام ١٨٨١ وانا ضابط شاب من اركان الحرب في خلال سياحة التمرينات. وأما القائد الثاني فمثل امامي في اليوم

التالي في مدرسة حولناها الى مكتب عمل .

وفي أثناء العراك استطعنا أن نختبر حالة الجندي الروسي الجثمانية فاذا بقسم منهم جيد وقد اختارهم القيصر لجيشه . والذي يدلني اليه شعوري انه يوجد بين هؤلاء الرجال عناصر قابلة للتعلم . وتحققت بهذه المناسبة كما تبين لي في عامى ١٨٦٦ و ١٨٧٠ ان الضابط الالماني والجندي الالماني سريعى النسيان في عواطفهما الخصوصية وفي حكمهما على الأشياء فلا يتذكران أن خصمهما الاسير بين أيديهما الآن هو عدوهما القديم. فغضب الصراع لا يلبث أن يتلطف لدى رجالنا في منتهى السرعة ويتحول الى رحمة وطيبة انسانية . فلم تبق في القلوب نزعة غضب الا على القوزاق الذين يعتبرون كمرتكبي كل الفظائع الوحشية التي رزح تحت كلاكلها الفادحة الشعب والوطن البروسيين الشرقيين . ويظهر ان القوزاق لم يكونوا مرتاحي الضمائر لانهم عند ما يشعرون بقرب سقوطهم في الاسار يعجلون بانتزاع شاراتهم التي تدل على انواع الاسلحة التي ينتسبون اليها

وفي ٣٠ أغسطس حاول العدو من جهتي الشرق والجنوب أن يقتحم دائرة جنودنا بمهاجمتها من الخارج بجنود بعضهم جدد والبعض الآخر من المعاد تنسيقهم . فوجه العدو قوى جديدة زاحفة من ميسزينيك أي من اتجاه ارسترولنكا على نايدينبورج واورتلسبورج ضد جنودنا التي تمت استدارتها حول قلب الجيش الروسي والتي تكون ظهورها متجهة الى الجيش المهاجم الحديث. فالخطر يهددنا بدرجة يمكن تقديرها بعد الوقوف على النبأ الذي افضى به أحد الطيارين معلناً قدوم صفوف من الاعداء من جهة ملاڤا يبلغ امتدادها خمسة وعشرين كيلومتراً أي ان القوة الزاحفة علينا هائلة . ومع ذلك فقد لبثنا مصممين على تنفيذ الخطة التي شرعنا فيها

وهي الخطة القاضية بحصر القوة الكبرى من جيش سامسونوف وافنائها . فألقى فرانسوا وما كنسين ما بقى بين ايديهما من القوى الاحتياطية الضئيلة فى وجه العدو الجديد . فانقلبت المحاولة التى أراد بها الروسيون ان يلطفوا من فداحة الكارثة التى حلت بسامسونوف ضد مصلحتهم . فبينما كان اليأس يتغلب على الزعيم المحصور كان فقد الشجاعة يعرقل مسعى القوة القادمة من الخارج لانقاذه . ان الحوادث التى تتابعت في ساحة قتال تانينبيرج تؤيد من هذه الوجهة النظرية ايضا التجارب العسكرية والبشرية القديمة .

واخذت دائرة نيراننا تزداد تمكناً والتفافاً حول الجموع الروسية المنكمش بعضها في بعض والتى تحاول أن تفتتح لها ممراً تارة من جهة وطوراً من جهة أخرى. ويظهر ان رينينكامبف أراد فى هذا اليوم خط الدايميل فى الجهة الشرقية من كونيجسبيرج ما بين لابياو وتابياو . فاقتربت جموع فرسانه القادمة من وجهة لاندسبيرج - بارتينيستاين من ميدان معركة تانينبيرج . ولكننا عجلنا بحشد قوى متينة فى الليبنستاين من الجنود المتحمسين بزهوة انتصارهم وان كانوا فى منتهى التعب لمواجهة كل هجوم يطرأ بغتة .

ان يوم ٣١ اغسطس كان لجنودنا الذين لا يزالون يقاتلون آخر ايام الحصاد ولقيادة الجيش الثامن يوم التفكير فى الاعمال الحربية التى يجب مواصلتها ولرينينكاميف يوم الارتداد الى خط دايميل - الليبورج - آنجيربورج .

منذ يوم ٢٩ اغسطس سمح مجرى الحوادث المتلاحقة بان انهى الى علم رئيسي الاعلى العظيم نبأ سحق جيش النارين الروسي سحقاً تاماً . فوصل

الي شكر جلالته فى نفس هذا اليوم وانا فى مضمار الوغى وهو الشكر الذي وجهه باسم وطننا . فنقلته وقلبي مفعم بالسرور الى رئيس اركان حربي والى جنودنا الابطال .

وفى يوم ٣١ أغسطس رفعت التقرير الآتى الى امبراطوري وملكي

« أتشرف بان أنهى الى علم جلالتكم بمنتهى الاجلال أن الدائرة قد أقفلت بالامس على الشطر الاعظم من الجيش الروسي . وقد تلاشت الفيالق الثالث عشر والخامس عشر والثامن عشر من جنود الاعداء . وقد أسرنا حتي الآن أكثر من ستين الف رجل بينهم قائدا الفيلقين الثالث عشر والخامس عشر . ولا تزال المدافع في الاجمات وستجمع . وأما الغنائم الحربية التي لا يمكن حتي الساعة تدوين احصاء عن مقاديرها بوجه التفصيل فنى منتهى ما يمكن تصوره من الجسامة . وكذلك الفيلقان الاول والسادس اللذان أفلتا من دائرة حصارنا أصيبا بخسائر جسيمة وانهزما بغير نظام فارين الي مالفاوميسزنييك . »

لقد قام الجنود ورؤساؤهم بعمل مجيد . والآن استقرت الفرق في معسكراتها حيث يتصاعد منها نشيد آيات الحمد على الفوز في ملحمة لاوثن

ودخلت ونحن في معسكرنا العام الجديد المقام في الليفستاين الكنيسة الكائنة بقرب قصر الفرسان التيتونيين أثناء الحفلة المقدسة ، فرأيت الجنود الشبان وكهول اللاندستورم وقد جثوا جميعا على ركبهم عند ما تلا المرتل الدعاء الاخير وهم في أشد تأثر من الحوادث التي مرت أزاء أبصارهم وهم على قيد الحياة . وان هذا لتتويج شريف لبطولتهم الباهرة !

معركة البحيرات الماذورية

لم تكد تتلاشى ضجة الملحمة من معترك تانينبيرج حتى شرعنا في التأهب لمهاجمة جيش رينينكاميف . وفي مساء ٣١ اغسطس استلمنا الرسالة التالية الآتية الينا من المعسكر العام الاكبر :

« الفيلق الحادي عشر وفيلق الحرس الاحتياطي والفرقة الثامنة من الخيالة موضوعة تحت تصرفكم . وقد بدىء بنقلها . واول مهمة للجيش العشرين اجلاؤه جيش رينينكاميف من بروسيا الشرقية

والمرغوب تتبع الخصم المقهور بالقوى الزائدة عن الحاجة الضرورية لمطاردته الى فارسوفيا بالنظر للحركات العسكرية المتجهة من فارسوفيا الى سيليزيا .

وفكروا في توجيه الفيلق العشرين اذا ماسمحت الحالة في بروسيا الشرقية الى اتجاه فرسوفيا »

وهذا الامر يتفق تماماً مع موقفنا . فهو يوضح لنا الغرض الذي نرمي اليه ويفوض الينا تمام الحرية في التفاصيل التنفيذية . ولقد حسبنا انه لا يوجد من جيش سامسونوف القديم الا بقاياه وهي اما ان تكون قد اجتازت الناريف واحتمت به واما انها لا تزال سائرة في الطريق الموصلة الى هذا النهير . ومن الواجب حسبان اعادة تنظيمه في المستقبل . ومع ذلك فقد كان من اللازم مرور وقت طويل قبل اتمام تنظيمه . وارتأينا الاكتفاء في مراقبة بقاياه في هذه الآونة بجنود قليلة العدد مأخوذة من تخمنا الجنوبي . وكل الجنود الأخر يجب حشدهم للمعترك الجديد . واعتقدنا أنه ليس من الميسور لنا الآن ارسال قوى الى ماوراء نهير

النارِيف زاحفة في اتجاه الجنوب ولو بعد وصول الامداد القادمة من الجبهة الغربية .

ان نقطة فارسوفيا الواردة فى الفقرة الاخيرة من الامر الصادر الينا كان لها مدلول فى منتهى الوضوح لدينا . فبمقتضى خطة الحرب المفهومة يكون الجيش النمسوى المجرى قد تحرك من غاليسيا واتخذ خطة الهجوم على القسم الشرقى من بولونيا الروسية موجها سواد جيشه فى اتجاه لوبلن بينما تكون قوى ألمانية قد تحركت من بروسيا الشرقية ومدت يمينها الى حلفائها فى جنوب الناريف . وانها لفكرة بديعة عظيمة الا أنها فى الحقيقة تنكشف عن أوجه ضعف خطيرة . فهى لم تلتفت الى أن دولة النمسا والمجر وجهت بجيش ضخم الى التخم السربى ، والى أن الجيوش الروسية الكائنة على قدم الاستعداد التام تستطيع الوصول الى الحدود فى بضعة أسابيع من بعد اشهار الحرب ، والى أن ثمانمائة ألف مسكوفى وضعوا فى خط القتال ضد بروسيا الشرقية ، بل لقد غاب عن هذه الفكرة أن هذه الخطة التى وضعت من مدة قبل نشوب الحرب وصلت بتفاصيلها فى زمن السلم الى أركان الحرب الروسي .

والآن بعد ان حاول الجيش النمسوى المجرى الهجوم بجرأة متناهية على الجيوس الروسية التى تفوقه عدداً اشتبك معها فى وقائع متناهية فى الشدة على التخم الفاصل بين البلادين بدون أن يتيسر لنا فى الوقت الحاضر تعضيده مباشرة باكثر من تجريدنا قوى هائلة من الاعداء من وسائل الاشتراك فى الكفاح . فالذي يجب على حليفتنا الآن هو الثبات على المناضلة ريثما نقضي بالمثل على رينينكاميف . وفى هذه الحالة فقط يسعنا أن نمدها بيد المساعدة ان لم يكن بمجموع قوانا فعلى الاقل بالجانب الأعظم منها .

لقد توطن رينينكاميف كما تقدم القول فى خط دايم — الفينبورج — جيرداون — انجيربورج — . على أننا نجهل كنه القوى المعادية الممكن اختباؤها فى المنطقة الجنوبية الشرقية من البحيرات المازورية . وعلى كل حال فان منطقة جراجيفو يخشى منها . اذ الحركات منتشرة فيها بدرجة عظيمة . والتى أشـد استدعاء للتخوف منها هي البقاع الكائنـة خلف جيش النيمن . فقد أعلن حدوث تنقلات جمة متواصلة ما بين الجنود والعربات و يظهر أن حركاتها متجهة نحو الجنوب الغربي أو نحو الغرب فرينينكاميف تصله امداد بالتأكيـد . وفرق الاحتياط الروسي القادمة من الداخل مستعدة الآن للارتماء فى حومة الوغى . وفضلا عن ذلك فان بعض الفيالق الموجودة فى بولونيا والتى ترى القيادة العامة أن لاحاجة لها بها فى منازلة النمسويين تصير أيضا على قدم الاستعداد من الآن . فهل هذه النجدات مرسلة الى رينينكاميف أو الى الجهة المجاورة له لتعضيده مباشرة أو هى ووجهة لمهاجمتنا مفاجأة فى جهة غير معروفة لنا ؟

والذى نستطيع ان نحكم به هو ان رينينكاميف يقود اكثر من عشرين فرقة من المشاة ، وهو مع ذلك ملتزم جانب السكون ، وسيلتزمه أيضاً ريثما تصل فيالقنا القادمة من الغرب بالسكة الحديدية وتحتشد امامه وتنازله لـماذا لا ينتهز الفرصة و يباغتنا فى الوقت الذى نحن فيه اضعف الطرفين وجنودنا متعبة ومكدسة فى ساحة تانينبيرج ؟ بل لماذا يدع لنا من الوقت ما يمكننا من اعادة تنظيم اجنادنا وتعديل احتشادهم ، وتزويدهم بالراحة واستقدام النجدات الكافية ؟ على ان هـذا القائد الروسى معدود من خيرة القواد والجنود. وحينما كانت الروسيا تحارب فى الشرق الاقصى كان اسم رينينكاميف يذكر بنوع خاص فى جملة القواد المترددة اسماؤهم على

الالسنة . فهل كانت السمعة التي احرزها حينئذ مقرونة بالإغراق أو ان هذا القائد فقد في المدة الكائنة بين الحربين كافة مزاياه الحربية ؟

كثيرا ما حدث ان المهنة العسكرية استأصلت بطريقة سريعة مدهشة مواهب فطرية سامية . فهناك حيث يوجد الذكاء الجرىء والارادة المجددة للنشاط في وقت ما لا يرى في العام التالي الا مخ مجدب وقلب خامد. وهذه هي النتيجة الفاجعة التي أصيب بها كثيرون من كبار العسكريين

لقد فتحنا كتاب الاغلاط التي ارتكبها رينينكاميف أثناء معترك تانينبرج فلنقفله ولننتقل الآن الى التفكير في معسكره العام الكائن في اينستيربورج لا لمؤاخذته ولكن لادراك حقيقته

ان هزيمة سامسونوف أظهرت للقائد رينينكاميف ان السواد الاعظم من الجيش الثامن غير موجود في كونيجسبيرج كما كان يفرض ذلك من قبل . ومع ذلك فقد ظل معتقداً بوجود قوى جسيمة في هذا الموقع الحصين القوى . فالاقدام على المرور من امام هذا الحصن والاسراع في جهة اللينستاين للانقضاض على الجيش الالماني يعتبر في نظره تهور بل منتهى التهور . أو يعتبر هذا العمل على الاقل مغامرة غير مضمونة العاقبة وتراءى له صواب بقائه في مراكزه الحصينة الدفاعية الكائنة ما بين كوريش ـ هاف والبحيرات المازورية.وفي هذه الحالة يعمد الالمانيون الى طرقهم القديمة وهي الالتفاف والتطويق ليتمكنوا من هذه المراكز ، فاذا جاءوا من الشمال فانهم يصطدمون بالاستحالة المؤكدة واذا أقبلوا من الجنوب لاقوا عراقيل هائلة ، واذا هجموا من الجبهة تيسر الانقضاض على جنودهم بالجنود الاحتياطية العظيمة التي لا تزال مستريحة في الخلف بينما يكون هؤلاء المتعرضون قد انهكتهم نيراننا المنصبة عليهم من قبل .

واذا اجترأوا وهذا غير محتمل على الاندفاع خلال مضائق البحيرات فان الانقضاض يكون من الشمال على جانب صفوفهم الايسر فى أثناء تدفقها بينما تكون مجموعة من المحتشدة حديثة قد انقضت من جهة جراجيقو على جانبهم الايمن وعلى مؤخرتهم . واذا لم ينجح شيء من كل هـذه الاعمال فما الذى يحدث الا شيء سوى الانثناء الى البقاع الروسية.والامبراطورية الروسية واسعة الارجاء . وخط النيمن المحصن قريب . ولا توجد أية ضرورة حربية تحتم على رينينكامبف البقاء فى بروسيا الشرقية.ان خطة الاشتراك فى الاعمال مع سامسونوف قد حبطت وبما ان جيش ذلك القائد أبيد فى خلال هجوم كان الرجاء فى نجاحه عظيما فالاوفق من الآن فصاعد هو ... الحزم والحذر.

ربما تكون هـذه هي الافكار التى خامرت رينينكاميف . بل بعض الناقدين يزعمون انه فكر فى هذه الأمور تماماً . وفى الحقيقة ان ليس بين هذه الآراء مايستدعي الاهتمام الـكبير . اذ هي كلها على شيء من التهور. ومع ذلك فان تنفيذها يمكن أن ينتج مضاراً لدينا فى الحال ويحدث اثراً فعالا فى الموقف العام على الجبهة الشرقيـة . ان هذا التنفيذ وحده يجعل التفوق العددى الهائل الذى يمتاز به جيش النيمن كافياً لمحو جيشنا الثامن على الرغم من الامداد الواصـلة اليه . واما اذا انثنى رينينكامبف فى غير الوقت المناسب من موقفه الحالي فان ثمرات عملنا الحربي الجديد يذهب بها هـذا التراجع لانه يمنعنا مدة غير محدودة عن الزحف على فارسوفيا وبهذه الوسيلة يحول دون تمكننا من مساعدة النمسا

فيجب علينا اذن أن نكون حازمين ومقدمين فى آن واحد . وهـذا الشرط المزدوج يتطلب صفة خاصة للمشروع الحديث الذى اقدمنا عليه

والذي بدأت حركاته في دور التنفيذ . لقد اتخذنا جبهة جديدة في البراح المتسع المترامي ما بين ويلينبيرج وكوينجسبيرج . وفي يوم ٥ سبتمبر نفذ هذا المشروع بتفاصيله الجسيمة فابتدأ زحفنا الى الامام بسير أربعة فيالق وهي (الفيلقان العشرون والحادي عشر العاملان وفيلق من احتياطي الحرس والفيلق الاول الاحتياطي)مصحوبة باحتياط كونيجسبيرج العام أي قوى مهمة نسبيا متقدمة الى خط انجيربورج - دايم اى نحو جبهة العدو .وتقدم فيلقان وهما (الأول والسابع عشر) لعبور مضائق البحيرات بينما تكون الفرقة الثالثة الاحتياطية وهي السند الأيمن لجناحنا المكتنف تسعى الى جنوب البحيرات المازورية ، والفرقتان الخيالتان وهما الاولى والثامنة الواقفتان خلف فيلقي الميمنة استعدتا لان تنفرجا عند ما تنفتح لها معابر البحيرات.هذه هي القوى المختصة بالعمل ضد جناح رينينكامبف فمواقفنا اذن مغايرة لتلك المواقف التي أعدت لنا انتصار تانينبيرج . وما ألجأنا الى هذا المشروع الا الحذر من قوى رينينكامبف الاحتياطية العظيمة فنتج عنه أن هجومنا بقوة تبلغ اربع عشرة فرقة من المشاة شمل جبهة تجاوزت مائة وخمسين كيلو متراً . فهل يشطرها الخصم ؟

واقتربنا في يومي ٦ و ٧ من خطوط الدفاع الروسية وابتدأنا نرى مجاري الامور بأتم وضوح . وأعان ظهور جموع جسيمة من الروسيين في جهتي اينستيربورج ووهلاو وربما ظهرت قوى أعظم منها أيضاً في شمال نوردينبورج . على انها لا تتحرك ولا تقلق حركات انتشارنا أمام جبهتها .

وابتدأ فيلقا ميمنتنا وهما الاول والسابع عشر يقتحمان خط البحيرات يوم ٧ سبتمبر ، والفرقة الثالثة الاحتياطية مزقت نصف الفيلق الروسي

الثاني والعشرين أرباً فى كفاح باهر نشب على مقربة من بياللا . ودخلنا فى دور الشدة من عملنا الجديد . والايام التالية ستعرفنا اذا كان رينينكامبف قد صمم على اتخاذ خطة الكر واذا كانت ارادته قوية على التعرض لهذه الحركة بقدر قوة الوسائل المتهيئة له . وقد حضرت الى المعترك ثلاث فرق احتياطية جديدة مدداً للقوة المتفوقة علينا الموجودة تحت امرة هذا القائد . وهل لا يزال الزعيم الروسى يترقب نجدات أخرى؟ لقد حشدت الروسيا اكثر من ثلاثة ملايين جندى فى جبهتها الغربية، وازاء هذه القوة الهائلة لا يوجد من قوى النمسويين والجريين ومن قواتنا الا ما يكاد يبلغ ثلث القوة الروسية عدداً .

وفى ٨ سبتمبر اشتد الالتحام على سائر الخط . ولم يطرأ ادنى تحسن فى هجوم جبهتنا أما فى ميمنتنا فالامور متحسنه . ففي هذه الجهة أفلح فيلقانا فى اقتحام السدود المنتشرة فى منطقة البحيرات وانطلقا فى سيرهما نحو الشمال والشمال الشرقي . ففرضنا من الآن الإستيلاء على مواصلات الأعداء ، ويظهر ان جموع فرساننا صارت مطلقة السراح فى هذه الجهة

وفى يوم ٩ دخلت المعركة فى دور الانسعار ، ولم تظهر نتيجة ذات شأن فى الجبهة الممتدة ما بين انجيربورج وكوريش-هاف ، وعلى نقيض ذلك فى شرق البحيرات فقد حدث ثمت تقدم جرىء من جانب جنودنا على الرغم من أن فرقتى فرساننا لم تستطيعا أن تسحقا بكل السرعة اللازمة المقاومة غير المنتظرة التى عرضت لها . وهزمت فرقتنا الثالثة الاحتياطية فى جهة ليك قوة أعظم منها مرات فى العدد واعتقنا نهائياً من التخوف من جهة الجنوب .

ولكن ما الذى حدث فى الشمال ؟ يظن طيارونا انهم يسقطيعون

أن يؤكدوا الآن وجود فيلقين من الأعداء فى اينستيربورج وفى غربى هذه المدينة وشوهد فيلق آخر قادماً عن طريق تيلسيت . ماذا سيكون من أمر فيالقنا هذه التى انتشرت انتشاراً واسعاً جداً فى قتالها من جهة الجبهة اذا ماباغتتها قوة مؤلفة من مائة طابور روسى تقودها ارادة مفردة صادقة العزم ؟ وعلى الرغم من هذا كله فسيعلم ما الذى كانت تتضمنه آمالنا فى عشية ٩ سبتمبر اذ كنا نفكر فيما يلي : « يا رينينكامبف لا تستجر جبهتك التى لم نتمكن من اقتحامها وتناول اكاليل الغار عند ما تهاجم بقلب جيشك ! » فكنا حينئذ على أتم ثقة بان ننتزع منه هذه الاكاليل الغارية بدفع ميمنتنا المهاجمة بشدة الى الأمام . ولكن من سوء الحظ ان الزعيم الروسى أدرك نيتنا فلم يعزم على معارضتنا بالقوة واعترف بالغلبة لنا عليه .

وفى الليلة الواقعة ما بين يومي ٩ و ١٠ دخلت طلائعنا فى جيرداوين وتخللت خنادق العدو فوجدتها خالية . « لقد ارتد العدو ! » ان هذا التقرير تراءى لنا غير قابل للتصديق . فاراد الفيلق الاول الاحتياطي أن يتقدم على الفور من جيرداوين الى اينستيربورج . فدعوناه الى التبصر . فما وسعنا أن نصدق نبأ هذا الارتداد الا قبيل الظهر من يوم ١٠ وما كنا لنتوقعه ولا كنا نريده . وفى الواقع ان العدو بدأ حركة تقهقره العام على الرغم من المقاومات التى يواجهنا بها هنا وهناك وان كانت قوية بل أحيانا كان يرسل علينا جموعاً قوية فى هجمات غير متواصلة . فوجب علينا الآن أن نوجه فيالق جناحنا الايمن وفرق فوارسنا مباشرة الى الشمال الشرقي نحو خطوط مواصلات الاعداء الممتدة من اينستيربورج الى كوفنو .

لقد اندفعنا الى الامام ! فاذا كانت العجلة قد حبذت فى يوم ما فانما يكون تحبيذها فى هـذا اليوم وفى هذا المقام ! اينثنى رينينكامبف بلا اعتراض ! وهل تملكه الضجر هو أيضاً ! على ان ملكنا كان يرمي الى ادراك الفوز اما تعجله فيسبب الفوضى والاختلال

ان فيالق جيش النيمن منثنية الى الروسيا وهى متوزعة على ثلاثة صفوف متلاصقة بعضها ببعض. وحركتها مستمرة على مهل وهى مستعدة لان تواجه جنودنا الذين يضغطون عليها. ولكي يبلغ العدو هذا الغرض عرض قوى كبيرة من جيشه للكفاح حتى ان يوم ١١ ستمبر انقلب الى يوم معارك دامية منتشرة على سائر الجبهة الممتدة من جولداب الى برجيل

وفى مساء هذا النهار صار من الواضح لنا انه لم يبق علينا الا أيام قلائل حتى ننفذ مشروع مطاردتنا للعدو . ان التغير الذى طرأ على الحالة العامة فى ميدان القتال الشرقى انتشرت انباؤه فى أعظم مظاهرها . وشعرنا بأننا بالاحرى لن نتخلص من الاعباء التى تثقل كواهلنا بواسطة الانباء المؤكدة المنبئة بأن اعمال حليفتنا فى بولونيا وغاليسيا أخفقت ! وعلى كل حال فلم نفكر فى الاندفاع الى ماوراء النيمن مقتفين أثر رينينكامبف . ولكن لكى لا تعتبر حركتنا الحربية فى اللحظة الاخيرة كأنها أصيبت بالاخفاق فى جدول الاعمال الحربية العام وجب علينا ان لا نمكن جيش العدو من عبور مجرى النيمن الا فى حالة ضعف واختلال نظام تجعل مجموع وحداتنا الاكبر يستطيع أن يكون متأهباً للاشتراك مع الجيش النمسوى المجرى كما تتطلب الحالة ذلك بشدة

ودخلت الفرقة الثالثة الاحتياطية سوفالكى يوم ١٢ سبتمبر أي وطأت الارض الروسية . ولم يكد يفلت الجناح الجنوبي لجيش

رينينكاميف الا بمشقة عظمى من التفاف فيلقنا الاول فى جنوبه ستالوبونين . ما كان أبدع ذلك التسابق الذي قام به بعض جنودنا فى هذا النهار وهم مندفعون وراء العدو ! فكانوا يسيرون ثم يقاتلون ثم يعاودون السير الى ان يسقط بعضهم من الاعياء على الارض. ومن جهة أخرى سحبنا فى هذا النهار نفسه فيلق الحرس الاحتياطي من الجبهة لنعده لاعمال جديدة

و وصل المعسكر العام لجيشنا فى هذا النهار أيضاً الى اينستير بورج التي عادت جنودنا الى احتلالها مذ يوم ١١ سبتمبر. و بعد السير فى الطريق الوطنية البروسية الشرقية الكبرى ، و بعد المرور من جانب جنودنا الظافرة الزاحفة نحو الشمال ، ومن جانب صفوف الاسرى الروسيين المنحدرة نحو الغرب ، وصلنا الى معسكر رينينكامبف العام القديم لا فى عالم الخيال بل فى عالم الحقيقة . وقد وجدنا آثاراً لحالتي الروسيين النفسية والعقلية غير الناضجتين فى الاماكن التي غادروها . فالاريج الفواح المنبعث من الارواح العطرة و روائح الجلد الروسي والسجائر لم تتمكن من التغلب على بعض الروائح الكريهة

وفيما أنا عائد فى يوم أحد من الارتياض فى بعض المصائد بعد مضي عام كامل اجتزت اينستير بورج مرة جديدة . فحملني الاهالى أوتوموبيلي على الانثناء الى ما وراء رحبة السوق لانهم كانوا يحتفلون بتذكار اليوم الذي تخلصت فيه المدينة من الارهاب الروسي. فاضطررت الى الالتفات باتوموبيلي حول هذه الرحبة . ولم يكونوا قد عرفوني وهكذا يدخل كل انسان فى حيز النسيان ! .

وفى ١٣ سبتمبر بلغت جنودنا ايدكوهنين وأمطرت وابلا من القذائف على الامواج الروسية المنحسرة الى الخلف . ولقد مزقت قذائف مدفعيتنا هذه الجموع المتضامة ولكن ادراك هذا التقطيع جعلهم يعودون الى الالتئام مرة أخرى . ومن الموجب للاسف أننا لم نتمكن من الوصول فى هذا النهار الى الطريق الكبرى المفضية من ويربالين الى ويلكويسزكى لان العدو أدرك أن استيلاءنا على هذه الطريق مؤد حتما الى محق الشطر الاكبر من صفوفه المختل نظامها . ولكى يتقي هذه الكارثة قذف الى جنوب الطريق أمام وحداتنا المنهوكة قواها كل ما تهيأ له حشده من الجنود التى قبلت أن تعود الى الكفاح . ولم يبق لنا سوى يوم واحد نقضيه فى المطاردة . وبعد هذا النهار يتهيأ لجنود رينينكامبف الاختفاء فى منطقة المستنقعات والاجمات الكائنة فى الجانب الغربى من مجرى النييمن حيث تنهض مدن أوليتا وكوفنو وفيلنى ولا نستطيع أن نقتفي أثره فى هذه الأرجاء

وانتهت المعارك فى يوم ١٥ سبتمبر . فكان هذا اليوم هو آخر ايام معترك البحيرات المازورية الذى كانت خاتمته فوق الأرض الروسية بعد مطاردة تجاوزت مائة كيلو متر قطعناها فى أربعة أيام ! ولقد كان مجموع وحداتنا فى نهاية هذه الوقائع لا يزال مستعداً للاضطلاع باية مهمة جديدة .

ولا يسعنى هنا ان اتعرض لتفصيل الاعمال الباهرة التى قامت بها فرقة اللاندوير التى يقودها الفون دير جولتز وبعض التشكيلات الاخرى من اللاندوير سواء أمن جهة مهاجمتها قوى معادية تبلغ عدة امثالها فى بقاع الحدود الجنوبية أو من جهة حماية جانبنا الايمن الممتد الى الفيستول تقريباً . وكانت المصادمات لا تزال ناشبة عندما غادرت قيادة الجيش

الثامن . وحينما انتهت تقدمت جنودنا الى سيبخونوفو ويراسزنيش واوجوستوفو .

حملة بولونيا

مغادرتي الجيش الثامن

في مستهل سبتمبر علمنا من المعسكر العام للجيش النمسوي المجري ان جيوشه تحت طائلة الخطر في منطقة لمبيرج ازاء قوى روسية متفوقة عليها في العدد تفوقاً عظيماً وان زحف الجيشين الامبراطوريين الملكيين الاول والرابع وقف .

ومن ذلك الوقت اخذنا نتتبع بقلق مجرى الحوادث المتعاقبة في غاليسيا واخذت تصل الينا انباء متزايدة في السوء . والاشارات البرقية الآتية توضح حقيقة الحوادث الجارية هنالك اتم ايضاح :

« الى المعسكر الاكبر العام من الجيش الثامن ، يوم ١٠ سبتمبر ١٩١٤

يلوح لي انه من المشكوك فيه التغلب بوجه قاطع على رينينكامبف لان الروسيين ابتدأوا اليوم حسبما نظن بالتقهقر . وفيما يختص بمواصلة الاجراءات الحربية قد تراءي حشد جيش في سيليزيا . فهل نستطيع ان نعتمد على وصول امداد جديدة قادمة من الجهة الغربية ؟ نحن نستطيع ان نقدم فيلقين » .

وقد ارسل هذا التلغراف يوم ١٠ سبتمبر اي في نفس اليوم الذي بدأ فيه رينينكامبف على غيرما كنا ننتظر يرتد نحو الشرق .

« من المعسكر الاكبر العام الى الجيش الثامن ، في ١٣ سبتمبر ١٩١٤

سيكون على قدم الاستعداد خالا فيلقان يصير نقلهما الى كراكوفيا ! ... »

كراكوفيا ! شيء مدهش جدا ! هذا ما جال في بالنا وما لفظته شفاهنا !
فارسلنا الاشارة البرقية الآتية ونحن تحت تأثير الذهول الى المعسكر الاكبر العام :

« المطاردة تنتهي غدا ! ويظهر ان الانتصار تام . والهجوم في اتجاه الناريف بطريقة حاسمة مستطاع في بحر عشرة ايام . غير ان النمسا تطلب المساعدة مباشرة بسبب موقف رومانيا بتحريك جيشنا الى كراكوفيا وسيليزيا العليا . والممكن توجيهه لهذه المهمة اربعة فيالق وفرقة من الفرسان . ان النقل بالسكك الحديدية يستغرق هو فقط عشرين يوما ويعقبه سير طويل للالحاق بالجناح النمسوي الايسر . وعلى ذلك يصل المدد متأخراً جدا . فالرجاء اصدار قرار حازم . وعلى كل حال فان الجيش يجب ان يحتفظ باستقلاله . »

وقد ارسل هذا التلغراف في نفس اليوم الذي ابتدأ رينينكامبف يختفي فيه بين برك التيبين من جراء خسارته جناحا باكمله لاعدة ريشات فقط واشتداد وطأة الضغط على بقية جيشه .

فرد علينا المعسكر الاكبر العام بتاريخ ٢٤ سبتمبر ١٩٤١ بما يلي :

« العمل فيما يلي الناريف مع حالة النمسويين الحاضرة معتبر كان ليس له نصيب من النجاح . وتعضيد النمسويين بطريقة مباشرة لازم سياسيا .

والاعمال اللازم القيام بها في سيليزيا منظور فيها . . .

وفي حالة العمل بالاشتراك مع النمسويين يظل الجيش مستقلا . »

فليكن ما أريد !

يوجد كتاب عنوانه : « الحرب » لم يدخل البتة في عداد الكتب العتيقة ومؤلفه كلاوزيفيتز . وهو عليم بشؤون القتال واطوار الرجال .

يجب علينا ان نصغي الى ما يقول وان نستمع الى نصائحه المفيدة لنا . فاذا ما عملنا على نقيضها لم نجن سوى المصائب والارزاء . ان كلاوزيفيتز يحذر من الخلط ما بين السياسة ومجرى القتال . ولست أحاول اليوم بهذه السطور ان اصدر حكماً قاضياً على الامر الصادر الينا فى ذلك العهد لانى اذا كنت قد استطعت الانتقاد بالقول وبالتفكير فى عام ١٩١٤ فانما حدث ذلك قبل ما تلقيته مكملا فى مدرسة الحقيقة المرة وقبل اشتغالى بادارة حرب مشتركه ، ان التجربة تلطف الانتقاد بل كثيراً ما تظهر بعده عن الصواب ! وفى الحقيقة اننا فى كثير من الاوقات اثناء الحرب كنا نفكر فيما يأتى : « ما اسعد ذلك الذى يكون قلبه بصفته عسكريا اخف من قلبنا والذى يتغلب بسهولة اكثر مما تتيسر لنا على الصراع القائم ما بين معتقداته العسكرية والمطالب السياسيه ! » وانها لاغنيات سياسية وما هى الاغانى ممقوته. واما من جهتى فقلما طرقت اذنى فى اثناء الحرب نغمات من هذه الاغانى صادفت هوى فى فؤادى العسكرى . ولنتعشم بانه اذا اقتضى حظ وطننا التعس حرباً جديده ان يكون اناس آخرون اسعد منا حظاً من هذه الوجهة التى لم نتوفق فيها .

وفى ١٥ سبتمبر اضطررت الى مفارقة القائد لودندورف الذى تعين رئيس اركان حرب للجيش الجديد الذى تكون فى سيليزيا العليا باسم الجيش التاسع . ولكن من ابتداء ١٧ سبتمبر صدر لى أمر جلالة الامبراطور بتولى قيادة هذا الجيش الحديث مع الاحتفاظ فى الوقت نفسه بقيادة الجيش الثامن الذى بعد أن ضعفت قوته بسحب الفيالق الحادى عشر والسابع عشر والعشرين والفرقة الثامنة الخيالة منه وضمها الى الجيش التاسع بقى موكولا اليه الدفاع عن بروسيا الشرقية . وعلى هذا لا يكون

الانفصال الذى حدث بين رئيس أركان حربي وبيني الافسحة ما بين فصلين من رواية تمثيلية . وانما ألممت بهذا الحادث العرضى لان الاسماع تلقفته والألسنة تداولته فكبرته .

وقد غادرت اينستيربورج من مطلع شمس يوم ١٨ سبتمبر لاصل الى برسلاو عاصمة سيليزيا التى بلغتها بعد يومين قضيتهما فى الاتوموبيل مررت اثنائهما بمدينة بوزين . وقد كان مبدأ هذه السياحة فى ساحات القتال الذى حدث فى الاسابيع السالفة فحركت فى نفسى عواطف الشكر لجنودنا . فاجتزنا فى الأول نواحى مهجورة ومحترقة ثم بعد قليل بقاعاً سليمة والتقينا بسكان الارياف وهم عائدون نحو الشرق مسرعين الى ديارهم المهجورة . فيا له من شعب بدوي اقام الادلة على اخلاصه وما هو الا امتن قاعدة لقوتنا . ان افكارى تصحبه وهو ذاهب الى بقايا دوره المتهدمة والتى ربما سودها الدخان وهذا منظر اتقى رؤيته منذ اكثر من مائة عام بفضل قيمة جيشنا . ولبثنا فى تقدمنا الى الفيستول نمر بقرى ومدن وديعة يوجد فى بعض أماكن منها النذر الطفيف من آثار الرقى الفكرى الغربى العتيق ! وهذه هى أرض الاستعمار الالمانى التى لاجل استدرار خيراتها لم يقصر وطننا الالماني المبتورة أعضاؤه فى بذل اقصى مجهوداته . وما كنزها الا نفس الا شغل سكانها وعقلهم . وهو شعب بسيط ذو أفكار متشبعة بالاخلاص . وانى لا شعر شخصياً بان دروس العلامة كانت عن الفصيلة الآمرة لم تكن قد تليت هنا فقط بل لقد فهمت بنوع خاص حق الفهم ونقلت الى عالم الحقيقة والايجاد .

أن كل العناصر الالمانية تكاد تكون موجودة هنا تبذل جهدها فى عمل من أعمال المدنيـة عسير وطويل وقد قامت بانجاز ماخصها منه فى هذه

الفرصة وبهذه الإرادة الصخرية ادت لوطننا فى أوقات عصيبة خدماً عديدة لا يمكن تقديرها .

أن هذه الافكار العظيمة وأمثالها كانت تدور فى خلدى مدة سفرتنا ولم تفارقنى البتة فيما بعد طول مدة صراعنا الطويل المرعب . فيا أيها الألمانيون دعوني الخص افكارى فى التحذير الآتي :

« ارتبطوا جميعاً لا برابطة الاتحاد الذهبي التى تجمعكم على القيام بالواجب الادبي والانساني فقط بل أيضاً بالرابطة الفولاذية التى تجمع بين قلوبكم لتأدية الواجب الوطنى وهو ليس باقل من الأول شأناً . ولتقووا دائماً هذه الرابطة الفولاذية حتى تتحول الى جدار نحاسى تريدون أن تعيشوا محتمين به ، وهو الذى يسعه وحده أن يسمح لكم بالتواجد فى وسط العاصفة التى تكتسح العالم الاوربي . صدقوني ، أن هذه العاصفة ستظل باقية ! فما من صوت انساني يستطيع أن يلطفها وما من معاهدة بشرية بمقالة انتشارها والويل لنا اذا وجدت العاصفة منفرجاً فى هذا الجدار ؟ فان الشعوب الاوربية الحائرة المضطربة تستخدمه كآلة تصدع به المعقل الالماني الذى لا يزال ناهضاً ! ومن الاسف أن تاريخنا علمنا هذا الأمر مراراً عديدة . »

انى لم أودع فى هذه المرة أيضاً ولاية اسرتي بقلب مغتبط . على أن وداعاً آخر كان اشد على نفسى فى ذلك اليوم من الاول وهو الوداع الذى وجهته الى الاستقلال الذى ظللت متنعماً به الى هذا الحين .

فعلى الرغم من أن الفقرة الاخيرة من تلغراف المعسكر الاكبر العام ذات مدلول مطمئن من هذه الوجهة فاني مع ذلك كنت أشعر بالحالة التى تنتظرنا هنالك . وليست حوادث هذه الحرب الحاضرة التى تحرك فى نفسى

هذا الشعور لاننا حتى هذا الوقت لبثنا متمتعين باوسع الحرية العسكرية الذهبية بل التى حركته فى نفسى هي المعلومات التى تلقيتها عن الحروب المشتركة التى حدثت فيما سلف .

الزحف

لقد ارتأينا أن أرجح الوسائل لمصلحتنا أن يحتشد جيشنا فى سيليزيا الوسطى فى جهة كراو زبورج . وفى تحركنا من هنالك تكون لنا الحرية التامة للقيام بالحركات اللازمة ضد الجانب الشمالى من مجموع الجيوش البولونيةالتيلم تكن استقرت حتى هذه الهنيهةفى مراكزمعين «مستحيل !»

لقد رغبنا في أن تعضدنا قوي عسوية مجرية جسيمة من شمال الفيستول الى مصب السان « مستحيل ! »

لقد أردنا أن يتمكن جيشنا من التقدم بحمل جناحه الايمن الى كييلس (فى بولونيا الوسطى) . مستحيل ! »

واذا كانت هذه الوسائل معتبرة مستحيلة التنفيذ فان كل العمل يكون أو يمكن أن يصيراذن مستحيلا !

أننا جمعنا جنودنا وهى مؤلفة من (الفيالق العاملة الحادى عشر والسابع عشر والعشرين وفيلق الحرس الاحتياطى وفيلق فويرش اللاندوهرى والفرقة الخامسة والثلاثين الاحتياطية وفرقة بريدوف الاحتياطية وفرقة الفرسان الثامنة) فى شمال كراكوفيا مع ايجاد صلة خاصة بالجناح الايسر للجيش النمسوى المجرى كما أمر بذلك المعسكر الاكبر العام . وانتقل معسكرنا العام احتياطيا الى بوتن فى سيليزيا العليا وفى أواخر سبتمبر حركنا من منطقة الاحتشاد قلبنا ولم نحرك جناحنا الايمن زاحفين على

أستقامة الى كيبلس . واتجه المعسكر العام الأكبر النمسوى المجرى من كراكوفيا الى الشاطىء الشمالى للفيستول وهو معسكرضئيل مؤلف من أربع فرق من المشاة وفرقة من الخيالة فقط . وما كان يظن أنه يستطيع أن يحرك قوى أعظم من هذه الى جنوب النهر لأنه كان قاصداً أن يقوم بنفسه فى هذه المنطقة بهجوم حاسم . أن خطة حليفتنا مقرونة بالجرأة وهي تشرف برمتها مختطها . والمدار الآن على معرفتها اذا كان فى استطاعة الانسان أن يأمل أقتدار الجيش النمسوى وهو على ما فيه من ضعف شديد بالرغم من رجال النجدة الواصلة اليه على تنفيذ هذه الخطة . ولقد تلطفت مخاوفى على أثر تصور أن الجيش الروسي حينما يتحقق من وجود الجنود الالمانية فى بولونيا يقذف علينا بسواد قواه فيتيح بذلك الظفر لحلفائنا .

أن الصورة التى كنا نستطيع أن نرسمها لتمثيل الحالة فى مبتدأ حركاتنا لم تكن تامة الوضوح . والشيء الوحيد الذى كنا نعرفه بتأكد هو أن الروسيين فى الأوقات الاخيرة لم يقتفوا آثار الجيش النمسوى المجرى المرتد فيما وراء السان الا بتردد وأرتياب . ومن جهة أخرى حصلنا على معلومات تدل على أن للروسيين فى شمال الفيستول ستة أو سبعة فرق من الفرسان الروسيين وعدداً غير محدود من الالوية المجندة من الولايات . ويظهر أن جيشا روسيا فى دود التكوين فى ايفانجورود . وهو يتألف على وجه الاحتمال من قسم من الوحدات المأخوذة من الجيوش الموجودة أمام جيشنا فى بروسيا الشرقية ومن قسم آخر من قوى جديدة آتية من روسيا الأسيوية. وفضلا عن ذلك يفيد نبأ آخر بأن العمل جار حول فارسوفيا لانشاء مركز عظيم تتجه جبهته نحو الغرب . فالموقف الذى سيتواجد فيه جيشنا ليس مما يدعو الى الطمأنينة التامة بل يجب توقع المفاجات .

رطأنا الارض البولونيــة الروسية وفى الحال أدركنا أهمية ما ذكره أحد القواد الفرنسويين فيما قصه عن الحملةالشتائية النابوليونيةفيعام١٨٠٦ التى حضرها هو بنفسه من جعله العامل الاول فى وضع الخطط الحربيــة لهذه البقاع قائما على ما فيها من الوحول ! فهذه الوحول المتكونة فى سائر أشكالهـا لا تقتصر على منبسط الطبيعة فقط بل تشمل المساكن البشرية وسكانهـا أنفسهم . وبعد أن اجتزنا تخمناً دخلنا على الفور فى عالم آخر . فعرض لنا على غير ارادتنا هذا السؤال : « كيف تيسر على أرض أوروبية أن الحدود التى تفصل بوسنانيا من بولونيا ترسم خط افتراق يمثل هــذا الوضوح ما بين درجتين من مدنية عنصر واحد ؟ » فى أية حالة من الشقاء الجسمى والنفسى والمادي أوجدت الادارة الروسية هذه البقاع وما أضعف عناصر المدنية التى أدخلها ترفه الأوساط البولونيــة العليا على الطبقات الوضيعة المستعبدة ! ومن تأملاتى الاولى ظهر لى أنه من المشكوك فيــه التمكن من مساعدة الكهنوت على انتزاع هــذه الافواج من استخفافهم بالشؤون السياســية واجتذابهم الى عقد محالفــة عسكرية معنا بمحض اختيارهم .

أن حركاتنا صارت فى منتهى الصعــوبة من جراء عدم قابلية الطرق للسير فيها ! وقد لاحظ العدو هذه الحركات واتخذ الخطط اللازمة ضدها فسحب من قسم جبهته المواجهة للنمسويين ستة فيالق بقصد قذفها أمامنا لجعلها تعبر الفيستول الى الشاطيء الايسر عند أيفا نحو رود .

وفى ٩ اكتوبر وصلنا الى الفستول من طريق أوباتوف رادوم . وفى هــذا السير أزحنا من امامنا كل القوى المعــادية الموجودة على الشاطىء الأيسر من هذا النهر فى المنطقة التى اجتزناها . ولكن فى منطقة ايفانجورد

فارسوفيا نهض ازاء جناحنا الأيسر خطر يهدده ففي هذه الحالة استحال علينا وقتيا الاستمرار فى حركتنا المتجهة نحو الشرق وعبور الفيستول فى جنوب ايفانجورود . بل كان الواجب علينا قبل كل شيء أن نهتم بالعدو الذى ظهر فى الشمال . لأن كل الحركات الأخرى تتوقف على نتيجة الوقائع المهمة التى تنتظرنا فى تلك الجهة . لقد كانت ترتسم فى هـذه الآونة لوحة حربية غريبة . اذ بينما كانت فيالق من الأعداء تنحدر بسرعة من غاليسيا لى فارسوفيا على الشـاطىء الأيمن من الفيستول كانت فيالقنا تحاذيها فى السير على الشاطىء الأيسر من هذا النهر . ولكى يعيق العـدو تدفقنا على الشاطىء الايسر قذف بقوى جسيمة الى غرب النهر من ايفانجورود فى المنطقة المحيطة بهذه المدينة فدفعنا هـذه القوى الى نقط عبورها بمعارك حامية ولكننا لم نكن فى حالة تهىء لنا طردهم نهائيا من الشاطىء الايسر . وعلى مسيرة يومين من فارسوفيا اصـطدم جناحنا الأيسر بناء على أوامر صادرة اليه من القائد ماكنزن بقوات معادية متفوقة عليه وصـدها فى مكانها ولكن هجومنا صد على مسافة يوم من خط الاستحكامات.

وسقط بين أيدينا أمر روسى يتضمن مهمات حربية ذات قيمة عظيمة وجدناه فى ميدان القتال الكائن فى جنوب فارسوفيا وهذا الأمر يوضح لنا تماما القوات التى حشدها العدو ونواياه . وبحسب هذا المستند يكون امامنا في مصب السان الى فارسوفيا أربعـة جيوش روسية أى : ان ستين فرقة روسية تقريبا تواجه سبع عشرة فرقة عسوية المانية . ومن موقع فارسوفيا وحـده خرجت أربع عشرة فرقة معادية واشتبكت مع خمس من فرقنا . فتكون مائتا طابور وعشرون طابورا من الروسيين ضد ستين طابورا من الالمانيين فتفوق العدو علينا من جهة العدد لا يزال عظيما

ولا سيما ان أعداد وحداتنا المشاة لم يكد يبلغ النصف وأحيانا الربع من مجموع أعدادها فى مفتتح الحرب وذلك من جراء الخسائر التى اعتورتها فى الملاحم التى أجرتها في بروسيا الشرقية وفى فرنسا وعلى أثر المسافات الطويلة الشاقة التى قطعتها فى الايام الأخيرة — وهى تبلغ ٣٠٠ كيلو متر فى أربعة عشر يوما وفى طرق وعرة مخددة مفعمة بالوحول — وازاء جنودنا هذه المنهوكة قواها الى مثل هذا الحد توجد الفيالق السيبرية ذات الجنود التى تعتبر نخبة مقاتلة القيصر وقد وصلت حديثاً الى الجبهة واعدادها لا تزال بتمامها .

وغرض العدو الذى يرمى اليه هو انتزاعنا من طول شواطئ الفيستول بينما يكون بهجمة موجهة من فارسوفيا قد أجهز علينا . وهى خطة عظيمة أختطها الجراندوق نيقولا نيقولا يفيتش وهى أعظم خطة وضعها هذا الامير على ما أعلم بل هى فى نظرى أعظم الخطط التى وضعت لهذا الميدان قبل اضطراره الى الذهاب الى القوقاز

فى خريف عام ١٨٩٧ على أثر المناورات الامبراطورية التقيت فى محطة هومبورج فون درهوهى بالامير الذى استجرنى الى حديث أهمه مسالة استعمال المدفعية ولكنى الآن فى بولونيا موجود امامه للمرة الاولى فى حالة كفاح لانه لم يقم فى بروسيا الشرقية إلا مدة قليلة على ما يظهر كان فى خلالها متفرجا . فاذا ما نجحت خطته فان مصيبة دهماء لا تقتصر على تهديد الجيش التاسع فقط بل تهدد كل الجبهة الشرقية بما فيها سيليزيا ووطننا بأجمعه أيضاً . ولكن لا ينبغى لنا أن نسترسل فى التفكير فى أمثال هذه التصورات القاتمة بل يجب أن نبحث عن الوسيلة التى تتقى بها الخطر الذى يهددنا . فقررنا الاستمرار على ملازمة خط الفيستول فى جنوب

إيفانجورود ولكن مع سحب كل القوى التي نستطيع أن نستغني عنها من هذه الجهة وبضمها الى جناحنا الأيسر الذي سنقذف به على القوات المعادية الكائنة في جنوب فارسوفيا لضربها قبل أن تستطيع جموع أخرى الوصول الى هذه الجهة اذن لا ينبغي أن تذهب لحظة واحدة سدى !
وعلى أثر ذلك طلبنا من النمسا والمجر أن توجه الى فارسوفيا من شاطىء الفيستول الايسر كل القوى التي تستطيع حشدها وكان المعسكر العام الاكبر للجيش النمسوى المجرى يدرك بالتأكيد خطر الموقف ولكنه أبدى اعتراضات قليلا ما ترتبط بهذه المسألة . ان النمسا والمجر التي أسعفناها في أسرع ما يمكن مستعدة لتعضيدنا ولكن بتمكيننا فقط من سحب الجنود التي تركناها على شاطىء الفيستول وهذه طريقة بطيئة التنفيذ جدا وتستغرق وقتا وباتباع هذه الخطة يمكن بالتأكيد منع اختلاط الوحدات الالمانية بالوحدات النمسوية المجرية ولكن أعمالنا كلها تكون معرضة للاخفاق . فاعترضنا واحتججنا ولكن على غير جدوى . فخضعنا حينئذ لرغائب النمسا والمجر .

القهقري

حدث ما كنا نخشاه . فقد أخذت جموع جديدة تتدفق على التوالي من فارسوفيا ومن جهة أخرى وعبرت الفيستول أفواج أخر فيما يلي هذا الموقع . وأخذت تنتشر على طول خطوط القتال الممتدة فيها جنودنا قوى الاعداء المتفوقة علينا في العدد وهي مستمرة في الاستطالة نحو الغرب ومهددة جناحنا الايسر بالانقضاض عليه . ان هذه الحالة لا يمكن ولا ينبغي أن يطول أمدها فان كل الاعمال التي شرعنا في تنفيذها بالاشتراك

مع النمسا لم تعد معرضة لخطر التزعزع فقط بل لخطر التلاشى أيضاً وفى الحقيقة انه من الممكن القول بأنها قد تلاشت فعلا لأن الفوز الذي كان معقودة به الآمال على شاطىء الفيستول الاعلا فى غاليسيا لم يتحقق وذلك لان العدو جلب الى تلك الجهة جماهير قرية ضد جيشنا التاسع الذى أصبح بهذه الطريقة ضعيفاً على مرأى من حلفائنا . والنتيجة انه يجب علينا اتخاذ هذا القرار الشاق وهو أن نقبل قبل كل شىء على الرغم من ارادة جنودنا التخلص من حركة الالتفاف التى تهددنا والبحث عن وسيلة أخرى للتوقى من هجوم العدو . لقد تركت ساحة قتال فارسوفيا فى الليلة الواقعة ما بين ١٨ و ١٩ اكتوبر للعدو . ولكى لانتخلى من الآن عن أعمالنا استقبلت جنودنا التى تقاتل امام فارسوفيا تحت أمرة ما كنزن فى موقع رافا ـ لو يكز الكائن على بعد سبعين كيلو مترا تقريبا غرب فارسوفيا وقد أملنا أن يسرع الجيش الروسى على هذه الجبهة التى تحولت وجهتها الى الشرق . فقذفنا حينئذ نحو الشمال بالفيالق التى جلبناها من جنوب ايفانجورود حيث حل النمسويون محلهم ورجونا أن نتمكن بهذه الطريقة من ضرب أقوى قسم من مجموعة الجيوش الروسية ضربة قاضية عند أعظم منطقة فى نهر الفيستول والشروط المقتضاة لتنفيذ هذه الخطة هى أن تتحمل جنود ما كنزن صدمة الجماهير الروسية وأن تنشئ الجنود النمسوية المجرية المتوطنة على شاطىء الفيستول بأما كنها جهد المستطاع لتكون للهجوم الذى صممنا علية غطاء متينا كافياً لصد أى هجوم يحاوله الاعداء من جانب الشرق . لقد تراءى لحلفائنا أن هذه المهمة الاخيرة المسندة اليهم سهلة التنفيذ ما داموا متمتعين بقوة موقفهم على شاطىء الفيستول ولكن القيادة النمسوية أحدثت تعقيدا فى مهمتها برغبتها فى أن تؤدى ضربة

بالغة من جهتها وهو أمر مستحسن فى ذاته لو قرن بالنجاح . فقررت التخلى عن معابر الفيستول فى ايفانجورود وفى الشمال ثم الانقضاض على صفوف الاعداء أثناء عبورها . خطة جرئية طالما كانت لها فى وقت السلم منزلة عظمى فى تنفيذ وانتقاد التمرينات على الخريطة وفي أوقات المناورات وقد نفذها بالفعل المارشال بلوخر وزميله المخلص جيينسيناو على مجرى الكاتنو باخ بطريقة باهرة . لكن مثل هذه المغامرة تظل دائماً عرضة للخطر ولاسيما عند ما لا تكون القيادة على اتم ثقة بجنودها . وعلى ذلك فقد نصحنا بالعدول عنها . إلا أننا عبثا نحاول ! فقد اجتازت القوى الروسية فى جموع كثيفة نهر الفيستول عند ايفانجورود فقرنت الكرة النمسوية الجرية عليها بالفوز الاول ولكنها لم تلبث أن أصيبت بعوامل الارتباك ثم تحولت أخيرا الى انهزام . وماذا عسى أن يفيدنا الآن اخفاق الهجمات الروسية الاولى على جبهة ما كنزن الجديدة ؟ لقد انكشف الجناح الايمن من قوة هجومنا المقرر على أثر ارتداد حليفتنا فيجب علينا العدول عن حركتنا . يلوح لى صواب جنوحنا الى حريتنا فى العمل باستمرارنا على التراجع لنتمكن من القتال فى مكان آخر تتوفر فيه ميزات جديدة إن هذا القرار الذى ارتسم فى عقلي وانا فى معسكرى العام وانا ببلدة رادوم لم يكن اذ ذاك سوى مجرد فكرة سانحة ولكنها كافية الوضوح لاتخاذ قاعدة للعمل الواجب القيام به . فاتخذ رئيس أركان حربى الحيطة اللازمة وإن قوته التيتانية (قوة الجبابرة) لتنفيذ ما صحت العزيمة عليه وانى على يقين من ذلك .

وفى الحقيقة ان ما عزمت على اجرائه يثير فى نفسي انا أيضاً اعتراضات خطيرة فما الذى تقوله بلادنا اذا كان جنودنا فى رجوعهم القهقرى يقتربون

من حدودنا ؟ وهـل من المدهش ان ترتعد سيليزيا هلعاً ؟ ستتحرك فى سيليزيا ذكرى حوادث الارهاب والتدمير التى اجترحها الروسيون فى روسـيا الشرقية ، ذكرى حوادث السلب والآلام التى قاساها أناس مجردون من وسائل الدفاع وهم يتسحبون على الطرق وقد ألمت بهم سائر أنواع الشقاء الاخرى . أن ولايتنا السيليزية الغنيـة بمصادرها المنجمية المستثمرة استثماراً عظيما منظما مع صناعتها الفخمة الباهرة ليتوقف عليها مجرى الحرب توقفه على توفر الخبز اليومى ! فالاعمال الحربيـة لاتدار بالاقتصار على وضع اليد فوق الخريطة وقول : « ساتخلى عن هـذه البلاد » إذ لا ينبغي الاكتفاء بالنظر فى الشؤون الحربية عند اصدار القرارات بل يجب أيضاً الالتفات الى الشؤون الاقتصادية . وقد دخلت فى جملة حسابنا أيضا أفكار انسانية عليها مسحة من الاسى . وكانت هذه الافكار هى أشق ما يمكننا التغلب عليه

بدأ تراجعنا فى اتجاه كزينتوخاو يوم ٢٧ اكتوبر . فوجب احداث اتلاف هامة فى سائر الطرق والسكك الحديدية لتعطيل الجماهير الروسية التى تضغط علينا من قرب الى أن يتهيأ لنا التخلص منها تماما والى أن يتوفر لنا من الوقت ما يمكننا من القيام بحركة جـديدة . وتمكن الجيش من الارتداد الى ما وراء نهرى الوبيرافكا والفارتا فحل جناحنا الايسر فى جهة سييرادز وانتقل معسكرنا العام الى كزينتوخاو . وتبعنا الجيش الروسى وهو مقترب منا جد الاقتراب ثم أخذت مسافة ما بيننا تزداد اتساعا وعلى ذلك فقد انتظمت حالتنا الى وقت ما بعد أن بلغت من الخطر أشد مبلغ

وبمناسبة هذه القهقرى لا أستطيع الامتناع عن القول بان عدم التبصر

الذى لا أعرف له كنها من جانب الروسيين بل السذاجة التي تغلبت عليهم فى طريقة استعمالهم التلغراف الاثيرى مكننا من أن نشعر فى الوقت المناسب بالخطر الذى يهددنا بتلاوة الرسائل التى كان يتداولها الاعداء فيما بينهم فلم نكن لنعرف فقط أوامر القتال بل كنا نعرف أيضا نوايا خصومنا وعلى الرغم من هذه المناسبات الموافقة لنا جد الموافقة كانت الحوادث العسكرية وعلى الاخص كان التفوق العظيم فى العدد لدى العدو يلقى على كواهلنا نحن هيأة القيادة أعباء باهظة داعية الى تهيج الاعصاب . غير أنى كنت أعرف كيف أقبض بحزم على عنان القيادة وكانت ثقتى لا حد لها فى أن يقوم جنودى بأتيان كل ما يستطيع العنصر البشرى أن يأتيه . فهذا الاشتراك العام ما بين القيادة والجنود في العواطف والارادة جعلتنا نتغلب على أحرج المواقف . ومع ذلك فهل لا يلوح فى هذه المرة أن هزيمتنا النهائية انما تأجلت الى أجل مسمى ؟ لقد تعالت أصوات الإبتهاج من جانب أعدائنا حتى أصبحت مسموعة . وأصبحوا يروننا قد حقت علينا الغلبة النهائية ، وربما كان هذا الاعتقاد هو السبب فى نجاتنا لاننا التقطنا بتاريخ أول نوفمبر رسالة تلغرافية لا سلكية روسية تتضمن ما يأتي :

« بعد مطاردة العدو مسافة ١٢٠ فرسخ حان الوقت لترك المطاردة الى الخيالة لان المشاة متعبون وتزويد الجيش بالمؤونة عسير . »

فاستطعنا حينئذ أن نتنسم نسيم الاطمئنان وأن نفكر فى خطط جديدة .

وفى أول نوفمبر عينني جلالة الامبراطور قائداً عاماً للقوات الالمانية

المنتشرة على سائر الجبهة الشرقية فأمتدت دائرة عمل قيادتي على سائر البقاع الالمانية التي في حدودنا الشرقية . وظل القائد لودندورف رئيساً لأركان حربي . وانتقلت قيادة الجيش التاسع الى أمرة القائد ماكنزن . فتخلصنا بهذه الطريقة من الاشتغال بادارة أعمال هذا الجيش مباشرة ، ولكن أشرافنا على مجموع الجيوش الشرقية صار أعظم من الادلة . فتخيرنا بوزن لتكون مقر معسكرنا العام . وقبل وصولنا الى هذه المدينة وضعنا تصميماً نهائياً في يوم ٣ نوفمبر في مدينة كزانتوخاو يتضمن حركة جديدة أو بمعنى أوضح وادق أن مقاصدنا الجديدة أخذت شكلها النهائي .

كرتنا

أن خطتنا الجديدة قائمة على الاعتبارات الآتية : اذا أردنا ونحن على استعدادنا الحالي أن نصد عن الجبهة هجوم الجيوش الروسية الاربعة الماثلة أمامنا فان المعركة التي نفتتحها ضد عدو له علينا التفوق الساحق يكون حظها كنصيب معركة فارسوفيا . وليس بهذه الطريقة يمكن انقاذ سيليزيا من الغارة الشعواء . أن حل هذه المسألة لا يمكن أن يوجد الا في الهجوم . واذا وجهنا هجمة على جبهة خصمنا المتفوق علينا في العدد انقلبت الى كسرة ببساطة وسهولة فيجب أذن السعي الى توجيه هذا الهجوم ضد الجانب المكشوف أو الذي يكون فقط ضعيف الحماية من جيوش الاعداء . وقد دلت اشارة تطويق بذراعي الايسر أثناء مناقشتي الاولى على حقيقة فكري فاذا اردنا اصابة الجناح الشمالي للعدو في جهة لودز فيجب تقديم قوة هجومنا الى ضواحي تورن . فيكون أذن ما بين هذا الموقع وجنيزين حشد قوتنا الجديدة . وباتباعنا هذه الطريقة نبتعد مسافة شاسعة عن

الجناح الايسر النمسوى المجرى . ولم نشأ أن ندع فى جهة كنزينتوخاو إلا قوات ألمانية قليلة منها فيلق وبريش اللاندوهرى الذى أصيب بنقص فادح من جراء خسائره . ولتحقيق تسحبنا نحو اليسار كان من اللازم أن يستقدم المعسكر العام الى كبر النمسوى أربع فرق من جبهة الكاربات التى لا يهددها شىء الى جبهة كزينتو توخاو لتحل مكان جنوذنا الواجب تقدمها الى الشمال .

على أثر احتشادنا فى منطقة تورن ـ جنيزين توزعت القوى النمسوية الالمانية على ثلاثة أقسام : القسم الاول مكون من الجيش النمسوى المجرى الراكب ومستقره على شواطىء الفيستول الاعلا . والقسمان الآخران مكونان من الجيشين الثامن والتاسع الالمانيين . ولا يمكننا أن نضع فى الفرجات الكائنة ما بين هذه الجموع الثلاثة قوات ذات شأن جدى من القتال . وفى البراح الواسع الكائن ما بين النمسويين والجيش التاسع وامتداده ١٠٠ كيلومتر اضطررنا لأن نضع فى الخط وحدات جديدة التكون . وهذه الوحدات التى ليس لها فى حد نفسها سوى قوة هجوم ضعيفة كانت بحكم الضرورة ممتدة ازاء قوى روسية ذات تفوق عظيم عليها جملتها لا تعتبر إلا كستار رقيق . فاذا لم يكن ثمت اعتداد الا بالتفوق العددى فما على الروس حينئذ الا أن يزحفوا على سيليزيا ويكتسحوا فى طريقهم قوة المقاومة الضعيفة التى تعترضهم . ولم يكن لنا فى المسافة الكائنة ما بين الجيش التاسع المخيم على مقربة من تورن والجيش الثامن المخيم فى بقاع الجهة الشرقية من بروسيا الشرقية غير جنود من اللاندستورم تعضدها عساكر تورن وجراودنز من طبقة الاحتياطى العام . ويقابلها مجموع من القوى الروسية مشتمل على نحو أربعة فيالق ومرت فى شمال فارسوفيا على شاطىء الناريف الا . ن

وعلى شاطىء الفيستول . فاذا دفعت القيادة الروسية هذا المجموع نحو الشمال فى اتجاه ملاقا فان الحالة التى كانت فى آخر أغسطس قبل معركة تاننبرج تنشأ من جديد . فمؤخرة الجيش الثامن اذن على ما يتراءى صارت مهددة مرة أخرى والذى يجب هو أن يكون هجوم الجيش التاسع موجها فى اتجاه لودز ضد الجانب الضعيف غطاؤه من الكتلة الروسية الاساسية فتتخلص بروسيا وسيليزيا من هذه الحالة . ومن الواضح أن هذا الجيش اذا لم يسرع بالهجوم فانه يستجر اليه من سائر النواحى الجماهير الروسية وهذا الخطر كان فى درجة من الجسامة تجعل من المستحيل تلافيه بسحب قوى من أية نقطة من الجبهة لتقوية نقطة أخرى هجمت عليها جموع من القوى الروسية الهائلة أو للقيام بهجمة قوية على تلك الجموع الحاشدة أو للتغرير بها فى احدى الجهات المكتظة بها كمنعطفات الفيستول أو كشمال القسم المتوسط من هذا النهر ومع ذلك فلا بد لنا من الهجوم على الرغم من ذلك الخطر الجسيم بكل جنودنا ومن كل النواحى . إلا أنه من الخطأ المضر اقامة صروح غالية من الآمال على سلوك هذه الطريقة .

ان كل الوحدات المتينة القادرة على الهجوم والتى يمكن الاستغناء عنها يجب أن تستقدم لتكون امداداً للجيش التاسع . لان هذا الجيش هو الذى يجب أن يضرب الضربه الحاسمة وعلى الرغم من من أن الجيش الثامن لا يزال مهددا فقد أعار الجيش التاسع فيلقين . وحقيقة أنه ليس من المستطاع فى مثل هذه الاحوال الدفاع عن الحدود بما فيها روسيا الشرقية نفسها المحررة من وطأة الاغارة منذ مدة وجيزة والتى انما يكون الدفاع عنها حينئذ عند الانجيراب وفى منطقة البحيرات وهو أمر عسير . وبفضل مجموع الوسائل التى أوضحناها صار مجموع قوة الجيش التاسع نحو خمسة

فيالق ونصف فيلق وخمس فرق من الفرسان اثنتـان منهما قدمتا من الجبهة الغربية وعلى الرغم من الاحتجاجات القوية الصـادرة من طرفنا فان المعسكر الاكبر العام أظهر عدم استطاعته امداد هذه الجبهة بقوى أخرى لانه كان لا يزال على اعتقاد باحراز نتيجة مرضية فى معركة ايبر.
لقد عادت صعوبات الحرب الى الظهور مرة ثانية على الجبهتين فى آن واحد مع كثرتها وخطورة شأنها . فوجب علينا فى هذه المرة أيضاً أن نستعيض عن القوى المقاتلة التى تنقصنا بالسرعـة والجرأة فى تنفيذ خططنا . وا على يقين من أن قوادنا ورجالنا سيقومون من هـذا القبيل بفعل كل ما يستطيع المجهود البشرى أن يفعله . لقد أصبح الجيش التاسع ابتداء م ١٠ نوفمبر مستعد للهجوم وفي يوم ١١ شرع فى حركته فامتد جناحه الايسر على طول الفيستول وجناحه الايمن الى شمال الوارتا . وقد حانت الساعة الكبرى اذ جاءت الانباء معلنة محاولة العدو أن يتخذ هو أيضـاً خطة الهجوم . ودلتنا احدى رسائل العدو الاثيرية على السر الآتى : يجب على كل الجيوش الروسية المنتشرة في الجبهة الشمالية الغربيـة أى كل القوى المحتشدة ما بين البلطيق وبولونيا أن تزحف الى الامام يوم ١٤ نوفمبر لتتغلغل فى داخلية المانيا . لقد انتزعنا سر الاعمال من القيادة المعادية التى عندما شعرت فى يوم ١٣ بحركتنا لم تجرأ على تنفيذ هجومها العظيم ضد سليزيا بل ألقت بكل القوى الحاضرة لديها امام هجومنا . وبهـذه الطريقة نجت سيليزيا مؤقتا ، ان الغرض الاول من حركتنا تكلل بالنجاح فهل نستطيع بعـد ذلك أن نحرز فوزا مبينا ؟ ان تفوق العدو جسيم جدا ! غير ان أملى عظيم في النجاح انى أتخطى دائرة هذا الكتاب اذا شئت أن أصف فيه جميع الملاحم المعروفة باسم « معركة لودز » .

فان هذا الصراع المتمثل في الهجوم والدفاع وفي الالتفاف والتهدد بالالتفاف وفي الاختراق وفي التهدد بالاختراق يرتسم منه أعجب منظر وقعت عليه العيون وهو منظر بوحشيته المفزعة يفوق مناظر سائر الوقائع التي حدثت الى هذا العهد في الجبهة الشرقية !

لقد توفقنا بالاتفاق مع النمسا والمجر الى صد أمواج نصف القارة الاسيوية !

ان وقائع هذه الحملة البولونية لم تنتهِ عند لودز بل اتبعها كل من الجانبين قوات جديدة . ولقد وصلت الينا نجدات جديدة من الجانب الغربي والقليل منها حديث التألف وأما أغلبها فمع كونه منتعشا بقوة الارادة ولكنه لم يكن الا على نصف قابلية للعمل . لان الكثيرين من جنود هذه النجدات مستنجرون من وقائع في مثل ملاحمنا من الشدة بل ربما كانت أشد منها أيضاً وعلى الاخص معترك ايبر . فقد حاولنا أن ندفع الى الخلف بمعونة هذه النجدات الامواج الروسية التي صدتنا تدفعها . ولبثنا شطراً من الزمن نتخيل أننا سنتوصل الى هذا المرام وأخيراً حدث لنا كما طرأ علينا في ملاحم لودز من قبل أن صارت قوانا غير كافية لمغالبة التفوق العددي الذي قوبلنا به في مضمار الكفاح . ولقد كانت كفتنا ترجح لو أن النجدات لم تأتنا نقطة فنقطة ولو استطعنا أن ندفعها على التعاقب الى ميدان القتال . وكنا كلما حاولنا تحريك الكتلة السلافية الهائلة نحو الشرق لم تتزحزح الا مسافة قصيرة ثم ترسخ في مكانها الجديد فنضبت مواردقوتنا . وفي الحقيقة أن هذه القوى لم تتضعضع في المعركة فقط بل في البرك والمستنقعات أيضاً .

أن مجيء فصل الشتاء هو الذي شل نشاط الخصمين فقط . فالجليد والثلج يغطيان خطوط المعركة التي كانت قد صارت غير قابلة للسير فيها .

توجد نقطة صارت من الآن موضوعا نتساؤل وهي أى الخصمين سيكون البادىء فى ايقاظ خطوطه من سباتها خلال الاشهر المقبلة !

١٩١٥

كيف يتهيأ الفصل فى الامر

أن الحملات التى قامت بها ألمانيا وجيشها فى ١٩١٤ لا يمكن تقدير قيمتها فى كل مجدها العظيم الا متى عادت الحقيقة والانصاف الى الانطلاق فى مجال حريتهما ومتى أرتفع القناع عن وجه دعوى العدو التى ضللت الرأى العام فى العالم أجمع ومتى وجد النقد الالماني الذى يهتك حجاب كل شيء مكانا من العناية ومن التدبر فيه . ولست بمرتاب فى تحقيق هذا كله يوما من الأيام .

على أن العمل العظيم الذى قمنا به فى عام ١٩١٤ بالدافع الذى حملنا على القيام به على الرغم من عظم حملاتنا التى أعددناها لأنجاح ذلك العمل لم يتكلل بالفوز النهائي الى مختتم تلك السنة . فاننا لم ننجح حتى ذلك الحين الا فى أنقاذ وطننا وقتياً من غير أن نحرز نصراً مبيناً . وما الحصول على الفصل فى أحدى جبهاتنا الا احتقار الدرجة الاولى من السلم الذى نتوصل به الى ذلك النصر فمن الواجب علينا أن نتخلص من التطويق العسكرى والسياسى والاقتصادى الذى يحرجنا ويهددنا أيضاً باختناقنا أدبياً . أن الاسباب التى أستوجبت عدم حصولنا على فوز حاسم الى هذا الوقت كانت موضوع المناقشات العديدة وستظل كذلك . ولكن كان يوجد فى هذه المسأله شيء مؤكد : وهو أن معسكرنا العام الاكبر يرى أنه مجبر على سحبه قوى من الجبهة الغربية فى غير الوقت المناسب مع أنها الجبهة

التي يجب الفصل فيها ليوجهها الى الجبهة الشرقية . ولست أريد أن أبحث لأعرف اذ كان للانتصارات المحرزة الى هـذا الوقت والمبالغ فيها دخل كبير في هـذا التصميم وعلى كل حال قد نجم عنـه اتخاذ نصف الوسائل المبتغاه : فقد صار العـدول عن أحد الغرضين والغرض الآخر لم يتيسر ادراكه . وفى خلال عدة محادثات جرت مع بعض الضبـاط الذين لهم المام بمجرى الحوادث التي وقعت فى شهرى أغسطس وسبتمبر من عام ١٩١٤ من الجبهة الغربيـة أخذت أكون فى نفسى رأيا غير مغرض عن الحوادث المشؤومة التي تتابعت فى الملحمة المسماة « بوقعة المارن » . انني لا أظن أن حبوط خطتنا الكبرى للحرب وهي الخطة التي من غير أدني شك وضعت على أتم أحكام كان الباعث عليه سبب واحد . بل لقد تتابعت سلسلة حوادث غير موافقة لمصلحتنا : واني لأسرد من بينها ضعف الفكرة الاساسية فى خطتنا التي تقضي بتحتيم اجتماع جيشنا مع تكوين جناح أيمن له قوي جداً ، واخفاق جناحنا الايسر المؤلف على أقوى تركيب وهو الاخفاق الذى نجم عن فكرة خاصة غير مناسبة للوقت صادرة من القيادة المرؤوسـة وتجاهل الخطر الذى ينتظر من جانب باريس بصفتها الموقع المنيع المحصن تحصينا عظيما وأكبر نقطة لملتقى الخطوط الحديدية ، وعدم تداخل معسكرنا العام الاكبر بطريقة كافية لترتيب حركات جيوشنا وأخيراً ربما ينضم الى ما تقدم عدم تقدير بعض أعضاء القيادة فى ساعة الفصل في المعركة موقف جيشنا تقديراً دقيقاً مع أن ذلك الموقف في حد نفسه لم يكن غير موافق . ان المؤرخين والناقدين سيجدون في هذه المسألة مادة فياضة يستقون منها مباحثهم .

وانني لاصرح علنا بانه اذا كان حبوط خطة أعمالنا الاساسية في الجبهة

الغربية قد عرض ألمانيا لخطر جسيم فلم ينتج عنه مطلقا أن مواصلة القتال صارت عديمة الجدوى لالمانيا . ولو لم أكن مقتنعا من فائدة مواصلة الحرب لكنت وجدت من واجبي منذ خريف سنة ١٩١٤ أن أرفع الامر الى المراجع العليا بل الى رئيسي الاعلى المبجل . ان جيشنا أظهر من الصفات الباهرة السامية ما يرفعه قدراً على جيوش الاعداء حتى أنني لأرى انه كان لا يزال في وسعنا مع جمع قوانا بطريقة موافقة الحصول على أمر فاصل ولو على الأقل في احدى ساحاتنا الحربية وهذا على الرغم من التفوق العددي المتزايد المختص به اعداؤنا .

ايكون العمل الفاصل في الشرق أم في الغرب ؟ هذا هو السؤال العظيم ، وعلى الاجابة عليه يتوقف مصيرنا . وبالطبع أن المعسكر العام الاكبر لا يستطيع الاعتراف لي بحق الاجابة على هذا السؤال . لان التبعة كلها واقعة على كاهله . ولكني أرى أن لي الحق على الاقل بل علي الواجب في أن ابسط وجهة نظري في حل هذه المسألة وان ادافع عنها علنا وبحرية .

أن السواد الاعظم من الشعب الالماني يتطلب بحسب عادته التقليدية الحصول على الفصل في الامر من طريق الجبهة الغربية . لان هذا الفصل يمكن القول عنه بانه شعور وطني : ففي الغرب يوجد العدو الذي لا تدعنا حزازة حقدة في وقت السلم تنعم بالراحة . وفي الغرب أيضاً يوجد الآن الخصم الذي نحن مقتنعون بانه يعد القوة التي يدفعها لتدمير ألمانيا . وعلى نقيض ذلك كان الشعب عندنا يرى دائما ان رغبة الروسيا في امتلاك القسطنطينية معقولة ، وهو لا يحل علة الجد مطامعها في بروسيا الشرقية والغربية .

فالاعضاء المكلفون في المانيا بادارة الحرب يستطيعون اذن عندما

محاولتهم الفصل فى هذه الحرب فى الجبهة الغربيـة ان يكونوا على ثقة من تعضيد الرؤوس التي تدير شؤون الامة بل من تعضيدالقسم الاعظم من الراى العام . و يوجد فى هـذا الامر عامل ادبي لاينبغى الاستخفاف به . ولا أجرأ على هـذا القول بأن هـذا العامل كان له تأثير فى تصرفاته معسكرنا الاكبر ولـكنى أعلم حق العلم بان فكرة أنهاء الحرب فى الميدان الغربي طلبت منا آلافا من المرار شفويا وكتابة . وفيمابعدعند ما أسندت الي مقاليد الاعمال الحربية أقترح على أناس بأن أهمل الروسيا نهائيا بل كانت الآراء متجهة غالبا الى أنه من الممكن التفاهم بطريقـة ودية مع هذه الدولة وان هذا التفاهم يتم بسهوله . وكذلك كان القتـال الحاسم فىالجبهة الغربيه وهو القتال الذى يرمي الى الانتصار النهائي عندى ، اتا الوسـيلة الوحيدة لابرام الصلح ولكن لاينبغى ان نلجأ الى هذه الوسيلة الاخيرةالا بعد ان نصرع الروسـيا . وهل من السهل صرع الروسيا ؟ لقد أجاب القدر على هذا السؤال بالايجاب ولكن بعد مضى سنتين اي بعد ان فاتته الفرصة المناسـبة لان حالتنا كانت قد تغيرت تغـيراً تاما فى بحر هذين الحولين : فإن عدد وقوة خصومنا الآخرين قد بلغ من النمو مبلغا جسيما وحل محل الروسيا خصم جديد وهو امريكا الشمالية المملوءة سبابا وقوة ذات المواد الاقتصادية العظيمة .

ولقداعتقدت فى شتاء ١٩١٤ و١٩١٥ استطاعتى الاجابة بالتأكيد على السؤال الآتي : « هل يمكننا التغلب على الروسيا ؟ » ولا أزال الى اليوم أؤيد رأيي هذا . وفى الحقيقةان هذا الغرض لايدرك بمعركة كبرى وحيدة لميدان هائلة لم يسمع لهـا بمثيل وانمـا يدرك بسلسلة انتصارات من أمثال ما أحرزناه فى معترك سيدان وفى هـذا الصراع كان انحطاط قيمة

المعسكر العام الأكبر الروسى أو على الاقل قيمة قيادات الجيوش الروسية عاملا موافقا لنا كما أظهرت ذلك الحوادث التى تتابعت فى ذلك الميدان وقد قام الدليل على ذلك فى ملحمة تانينبرج ، وكما كانت وقائع لودز قد تقيم الدليل عليه بأرقام أعظم من أرقام الاسرى الذين وقعوا فى أيدينا فى ذلك المعترك ولو لم نأخذ على عاتقنا اعباء الاعمال الحربية فى بولونيا حيث صرنا مجبرين على منازلة مقادير متفوقة علينا جداً فى العدد وحيث اضطررنا الى التوقف عن متابعة انتصارنا ونحن فى منتصفه بسبب نقص القوى المحاربة

انني ما بخست الروسيين قدرهم على الاطلاق . اذ من الخطأ فى نظرى عدم اعتبار الروسيا إلا بلاد استبداد واستعباد ونقص وغباوة وغطرسة فقد توجد فى روسيا قوى أدبية قديرة مهذبة تعمل لرفعتها ولكن هذه القوى محصورة فى بعض الاوساط المعتزلة فقط . ان حب الوطن والابتكار والجلد على العمل والاسراع لم تكن مجهولة تمام الجهل لدى الجيش الروسى والا فلو كان الامر على عكس ذلك لما استطاعت هذه الكتل الهائلة أن تتحرك من مكان الى آخر ولما استطاعت البلاد والجنود أن ترضى عن أمثال تلك المجازر البشرية ؟ ان الروسى فى عامى ١٩١٤ و١٩١٥ ليس ذلك الروسى الذى كان على عهد زورندورف والذى كان يسلم نفسه للذبح من غير مقاومة كما يفعل البهيم ، ولكن الذى ينقص مجموع الشعب الروسى انما هو حصوله على تلك المزايا الانسانية والعقلية المنتشرة لدينا بوجه عام سواء ألدى كافة الشعب أو سائر الجيش .

ان المعارك التى نازلنا فيها جيوش القيصر أكسبت ضباطنا وعساكرنا الشعور بتفوقهم الذى لا يحد على هؤلاء الخصوم . وهذا الشعور الذى يشترك فيه كهولنا اللاندستورميون وجنودنا الشبان يوضح أسباب استطاعتنا

أن نقذف فى المعترك الشرقى وحدات لا تسمح لها قيمتها الحربية الضعيفة باستخدامها فى ميدان الجبهة الغربية الا فى حالات مخصوصة . وهـذه الاستطاعة كانت لنا بمنزلة ميزة عظيمة لاننا كنا فى انحطاط عددى هائل عن أعدائنا ! وفى الحقيقة اننا لا نستطيع أن نستخدم هذه الوحدات الا الى حد معين بسبب ما يقتضيه الميدان الشرقى من المجهودات العظيمة التى تتطلب جنودا قدرين على صلابة المقاومة وسرعة التنقلات العسكرية فالسواد الاعظم من القوى يجب أن يكون دائما مؤلفا من فرق ذات مقدرة عظيمة على الهجوم فاذا لم يكن من المستطاع الحصول على الفرق اللازمة للاعمال الحربية الحاسمة بانشاء وحدات جديدة كان من الواجب فى رأيى الحصول عليها بانتزاعها من الجبهة الغربية ويجب لاجل هذا العمل اخلاء قسم من البقاع المحتلة .

وليست هذه الاعتبارات نتيجة خطة وضعت بعد تجربة ولا بعد انتقاد صائب . وقد اعترض على ما ذكرته بان الروسيا تستطيع دائما أن تسحب جنودها فى حالة الاقتضاء الى داخل ما يطلقون عليه لقب الامتداد الذى لا نهاية له من هذه الامبراطورية العظيمة فتأخذ قوانا فى الانحطاط شيئاً فشيئا مدة المطاردة حتى نقف عن متابعة الهجوم . واعتقادي هو ان الذين يذهبون الى هذا الرأى واقعون تحت تأثير عظيم جداً من ذكريات سنة ١٨١٢ ولم يحسبوا أدنى حساب للتغير العظيم الذي طرأ على شؤون الامبراطورية الروسية من الوجهتين السياسية والاقتصادية منذ ذلك الحين وكذلك لم يفكروا بوجه خاص فى انتشار السكك الحديديه . فنابوليون لم يتغلغل اذ ذاك الا فى جانب يعد ضيقاً بالنسبة للبقاع الروسية المترامية الاطراف . وكان ذلك الجانب اذ ذاك قليل السكان يكاد يكون على الفطرة

من الوجهة الاقتصادية وفى لجة النعاس من وجهة السياسة الداخلية .
فما أعظم الفرق ما بين هجوم اليوم وهجوم الامس مع المستنبطات والوسائل الحديثة وشتان بين ما يلاقيه هجوم اليوم داخل تلك البلاد و بين ما كان يلاقيه هجوم الامس فيها

وهذا التباين فى الآراء هو الذى تكون منه أخيراً أساس الامة التى حدثت اذ ذاك ما بين المعسكر العام الاكبر الالمانى وأركان حربى . ولقد تداولت الالسنة قصصاً شتى فى صدد هـذا الاختلاف الذى لم ينته الى أى حادث مكدر على الرغم من الاهتمام العظيم الذي وجهته الى هذه المسألة. واني أدع الى العلماء الناقدين العناية باصدار حكم عادل فى هذا الموضوع ، ولكنى مقتنع بانهم لن يتوصلوا الى حل يرضى الجميع . وعلى كل حال فانى لن أعرف هذا الحل لاني لن أكون حينئذ من أهل هذا العالم .

وقائع الجبهة الشرقية واعمالها

لاأستطيع الا ان ألم بالحوادث الواقعة فى خلال ١٩١٥ بالجبهة الشرقية. لم تحدث الوقائع الحربيــة فى القسم الذى نشغله الا على أثر الاوامر التى أصدرناها اذ احتدم الصدام بشدة متناهية . ولم تخمد نيران هـذا القتال خموداً تاما فى يوم ما . ومع ذلك فلم يبلغ القتال الى مثل درجـة الانسعار القصوى التى حدثت فى جبال الكاربات التى أستدعيت اليها الجيوش الامبراطورية الملكية لحماية المجر من الغارة الروسـية . ولقد أرسل أيضا رئيس أركان حربى للاقامة مدة من الزمن فى الجبهة النمسوية عند ظهور الخطر . والاسباب التى دعت الى اصدار هذا القرار لم تكن معلومة لدي. فبحثت عنها فى الدوائر المختصة وطلبت من صاحب الجلالة أن يفيدنى عن

اسباب هذا القرار فتكرم على باجابة سؤلى وعاد القائد لودندورف بعد قليل من الزمن بعد أن أجرى عدة تجارب هامة وبعد أن درس حالة الوحدات النمسوية المجرية درسا محكما .

ان فكرة العزم على القيام بعمل حاسم فى الجبهة الشرقية مما يوجب الارتياح بنوع خاص لدى المعسكر العام الاكبر النمسوى . اذ كانت هذه الفكرة مهمة لا لاسباب عسكرية فقط بل لبواعث سياسية أيضا . فلم يعد يخفى عليها توالى الانحطاط فى قيمة قواها المقاتلة . فانه من الواضح أن الحرب كلما طال أمدها ازداد ضعف قيمة الجيش النمسوى أكثر من ازدياد الضعف الحادث فى جيش الخصوم . ويجب أن يضاف الى ما تقدم ما يقلق الحكومة النمسوية عند افتكارها أن سقوط برزيميسل المتوقع حدوثه قريبا يزيد فى خطورة الحالة لا من جهة جيوشها فقط بل من الوجهة الداخلية أيضا لما يحدثه سقوط هذا الموقع الحصين من التأثير الذى بدأت علائمه تظهر بقلقلة بناء الحكومة وتلاشى الامل فى الحصول على نتيجة محمودة للحرب . ومن جهة أخرى فقد بدأت النمسا تشعر بالخطر الذى يهددها من الخلف أى من جانب ايطاليا . فلا يغير مركز هذه الدولة من الحالة السيئة التى هو فيها الا هجوم قوى مصحوب بالظفر فى الجبهة الشرقية .

وقد استجرنى درس هذه الحالة الى أن أكون على رأى القائد فون كونراد حينما أقترح على المعسكر العام الاكبر الألماني القيام بتنفيذ الاعمال الحربية الفاصلة فى الميدان الشرقى . الا ان معسكرنا العام الاكبر راى انه لا يستطيع أن يقدم لى القوى التى أحسبها لازمة للوصول الى هذا العمل الحاسم . وهذا هو السبب فى أن أحد مشروعات الهجمات الكبرى المحتوية عليها الخطة

التى عرضتها أمكن تنفيذها فى منطقة عمل قيادتى وهى التى حدثت فى بروسيا الشرقية .

وقد وصلت الينا فى مفتتح العام أربعة فيالق من الجبهة الغربية ومن الداخل بطريق السكة الحديدية. فنزلت فى بروسيا الشرقية واستخدم بعضها فى تقوية الجيش الثامن والبعض الآخر في تكوين الجيش العاشر المسندة رئاسته الى اللواء فون آيخهورن . وبعد الاحتشاد تقدم هذان الجيشان الى الامام ليكونا جناحينا فى مركزنا الكائن على خط لوتزين كومبينى الذى كان ضعيفا. وكانت خطتنا ترمي الى تطويق الجيش العاشر الروسي الذى يقوده القائد سيفيرس بمجموعتين قويتين على شكل جناحين تطبقان عليه من كل النواحى بطريقة تجعله محصوراً بينهما ويتمكنان حتى من ظهره فى الارض الروسية ولا يتركان أثر حتى لبقاياه الاخيرة . ومن ابتداء ٨ يناير أخذنا ونحن لا نزال فى معسكرنا العام فى بوزين نوضح لقواد جيوشنا الفكرة الاولى من قواعد حركتنا الآتية فى الامر الآتى :

« أريد ان اطوق جناح العدو الشمالى بالجيش العاشر الذى يسير جناحه الايسر فى خط تيلسيت — فيلكو فيشكى ، واقتلاع العدو من الجبهة بفرقة كونيجسبيرج اللاندويهرية وبالجناح الايسر من الجيش الثامن ويجعل الجناح الايمن من الجيش الثامن يهاجم خط اريس — جوهانيسبورج ويهجم كذلك على الجهة الجنوبية . »

وقد أرسل امر الهجوم الاساسى فى ٥ فبراير من اينسيتر بورج حيث ذهبنا اليها لادارة المعركة . وتضمن هذا الامر الشروع ابتداء من ٧ فبراير فى حركة كتطليق الجناحين وأشار اشارة خفيفة الى انتصارنا المظفر الباهر

في معركة سيدان. فاصيب الجيش العاشر الروسي في جهة اوغستوفو في النهاية بما أصيب به الجيش الفرنسوي في سيدان . إذ تمت في ١٢ فبراير حركة احداقنا الواسعة بهذا الجيش وانقضضنا عليه فخرجنا من المعركة بأكثر من مئة ألف أسير أرسلوا الي المانيا . وكانت قتلى الروسيين في هذا المعترك أعظم من عدد الاسرى بكثير جداً .

وقد اطلق على مجموع هذه الملاحم بامر جلالة الامبراطور اسم «معركة الشتاء المازورية» . ولقد يراد مني وصف هـذا المعترك . فلست أدري ماذا عساني قاصاً من جديد؟ ان اسمه يذهب بالفكر الى الزمهرير الثلجي والى جمود الموت . ان الانسان الذي يكون قد شاهد المعترك بعد ان ينعم النظر في دراسة حوادثه يتساءل في نفسه اذا كان لا يجب أن يتمثل ازاء الافكار هذا السؤال وهو : هل هم في الحقيقة رجال من الفصيلة البشرية اولئك ألذين قاموا بتلك الاعمال . أوان كل ذلك المعترك لم يكن سوى قصة تسبح بالخيلة في لجج الاوهام أو أشباح تتراءى للفكر في آفاق الاحلام ؟ أليست هذه المسافات الشاسعة التي قطعها الجنود سيراً على الاقدام تحت اذيال الظلام في ليالي الشتاء الطويلة القارس بردها ، وهـذه النزل الثلجية الهابطة في جوف الجليد ، وهذه الخاتمة البالغة منتهى الهول التي رزىء بها العـدو في اغوستوفو ، أليست هذه الاشـياء كلها هي ثمرات القرائح الانسانية المتجاوزة حد التهييج فقط ؟

على الرغم من الظفر الفني العظيم الذي تتوج به هذا المعترك الشتوي فاننا لم نجن منه أثمار الفوائد الحربية التي كنا نتوقعها نتيجته . وقد استطعنا ان نسحق جيشا روسـيا بأكمله تقريباً ، ولـكن قوات جديدة من الاعداء آتية من جهات اخرى لم ينتزع منها من قبل شيء حلت مكان

الجيش المسحوق فى أقرب وقت . وعلى هـذه الوتيرة لم يكن فى وسعنا الوصول فى الجبهة الشرقية الى أية نتيجة نهائية بالوسائل التى بين ايدينا فى هذا الوقت . ان تفوق الروسيا فى العدد متفوقاً كل حد وغاية .

وأجابت الروسـيا على معتركنا الشتوي بقيامها بحركة هجوم التفاف حول جزء جبهتنا الأمامي الكائن على حـدود روسيا القديمة . فأرسل علينا رئيس القيادة الروسية كتلاً قوية ذات كثافة هائلة ، كل واحـدة منها أعظم حجماً من مجموع كل قوانا المحشودة فى هذه الجبهة . ولكن قوة الارادة الالمانية تلفت أيضا هذا العبء الباهظ . وأخذت أنهار من الدماء الروسية تجرى الى مستهل الربيع فى الوقائع الهائلة الناشبة فى شمال الناريف وفى غرب النيمن ، وبحمد الله كانت على الارض الروسـية ! ما أعظم الجيوش التى لدى القيصر والتى لاتؤثر فيها كل هـذه المجازر الهائلة ! على ان القوى التى ذابت أمام خطوطنا ظهر تأثيرها لدى القيادة الروسـية فيما بعد حينما ابتدأ الهجوم النمسوي الالمـاني العظيم هنالك على بعد فى الجنوب فزعزع كل الجبهة الروسية .

لم يكن القتال مقصوراً على الملاحم الدائرة فى بقاع الحدود الروسية فى هـذه الاثناء بل كان شاملا أيضاً ساحة جبال الكربات . فهنالك حاول الروسـيون ان يقتحموا الحـدود المجرية من غير ان ينتظروا نهاية الشتاء وكيفما كانهم هذا الاقتحام من الثمن . فقد كانوا يرون وانهم لعلى صواب فى رأيهم ان اندفاع اللجة الروسية فى بلاد المجر يضع حداً فاصلا للحرب ، لان الامبراطورية الدانوبية بعد هـذه الهزيمة لاتستطيع ان تنهض أبداً . وهل يمكن الارتياب فى ان أول قنبلة تنطلق من مدفع روسي قاصفة فى

السهل المجرى تجد صداها متردداً فى جبال ايطاليا العليا وفى جبال الألب الترانسيلفانية . ان الجراندوق الروسي يعرف حق المعرفة الغرض السامى الذى يسعى لادراكه مطالبة الجيوش القيصرية ببذل هذه الضحايا الهائلة فى ميادين منطقة الكربات الجبلية الشاقة . فالخطر المحدق بالحالة الحربية فى الكربات وما ينجم من تأثيره فى الموقف السياسي كان يحتم الحل السريع لهذه المشكلة . فتوفق المعسكر العام الاكبر الالماني الى هذا الحل وشوان اخترق فى الأيام الأول من شهر مايو الجبهة الروسية فى غاليسيا من الشمال وهاجم من الجنب ومن الخلف جبهة العدو فى المعترك المواجهة للحد المجرى .

ولم تشترك الجنود التي تحت قيادتي فى بادىء الأمر الا فى جانب غير مباشر فى الاعمال الحربية الكبرى التي ابتدأت بالقرب من جورليس . وكانت مهمتنا فى برنامج هذا المشروع الهائل فى مبدئها انتزاع قوى عظيمة من الاعداء من أماكنها . ولاجل هذا الغرض قامت جنودنا مبدئياً بهجمات فى المنعطفات الكبرى من الفيستول على مقربة من فارسوفيا وفى تخم بروسيا الشرقية على اتجاه كوفنو ، ثم فتحنا ميدان نزال من الطراز الاعظم اذ اقتحم فوارسنا ليتوانيا وكورلانده وابتدأت عملية هذا الاقتحام يوم ٢٧ ابريل . وهذه الهجمة التي باشرتها ثلاث فرق من الفرسان تعززها ثلاث فرق من المشاة أصابت جبهة قتال العدو فى نقطة حساسة . فأدرك الروسيون من أول وهلة ان تقدم جنودنا فى هذا الاتجاه يمكن ان يؤدى الى تهديد السكك الحديدية ذات المنزلة العظمى التى تصل ما بين جيوشهم وقلب وطنهم تهديداً جسيماً . فألقوا بقوات عظيمة نحو الفرجة التى ثلمناها فى جبهتهم . فلبثت الوقائع ناشبة على الارض

الليتوانية الى الصيف . وقد اضطررنا الى استقدام قوات جديدة الى هذه البقعة لنحافظ على الارض التي افتتحناها ولنستمر على الضغط الذى أصبنا به العدو فى هـذه الانحاء التي لم تكن الحرب قد مستها الى هـذا الحين . وبهذه الطريقة بدأ تكوين الجيش الجديد الذى أطلق عليه اسم «جيش النيمن» شيئا فشيئا ، وهذه النسبة ترجع الى أهم نهر فى هذه الناحية .

ليس لدي مكان متسع بين دفتي هذا الكتاب لبسط تفاصيل هـذه الحملة التي كان مبدأها فى ٢ مايو فى غاليسيا الشمالية وأخـذت تستغرق جبهتنا شيئا فشيئا حتى انتهت فى الخريف الى شرق فيلنا . وكما ان قطعة الجليد المرتمية من قمة الجبل تتكون من عناصر بسيطة فى الظاهر وتستجر فى طريقها المكتسح على المتوالى عناصر دائماً متجددة كذلك هـذه الحملة ابتدأت بهجمة محدودة ثم اتسعت دائرتها شيئا فشيئا حتى وصلت الى حد من الاتساع لم يكن معلوما من قبل ولم ير له مثيل فيما بعد . ولقد اجتذبنا الى الاشتراك فيها مباشرة عند ما تكلل بالنجاح مشروع احداث ثغرة فى جهة لمبرج . فقامت الجيوش الالمـانية اذ ذاك بحركة استدارة فى جبهاتها لتتصـل الى ما بين البوج والفيستول فى اتجاه الشمال . ليتصور المرء منظر الموقف كما يلى : ان النصف الجنوبي من الجبهة الروسية مشطورة وهى تكاد تـكون مزعزعة الاركان ، وأما النصف الشمالى الذى لم تتغير وجهاته الغربية والشمالية الغربية فقد جعل وجهته نحو الجنوب ما بين الفيستول وبرك بريبت فهى اذن جناح جديد دفاعي قوى . ولقـد كانت تحل بمجموع الجيش الروسي نـكبة كبرى لو توصل جنودنا الى احداث ثغرة جديدة بانحدارهم من الشمال ووصولهم الى مؤخرة هذا الجيش .

لقد تمثلت لعقولنا من جديد الحركة الحربية التي أدت بنا الى معركة

الشتاء المازوريه ، ولكنها ربما أخذت من الاتساع فى هذه المرة أعظم من تلك ويجب أن ينطلق هجومنا فى هذه الدفعة ذاهباً من بروسيا الشرقية فى أوجز مسافة وفى الاتجاه الذى يؤدى الى أعظم النتائج أى فى اتجاه اوسوفييتز وجرودنو . ولكن منطقة المستنقعات البوبرية تحول فى هذا الفصل أيضاً دون استمرارنا في الزحف الى الامام ، وهذا شيء عرفناه لان مدة الامطار من فصل الشتاء الماضي علمتنا اياه . فلم يبق علينا الا أن نتخير بين أحد أمرين : إما أن نهاجم من جهة هذه المنطقة الشرقية وأما من جهتها الغربية . ولكى نتمكن من ضرب خط دفاع العدو فى أعمق أغواره وأريد أن أقول فى الجهة التى يوجد فيها قلب الجيش الروسى يجب جعل اتجاه الهجوم للجهة المتاخمة تماماً جرودنو من الشرق . لقد عرضنا هذه الخطة ودافعنا عنها . فلم ينكر المعسكر العام الأكبر ما فى هذا الهجوم من المزايا ولكنه استصوب مباشرة الهجوم من الجهة الغربية لانها أقصر مسافة واعتقد اننا نستطيع الحصول فى هذه الناحية أيضاً على نتائج جليلة . فهو اذن يأمرنا بالهجوم عن طريق الناريف الأسفل . فرأيت من الواجب علي العدول موقتا لاجل المصلحة العامة عن مناهضتي هذا المشروع منتظراً نتيجة هذا الهجوم ومآل هذه الاعمال الحربية . ومع ذلك فان القائد لودندورف بقى مصراً فى نفسه على التمسك بخطتنا الاولى ، على ان اختلافنا فى وجهة النظر لم يكن لها أقل تأثير على آرائنا أو على أعمالنا التالية أو على القوة التى نفذنا بها فى منتصف يوليه قرار المعسكر العام الاكبر المسؤول وحده عن مجرى الاعمال الحربية العام . وتقدم جيش جاللييتز من جانبي برزاسنيسكر متنحيا صوب الناريف . وذهبت بنفسي الى ميدان القتال لمباشرة هذا الهجوم لا بالتداخل فى الشؤون الفنية لهذه الاعمال الحربية

التى أعرف كيف ادبرها بيـد استاذ حاذق ولكن لمجرد علمى المؤكد فما يتوقعه المعسكر العـام الاكبر من الاهمية الحاسمة المترتبة على النجاح فى الثغرة التى أمر بفتحها فى جبهة العدو . أردت ان اكون فى مكان الوقعة لأتمكن عند الاقتضاء من التداخل فى الحال اذا احتاج قائد الجيش لاجل اتمام مهمته الشاقة الى وسائل اخرى اضافية تستدعى اصدار اوامر من قبلي . واقمت فى الجيش يومين استطعت ان احضر اثناءهما الهجوم على برزايسنيسكر التى تبادلتها الايدى عدة مرار وكذلك حضرت الوقعة التى نشبت للاستيلاء على البقعة الكائنة فى جنوب هـذه المدينة . ووصـل جالليفتز الى الناريف فى ١٧ يوليه . وتحت ضغط الهجوم النمسوى الالمانى المنبعث من سائر نقط خطوطه اضطر الروسيون الى التراجع شيئاً فشيئا على سائر خطوطهم آخـذين فى التخلص بتؤدة من حركة التطويق التى تهددهم . فتحولت مطاردتنا اياهم الى مصـارعة بين الجبهتين حالت دون تمتعنا باجتناء ثمرات هجماتنا الدامية المتوالية بغير انقطاع . فعدنا على اثر ذلك الى فكرتنا الأولى واردنا بالنظـر للشكل الجديد الذى آلت اليه الاعمال الحربية ان نزحف على فيلنا من طريق كوفنو لكى نلتقى الجماهير الروسية الوسطى فى برك بريبت ونقطع عليها سبل اتصالها بقلب بلادها . ولكن خطة المعسكر العام الاكبر تقتضى ان نوالى مطاردة العـدو مباشرة وهو عمل يستنفد مجهود الهازم اكثر مما يستنفد مجهود المهزوم .

فى هذا الوقت نفسه تم الاستيلاء على نوفو جورجييفسك . وهـذا الموقع المحصن على الرغم من تنظيمه على راس القنطرة الحربية لم يعرقل البتة الى ذلك الحين حركاتنا ، واما الآن فان استيلاءنا عليه جعل له منزلة هامة لنا لانه يسد الخط الحديدى الممتد من مالفا الى فارسوفيا . وقبل

سقوط هذا الحصن فى يوم ١٨ اغسطس استقبلت امبراطورى امام الحصن ودخلت معه المدينة بعد ذلك . وكانت لا تزال النيران مشتعلة فى الثكنات والمباني العسكرية الاخرى التى احرقها الروسيون . وكانت جموع كبيرة من الاسرى مجتمعة حول هذه المبانى . ومن المدهش ان الروسيين قبل تسليمهم ذبحوا كل خيولهم لانهم يعلمون ما لهذه الحيوانات من القيمة الفائقة الحد فى أعمالنا الحربية على الجبهة الشرقية . ان خصمنا يستعمل دائما وسائل متطرفة ضدنا ولا سيما فيما يتعلق بتدمير كل الادوات والمواد الغذائية التى من الوجهة الحربية يمكن أن يكون لها ولو نفع طفيف لدى أعدائهم المتغلبين عليهم .

ولكى نحصل على الاقل على حرية عملنا فى الزحف فيما بعد على فيلنا جعلنا وجهة جيش النيمن التابع لنا من منتصف يوليه ياخذ سمت الشرق . وفى منتصف اغسطس سقطت كوفنو تحت ضربات الجيش العاشر . فاصبحت طريق فيلنا مفتوحة ولكننا لم تكن لدينا القوات الكافية لتحقيق فكرتنا الحربية العظيمة . ولبثت قوانا مرتبطة احتياطيا بمطاردة تقوم بها جبهتنا . ومرت بضعة اسابيع قبل وصول النجدات المرسلة الينا . غير ان الروسيين استمروا خلال هذه الفترات يتراجعون نحو الشرق ، ولم يحجموا عن التخلي عن كل شيء حتى فارسوفيا فى سبيل التمكن من انقاذ السواد الاكبر من قواهم .

لم يتهيأ لنا الزحف على فيلنا الا فى ٩ سبتمبر . وربما استطعنا أن نحصل على شيء من النتائج الكبرى فى هذا الاتجاه . لقد سقط بين أيدينا مئات الالوف من اسارى الروسيين . اذا كانت قد اجتمعت الآمال العظيمة مع الضجر والقلق فى قلب رجل ما فى يوم واحد فيلا شك انه قلبي فى

ذلك اليوم . ايكون وصولنا بعد افلات الفرصة ؟ وهلا نزال أقوياء ؟ ومع ذلك فما الذي يهمنا ! فلنواصل زحفنا على فيلنا ثم نتجه بعدها الى الجنوب! وثمت تضع أفواج فرسانتنا ايديها على شريان التموين الروسى . فلو قبضنا عليه لتم هلاك السواد الاكبر من قوى الاعداء . فأدرك خصمنا الخطر وبذل كل مستطاعه لصرفه عنه . فحدث صراع هائل فى اجوار فيلنا . وكانت كل لحظة تمر على العدو يتمكن فى خلالها من انقاذ قسم عظيم من جيوشه التى اخذت جموعه تنحسر نحو الشرق . فاضطرت فرساننا الى الانثناء امام القوى المرغمة عليها . فانفتحت الطريق ثانية امام الروسيين الى عاصمة بلادهم . لقد وصلنا بعد فوات الوقت وبعد اضمحلال قوانا .

ولست واهما اذا اعتقدت ان اختلاف الآراء فى مشروع المعسكر العام الاكبر وشروعنا سيكون له شأن تاريخى . ولكن يجب فى البحث الانتقادى فى خطط المعسكر العام الاكبر عدم اغفال منظر مجموع الحرب . اما نحن فلم نكده نرى فى ذلك الوقت سرى جزء من هذا المنظر . فهل كنا نختط غير تلك الخطة ونتقدم على غير ذلك العمل لو كنا مطلعين على الحالة العامة من وجهتها السياسية والحربية ؟ هذه مسألة لا يمكن البحث فيها .

لوتزن

أريد أن أتخطى خطارة التضارب بين الآراء لاصل الى الجانب الارفه من حياتنا الحربية التى قضيناها فى عام ١٩١٥ باستعادة ذكرى لوتزن الى مخيلتى .

أن هذه المدينة اللطيفة الصغيرة الناهضة فى وسط بحيرات واجمات وقلاع متناثرة قد اتخذناها معسكراً عاماً لنا عند ما ابتدأت معركة الشتاء

المازورية . فاستقبلنا سكانها الذين تخلصوا من الخطر والترويع الروسيين استقبالا وديا مؤثراً فلهذا لا أزال أتذكر الأويقات التى قضيتها فى بعض الضياع المجاورة للمدينة التى كنت أصل اليها فى أقصر مدة كلما سمحت لى الحالة الحربية بساعات أخلد فيها الى الراحة والتروض . ولم تكن رياضة الاصطياد النبيله أقل الملاذ قيمة عندى ، فبفضل كرم أخلاق صاحب الجلالة ترامت قذائف بندقيتى فاردت طرائد متوفرة الجسم فى المصاد الملكى بجهة نيمونيين على شاطيء كوريشيس — هاف .

وحينما أخذت السكينة تنتشر بالتدريج على جبهتنا أثناء فصل الربيع لم نخل من زيارات خصنا بها زوار من كل الفئات . ولقد حدث مثل هذا فيما بعد خلال فصل الصيف : فكان بين الزائرين أمراء ألمانيون ووزراء واقتصاديون وموظفون من سائر الادارات وكلهم أقبلوا لمقابلتنا مدفوعين بالاهمية التى أحرزتها الولايات الشرقية منذ نشوب هذه الحرب مع انها قليلا ما كانت تزار من قبل . وأقبل الينا كذلك رسامون لتخليد ذكرنا القائد لودندورف وأنا بالات رسمهم وهو شرف أبينا عن طيبة خاطر ان نتقبله على الرغم من التلطف والبراعة اللذين أظهرهما هؤلاء الافاضل لنستفيد بساعات فراغنا القصيرة . ولم تتأخر البلاد المحايدة عن ايفاد ضيوف الينا . وهذه المناسبة هى التى مكنتنى من معرفة سفين هيدين الرحالة الاسيوى المشهور جداً والصديق الحميم لالمانيا وايفائه حقه من الحفاوة والاكرام .

وبين الوزراء الذين زارونا فى لوتزن أخص بالذكر المستشار فى ذلك الوقت بيتمان — هولويج والاميرال الاكبر فون تيربيتز .

وقد سنحت لى الفرصة من قبل أثناء الشتاء المتداخل فى عامى ١٩١٤

و ١٩١٥ بان اسلم فى معسكرى العام ببولونيا على المستشار . وكانت زياراته متأتيــة من مكارم أخلاقه على الاخص لا بباعث سياسى . ولا أتذكر أننى خضت معه فى موضوع سياسى فى المحادثات التى دارت بيننا حينئذ. ولكنى اعتقدت اننى أمام رجل حازم ذى ضمير قوى . وكانت أفكارنا على تمام الاتفاق فيما يختص بمقتضيات الحرب وعلى سائر النقط الجوهرية فى ذلك الحين. وكان يستخلص من كل تصريحات المستشار شعور شديد بالتبعات الكبرى الملقاة على عاتقه . والى هــذا الشــعور أعزو ما عرانى من اعتقاده فى الحالة العامة بصفتى جنديا اذ داخلنى شيء لا يستخف به من القلق ثم فيما بعد شيء من قلة الثقة .

ان التأثير الذى شعرت به فى بوزن تأيد فى لوتزن .

وذلك ان القائد البحرى العظيم الفون تيربتيز الذى كان فى ذلك العهد مرشحا فى الغالب لان يكون الخلف المقبل لبيتمان هولويج وهو ذو شخصية من طراز آخر أفضى الى فى أثناء رياضــة خلوية طويلة بكل الآلام التى يعانيها قلبه المفعم بالوطنيه الملتهبة ولا سيما بصفته قلب بحار . فهو يجد من الغضاضة على نفسه أن يبصر السلاح الحربى الماضى الذى صرف فى صنعه أجمل أعوام حياته جامداً فى الثغور الالمانية . حقيقة انه كان من الصعب جــداً على أسطولنا ان يتخذ خطة الهجوم ولــكن هذا الموقف لا يمكن أن يتحسن مع مرور الوقت . ومن رأيى أن الشعور المتناهى فى شدته التى تأثرت به الثغور البريطانيــة من اعتقادها بامكان انزال جنود ألمانيــة على السواحل الانجليزية كان مبرراً للقيام بحركة عظيمة من جانب أسطولنا بل أقول انه يبرر تقــديم ضحايا عظيمة . فحمــل القيادة الانجليزية على ابقاء مقادير جســيمة من جنودها محافظة على شواطئها من الاغارة المنتظــرة

والتوصل بهذه الطريقة الى ايجاد تخفيف عظيم عن كواهل جيوشنا كان في رأيي نتيجة لما يمكن انتظاره من حمل أسطولنا على اتخاذ خطة الهجوم. لقد قيل اذ ذاك ان سياستنا أرادت أن تحتفظ ما استطاعت بان يكون لها أسطول سليم اذا حدث شروع في التوسط لاجل عقد الصلح . ان مثل هذا التقدير فاسد برمته لان آلة الكفاح التي لم تعرف مزية استعمالها أثناء الحرب هي بالمثل عامل لا شأن له أثناء مخابرات الصلح .

وفي ربيع عام ١٩١٦ تحققت أمنية القائد البحري الكبير . فاظهرت معركة سكاجيراك بابهر ايضاح مبلغ كفاءة اسطولنا .

ولقد قال لي الفون تربيتز أيضا ما يعتقده في مسألة حرب الغواصات. فكان من رأيه اننا استعملنا هذا السلاح آلة تهديد في غير الوقت المناسب واننا فيما بعد حينما توجسنا خيفة من موقف رئيس الولايات المتحدة عمدنا كذلك في غير الوقت المناسب الى القاء هذا السلاح الذي أرهفناه في وسط الصيحات الحربية العالية التي صححناها . والتصريحات التي افضي الى بها اذ ذاك هذا القائد البحري الكبير لم يكن لها أقل تأثير في الموقف الذي اتخذته فيما بعد في هذه المسألة. لقد مر عام ونصف عام على هذا الحديث قبل ان يطلب رأيي القطعي في هذا الصدد . وفي خلال هذه الفترة الزمانية كان مركزنا الحربي من جهة قد طرأ عليه تغير تام ضد مصلحتنا ومن جهة اخرى فان الاعمال التي كان ينتظر قيام اسطولنا بها من جهة غواصاته قد أربت على الضعف كثيراً .

كوفنو

انتقل معسكرنا العام في اكتوبر ١٩١٥ الى كوفنو في بلاد العدو المحتله.

واضطر رئيس اركان حربى ان لا يقتصر على تأدية عمله المعتاد فقط بل ان يشتغل كذلك بسائر المسائل المختصة بادارة البلاد المحتلة واعادة تنظيمها واستثمارها لاجل تموين جنودنا وشعبنا وسكان هذه البقاع . ان ترتيب هذه المسائل كاف لان يستغرق بمفرد قدرة اى انسان على العمل. الا ان القائد لودندورف اعتبر هذه الاعمال الجديدة كمهمة اضافية على عمله المعتاد ، فاضطلع بها بقوة ارادته على العمل التى لا تهن والتى هي ميزة خاصة به .

وقد عنت لى الفرصة التى اجوب فى خلالها غابة بجالوفجيس فى فصل الشتاء الهادى المتداخل بين عامى ١٩١٥ و ١٩١٦ . الا ان طرائد الصيد كانت لسوء الحظ قد اصابها عنت الحرب. فان الجنود العابرين والفلاحين المعتدين على المصائد قد افنوا الشطر الاعظم منها . وعلى كل حال فقد استطعت خلال رياضة صيدية بديعة فى يناير من عام ١٩١٦ استغرقت اربعة ايام فى المركبات وفى الزاحفات ان اتصيد خمس طرائد . وكانت ادارة هذه البقعة الطافلة بالاجمات موكولة الى عهدة مفتش الغابات البفارية ايشيريخ المجرب الخبير فعرف بمهارته الفائقة ان يستفيد من موارد هذه الغابة الخشبية الفياضة بدون ان يصيبها باقل ضرر .

وفى خلال هذا الشتاء نفسه تفقدت بالمثل غابة اوغوستوفو . فأعدت لى حفلة صيد ذئاب انتهت لسوء الحظ على غير جدوى لان الذئاب آثرت ان تلجأ الى الاماكن التى لا يصل اليها مرمى بندقيتى . ولم أر من آثار معركة شهر فبراير الماضى الاخنادق . وفيما عدا ذلك فقد ازيلت من الغابة أو على الاقل من القسم الذى وجدت به كل معالم القتال .

واحتفلت فى ابريل ١٩١٦ فى كوفنو بمرور خمسين عاما على التحاقى

بالخدمة فقد عن لى ان أحمد الله واشكر امبراطورى وملكى — الذى منحنى بهذه المناسبة تذكاراً لطيفاً — اثناء تفكيرى فى نصف القرن الذى استطعت فى اثنائه ان أخدم مليكى ووطنى سواءا فى وقت الحرب أو فى زمن السلم .

فى غضون صيف ١٨١٢ عبرت فصائل عديدة من الجيش الفرنسوي نهر النييمن عند كوفنو وهى متجهة نحو الشرق . فحركت ذكرى هذا الماضى والخاتمة التى انتهت بها تلك الحملة الجريئة فى نفوس أعدائنا الامل فى ان يروا جنودنا مصابين هم أيضا بالجوع والبرد والامراض فى وسط هذه البقاع الواسعة الخاذلة بالاجمات والمستنقعات كما أصيبت تلك الجيوش المجيدة التى يقودها ذلك الكورسكى العظيم . وربما كان أعداؤنا يتوقعون لنا هذه المجاعة لتهدئة جماهير عوامهم الذين لايستطيعون تحكيم عقولهم فى مثل هذا الصدد اكثر من اعتقادهم هم أنفسهم بامكان حدوثها . وعلى كل حال فان متاعب مسألة تموين جنودنا فى الشتاء المتداخل بين عامى ١٩١٥ و ١٩١٦ لم تكن من البساطة الى حد القائها فى زاوية النسيان . وهل لم نكن نعلم فى أية بقاع مقفرة بالنسبة لغيرها على الرغم من اتساع نطاق المدنية وفى اية بقاع مطروقة غالبا بالامراض المعدية نحن مقدمون على قضاء فصل الشتاء ؟

سير القتال من ابتداء ١٩١٦ الى نهاية أغسطس

الهجوم الروسى على الجبهة الشرقية الالمانية

لم تأته سنة ١٩١٥ على اركان حربنا باصوات الظفر المتمنى العذبة المطربة . فان النتيجة النهائية للاعمال الحربيـة والملاحم التى حدثت فى

العام المنقضي لم تنلنا جميع مقاصدنا . لقد أفلت الدب الروسي من الشباك التي كنا نريد اقتناصه بهـا ، وإذا كانت دماؤه قد سالت من أكثر من جرح واحد فان الطعنات التي اصابته لم تكن قاتلة . لقد استذأننا فى الانصراف وهو ينهال لمينا بلكمات وحشية . فهل أراد افهامنا بهذا العمل أنه لا يزال حاصـلا على قوة كافية للاستمرار على ازعاج حياتنا ؟ لقـد مثلت ازاء عقولنـا اذ ذاك الفكرة الآتية وهي أن الخسائر التي دنى بهـا الروسيون فى الرجال والادوات وسائر الاشياء المادية بلغت من الجسامة مبلغاً يجعلنـا نظل مطمئنين مدة طويلة على جبهتنا . وبسبب التجارب التي اكتسبناها من الحوادث الماضية لم تلق هـذا الرأي الا بعدم الثقة وقد اظهرت الحوادث المتعاقبة فيما بعد ان الارتياب الذى ابديناه كان فى محله .

أننا لم نستطيع أن نقضى فصل الشتاء نفسه فى هدوء مناسب . لقد رأينا الروسي يفكر فى كل شيء بدلا من اخلاده الى السكون . فعلى امتداد كل الجبهة الالمانية بل وأبعد منها أيضاً نحو الجنوب كانت الحركة العظيمة مستولية بغير انقطاع على خطوط الاعداء بل على مؤخراتهم أيضاً . ولقد استحال علينـا في بادىء الامر أن نرفع ولو طرفاً يسيراً من النقاب عن وجه النوايا التي تنوى القيام بها القيادة الروسية . ومن رأيي ان جهات سمورجوني ودونا بورج رريغا كانت أشد خطراً علينا من سواها لان الخطوط الحديدية الروسـية ذات المواصلات العظيمة تنتهى الى هـذه الانحاء . ولـكن لم تبد علامات من مدة طويلة تدل على رغبة العدو فى القيام بهجمات من هذه النقط الثلاث .

ان حركات العدو في مؤخراته كانت شـديدة الوضوح وظلت دائماً

كذلك . فقد بدأت اعمال التمرد والعصيان من جراء الطريقة القاسية التي عوملت بها الفرق المسحوبة من الجبهة لان الجنود كانت تقودهم قلوب قدت من الحديد .

وفي مدة الهدوء حدثت مقارنة بين القوى المتقابلة في الميدان على اختلاف أنواعها فكانت النتيجة في منتهى السوء بالنسبة لنا . اذ كانت كل فرقة من الفرق التي على جبهتنا (وهي مؤلفة من تسعة طوابير) تقابلها فرقتان أو ثلاث فرق من الروسيين (أي من اثنين وثلاثين طابوراً الى ثمانية وأربعين طابوراً) . فلا يوجد مايدل اوضح دلالة على مقدار المجهودات التي تتطلب من جنودنا القيام بها كهذه الفروق الهائلة التي تجعل مجهودات جنودنا اضعاف مجهودات جنود الاعداء . وهذه الفروق لها بالطبع شأن عظيم لا في ساحة القتال فقط بل ايضاً في الاعمال التي يجب ان يؤديها جنودنا يومياً . وما اعظم ما اتسعت دائرة هذه الاعمال على اثر الاتساع الهائل الذي شغلته جبهاتنا في ميادين الصدام ! فانشاء المعاقل والطرق وتشييد المتكنات والمخازن الخشبية والاعمال التي لا تحصى التي يستدعيها تموين الجنود بالمواد الغذائية وامدادهم بالمواد الحربية وادوات البناء الى غير ذلك ، كل هذه الاعمال تتطلب مجهودات عديدة هائلة حتى ان لفظة « راحة » لم يكن لها اى مدلول في اغلب الاحيان لدى ضباطنا وعساكرنا . ومع ذلك فان حالتي جنودنا النفسية والصحية كانتا على غاية ما يرام . فاذا لم تكن الخدمة الصحية عندنا قائمة بواجباتها خير قيام لما تهيأ لنا للاسباب المتقدمة ان نواصل القتال كل هذه المدة الطويلة . وعندما يدرس مجموع المستندات درساً علمياً محكماً فان عمل القسم الطبي لدينا مدة الحرب سيظهر في شكل صحيفة مجد خاص بالعمل العقلي الالماني وسيكون

دليــلا قاطعاً على تفانيها فى القيام بعمل جليل ، وهــذا العمل يمكن استخدامه اذ ذاك على وجه الاحتمال فى فائدة الانسانية جمعاء .

ومن منتصف فبراير بدأ نشاط واضح يظهر فى جهة بحيرة ناروكز وجهة بوستافى . فتجهزات العدو للهجوم الذى ينوى القيام به فى هذين الجهتين من الجبهة بدات تستخلص بوضوح اتم على التوالى من المعلومات التى نتلقاها . ولم ارد ان اصــدق فى بادىء الامر ان الروسيين يتخيرون لمهاجمتنا امثال هذه الجهات المتنائية من اهم خطوطهم الحديدية وفضلا عن ذلك فانها جهات لا تضمن لجيوشهم الا ما كن الواسعة التى تستطيع ان ترتد فيها بمنتهى السهولة ولا تدع للقيــادة الروســية بسبب طبيعــة الارض الا قليلا من حرية العمل من الوجهة الفنية العسكرية . والحوادث التالية عرفتنى كيف يتأتى غالبا حدوث ما لم يكن متوقعا حدوثه .

فبينما الروسيون يجهزون معداتهم لم يكن احد منا يقدر حق القــدر طوفان احتشادهم الهائل . فما كان يخطر لنا على بال اننا بالسبعين طابوراً التى استطعنا أن نجمعها بالتدريج فى جهة بحيرة ناروكز سنتمكن من مقاومة كل المجموع الروسى الذى احتشد امامنا ومقــداره ثلاثمائة وسبعون طابوراً . ولكن هذه المقارنه المائلة بين اعداد الطوابير لا تبدى سوى صورة غير واضحة للحالة الحقيقة كما يدل على ذلك بيان دقيق لهذه المعركة وضعت قواعده على التصريحات المستمدة منا مباشرة ، فاولا ان مجموع عساكر كل جانب لم يشترك دفعة واحدة فى اليوم الاول من المعترك ثم ان الفرق الروسية لم تهاجم القوات الالمانية بقوة واحدة متساوية فى سائر الجبهة بل تجمعت على الاخص فى شكل مجموعتى هجوم قويتين امام جناحي فيلق الفون هوتيير . فاما المجموعة الشمالية فتتألف من سبع فرق من المشاة

وفرقتين من الفرسان ممتدة ما بين موسهايكى وفيلايني ازاء قطاع بوستافى الذى لم يكن محميا باربعة طوابير المانية ، ومجموعة الجنوب كان همها أن تخترق بثمان فرق من المشاة وقوزاق الاورال السد الكائن ما بين بحيرة ناروكز وبحيرة فيسزنيف وهو السد الذى تقوم على حراسته فرقتانا ٧٥ الاحتياطية والتاسعة من الفرسان . فتدل المقارنة على ان القوات المتقابلة فى ميدان القتال مائة وثمانية وعشرون طابورا من الروسيين ازاء تسعة عشر طابورا المانيا .

وابتدأ الهجوم الروسي يوم ١٨ مارس بعد تمهيد بالمدفعية لم تر الجبهة الشرقية له مثيلا فى الشدة من قبل ، ثم اندفعت الافواج الروسية كمد من الامواج لانهاية له هاجمة على معاقلنا المحتلة احتلالا ضعيفاً . ولقد كان من العبث ان تدفع المدفعية الروسية والمدافع الروسية الرشاشة المشاة الروسيين نحو الخطوط الالمانية ، بل من العبث ان تحصد جنود الاعداء الاحتياطية خطوطهم المتقدمة عندما تتراجع هذه او تتطلب النجاة من السنة نيراننا المهلكة . وتراكم الموتى والجرحي من الروسيين امام جهتنا في شكل ربوات حقيقية . وفى الحقيقة ان الجانب المدافع اضطر هو أيضا بالمثل الى بذل مجهودات لم يسمع بمثلها . وقد ذاب الجليد فملأ الخنادق بالماء وحول المتاريس التى كانت تستر الرماة الى وحل سائل : وبهذه الطريقة تحولت ساحة القتال بأسرها الى بركة متماوجة الامواه . وشعر الجنود المدافعون وهم مغمورون فى خنادقهم بالمياة الثلجية بتورم سيقانهم واصابتها بعطل كبير يكاد يمنعها من الحراك . ولكن هذه الاجساد لبثت محتفظة بالمقدار الكافى من قوة الحياة ومن الرغبة فى الكفاح لدفع هجمات العدو المتوالية بغير انقطاع . بل لقد كان من العبث ان يستمر العدو على تجديد

هجماته وتقديم هـذه الضحايا الجديدة : واستطعنا ان نعجب بدافعينا الابطال فى معترك بحيرة ناروكز حينما وثقنا بالظفر ابتداء من ٢٥ مارس .

وصدر بلاغ فى اول ابريل ١٩١٦ اشتركنا فى تحريره يتضمن انتهاء المعركة على الوجه الآتي :

« ان الامر الآتى الصادر بتاريخ ٤ (١٧)مارس رقم ٥٣٧ من القائد العام للجيوش الروسية الخيمة فى الجبهة الغربية يوضح أي غرض عظيم أراد ان يحصل عليه ذلك الرئيس من الهجوم الذى قام به .

« ياجنود الجبهة الغربية !

« لقـد عرقلتم مسعى العدو فى زحفه الى الامام منذ ستة أشهر حينما كنتم لا تملكون الا النذر الطفيف من البنادق والرصاص ، وبعدأن منعتم تقدمه فى قطاع مولوديتشنو حينما أراد اختراقه حلاتم فى مواقعكم الحالية .

« فجلالة القيصر والبلاد ينتظران منكم اليوم عملا جديداً من أعمال البطولة وهو أن تطردوا العدو من أراضي الامبراطورية ! فحينما تصبحون غدا على استعداد للقيام بهذه المهمة فانى مقتنع بناء على الوثوق بشجاعتكم واخلاصكم للقيصر و بحبكم الشديد لوطننا بانكم ستؤدون واجبكم للقيصر وللبلاد وتحررون اخوانكم من نير الاعداء الثقيل الذى يتألمون منه . ليؤيدنا الله فى مهمتنا المقدسة ! »

مساعد القائد العام
« الامضاء ايفيرت »

وفى الحقيقة ان كل انسان يعرف البلاد الروسية يجـد من المدهش حدوث هذا الهجوم فى فصل ينتظر فيه من يوم الى آخر ان يطرا على هذا الهجوم ما يعرقله من ذوبان الجليد . فيوجد حينئذ ما يحمل على الظن بان القيادة

الروسية باختيارها هذا الوقت لم تعمل بمحض ارادتها بل انصاعت لحكم الضرورة القاضى باسعاف حليفة في حالة الحرج والبؤس .

وفي مستهل ابريل اعلنت المصادر الروسية الرسمية ان تعطيل الحركات الحربية ناجم عن تغير طبيعة الطقس فقط : وهذا التصريح لم يحتو الا على نصف الحقيقة . والخسائر التى أصيب بها العدو مرجعها الى هزيمته أكثر مما ترجع الى ذوبان الجليد . وتبلغ هذه الخسائر ١٤٠٠٠٠ رجل . وكذلك كان بلاغ المعسكر العام الاكبر الروسى يصير أقرب الى الحقيقة لو أنه بدلا من قوله أن الهجوم الروسى العظيم أخفق في البرك قال انه غاص فى مياه البرك وبرك الدماء .

وأني لمورد هنا الجملة الآتية كخلاصة لما تقدم وهي مستمدة من رسالة خاصة وضعها ضابط ألماني عن وقائع ربيع سنة ١٩١٦ :

« لم يكد يمضي شهر على استعراض القيصر الروسى فى جبهة بوستافى فرقه المعدة للهجوم حتى أقبل المارشال هندنبورج الى الجبهة لشكر آلاياته الظافرة . لقد عطف المارشال على جهات نخيرنجا كى وكوماي وجودوفزى وسفيرانى وكوبيلنيك على بضعة كيلو مترات تكاد تكون مطار عصفور من المكان الذى تم فيه الاستعراض القيصرى ليخطب فى وفود الجنود الناسلة من سائر أنحاء الجبهة وليوزع على ذوي الجدارة أوسمة الصليب الحديدى . وقد التقى الرئيس الكبير ورامى القذائف اليدوية البسيط هنيهة وجبزة ووجه كلاهما متهلل فى وجه الآخر ويد احدهما فى يد الثانى والعيون تتناظر وقد امتلأ عينا كلاهما من الآخر ثقة . وكانت شمس الربيع الضاحكة تنير مواقع المارشال هندنبورج كما كانت تضيئها شمس الانتصار الباهر . . . »

فهذا كل ما كان نصيبي من الاشتراك في معترك بحيرة ناروكز .

الهجوم الروسي على الجبهة النمسوية الشرقية

« فردان ! » من ابتداء فبراير كثر تردد هذا الاسم على الألسنة عندنا في الجبهة الشرقيـة ! ولم يجرأ أحد على التلفظ به الا بصوت خافت، وفي الخفاء ! وكانت اللهجة التي ينطق بهـا يتخللها الشك والكمد ! ومع ذلك فان الاعتقاد في الاستيلاء على فردان لم يزل عظيما فاخذ فردان هو تثبيت دعائم مركزنا في سائر الجبهة الغربية . بل هو القضاء على خط الضغط على أهم نقطة حساسة وقابلة للانثلام في جبهتنا . أن الحصول على هـذا الحصن يتيح لنـا وسائل فنية جديدة تفتح لنا طريق الجنوب وطريق الغرب . ومن رأيي أن أهمية هـذا الموقع الحربي في المكانة التي أوجبت محاولة اقتحامه . وكان من السهل جداً وقف العمل الحربي في الوقت المنـاسب اذا أثبت أن سـقوط هذا المـكان الحصين مسـتحيل أو ان الضحايا التي يتطلبها هائلة جداً ، ثم ألم نفز مراراً عديدة منذ ابتداء الحرب في أمور كانت أدعى الى الجرأة وأبعد عن احتمال الحدوث من القيام بهجمات على مواقع محصنة ؟

ومن أواخر فبراير لم يعـد النطق باسم فردان من الامور السرية بل صارت الافواه تنطق به بصوت جهوري مشـوب بالابتهاج . وفي وقعة فردان هذه كان اسم دواومون يتلألأ كنبراس للبطولة الالمانية ، نبراس يستضاء به من الجهات القصية في الجبهة الشرقية ، اذ زاد في شجاعة أولئك الذين يتتبعون بحيرة وجزع تعاظم الحوادث الجارية حول بحيرة ناروكز . ومع ذلك فيجب الاعتراف بان مهاجمة فردان كانت تنبـه فينا شعور التألم :

لانها تدلنــا على العدول نهائيا عن السعى للبت من الوجهة العسكرية في الجبهة الشرقية .

وفي بحر الاشهر التالية صار النطق باسم فردان مقرونا بنوايا متباينة . فبدأت المعارضات تتغلب شيئاً فشيئاً ولـكن لم تحدث المجاهرة بها الا نادراً . ويمكن تلخيصها بايجاز في الاسئلة الآتية . لمــاذا الاستمرار على هجوم يتقاضى ضحايا لاحد لها ،وهى ضحايا اظهرت بنفسها عبث هذه المجازفة ؟ والم يكن من المستطاع بدلامن هذا الهجوم الجبهى الموجه ضد الشطر الشمالى من جبهة الدفاع عن فردان ، وهي جبهة مرتكزة على اعمال خالدة القيام بعمل حربي قطاعى نستخدم فيه خط جبهتنا الكائن ما بين الارجون وسان ميشيل ؛ أن المستقبل وحده هو الذى يستطيع أن يقول بعد الاستقراء العادل اذا كانت هذه الاعتراضات على أساس .

وفيما بعد انضم الى اسم فردان اسم آخر وهو اسم « ايطاليــا » الذى تداولته الألسنة لأول مرة بعد حركة بحيرة ناروكز . وكان التلفظ بهــذه اللفظة مشفوعاً بالارتياب ، بارتياب أعظم بكثير وأقوى من الريبــة التى كانت تصحب كلمة فردان ، بل كانت تلفظ بالانزعاج الفظيع العظيم لا بالارتياب فقط . أن خطة الهجوم النمسوى المجرى على ايطاليا جريئــة ومن هذه الوجهة يمكن الادعاء بان الهجوم قرن بالنجاح العسكرى ، ولكن الذي يجعلنا نعتقــد أن هذه الخطة متجاوزة حد الجرأة هى قيمة الآلة التى يصير تنفيــذ الخطة بها . فاذا ما نرامت أعظم الجنود النمسوية المجرية التى ليست النمسا والمجر هما فقط اللتان تنظران اليهم نظرات الثقة والاعجاب بهم بل تشاطرها فى هــذه النظرات المانيا في الاغارة على ايطاليا فما الذى يبقى لصد الروسيا ؟ أن هــذه الدولة لم تكن قد تضعضعت كما كان يظن

ذلك فى أواخر عام ١٩١٥ . فعلى ضفاف بحيرة ناروكز تراءى من جديد الاقدام الروسى في أقوي مظاهره مصحوباً بالخشونة والصلابة اللتين ظهرت أمامها وحدات نمسوية مجرية عديدة مختلطة اختلاطا شديداً بعناصر سلافية فى مظهر قلة المقدرة على المقاومة .

وأخذ قلقنا يزداد من يوم الى آخر على الرغم من تقارير الانتصار الواردة من ايطاليا . والحوادث التى حدثت فيما بعد فى جنوب البريبيت دلتنا على ان هذا القلق فى محله . ففى ٤ يونيه تداعت أركان الجبهة النمسوية المجرية الكائنة ما بين فولهينيا و بوكوفينيا تحت تأثير الصدمات الروسية الاولى . فبدأت أخطر أزمة حدثت على الجبهة الشرقية . وهذه الأزمة أعظم خطراً أيضاً من أزمة سنة ١٩١٤ . لانه لم يكن موجوداً فى هذه المرة فى أية جهة من الجهات جيش المانى ظافر مستعد لان يتوسط هذه المعمعة لتلافى الحالة ، اذ فى الجبهة الغربية كان الكفاح مستمراً حول فردان ، وفى السوم يهددنا هجوم جديد .

لقد امتدت أمواج هذه الازمة حتى بلغت جبهتنا ولكن من حسن الحظ لم يكن وصولها الينا على شكل هجوم روسى . بل أقتصر على اضطرارنا الى ارسال نجدات الى أشد النقط خطراً .

ولم يخفف الروسيون قواهم امام الجبهة الالمانية لانهم أحرزوا أول ظفر فى جنوب البريبيت لا بقذفهم جموعا كثيفة كعادتهم بل بقوات ضئيلة . « ان خطة بروسيلوف يجب اعتبارها كمجرد استطلاع جرىء على جبهة عظيمة وما هو بهجوم يرمى الى غرض محدود . . . ان مهمة بروسيلوف قائمة على عجم عود الصلابة المتشبعة بها خطوط الاعداء على جبهة تمتد الى نحو ٥٠٠ كيلو مترما بين البريبيت ورومانيا . ويشبه بروسيلوف فى عمله هذا

رجلا يقرع جداراً ليتبين الاماكن المشيدة منه بالصخور والاماكن الخائر بناؤها . » فهذا هو الوصف الذى نعت به أحد الاجانب المعركة التى افتتحها بروسيلوف فى أول يوم نشبت فيه . وقد قال هذا الاجنبي الحقيقة المؤكدة .

على ان الجدار النمسوى المجرى لم يكن فيه الا القليل من الصخور الصلبة ، فقد انبعج تحت طرقات مطرقة بروسيلوف وامتدت أمواج الجماهير الروسية مرتمية فى الثغرة المنبعجة . ففى هذا الوقت فقط انتزعت هذه الجموع من امام جبهتنا وانتقلت نحو الجنوب . فأين يمكن وقف سيرها ؟ لم يبق فى وسط هذه البركة سوى دعامة واحدة ناهضة . وما هذه الدعامة إلا جيش الجنوب الذى يقوده قائد بارع وهو الكونت بوتمر . وقد امتزجت فى هذا الجيش العناصر الالمانية والنمسوية والمجرية امتزاجا متيناً وتشبعت بالنظام والطاعة الباهرين .

كل القوى التى أمكن اقتطاعها من جبهتنا الشرقية الواسعة نقلت بالسكة الحديد الى الجنوب واختفت فى أفران ساحات القتال المنتشرة فى غاليسيا ولكن الحالة شاءت بالمثل فى الجبهة الغربية . فقد أخذت قوى انجليزية فرنسوية أغزر منا تندفع من جانبي السوم على خطوطنا الضعيفة وتتغلغل فى جبهتنا ! بلى لقد كنا مهددين مدة من الزمن بالانشطار التام !

ولقد استدعانا مليكى الجليل مرتين رئيس أركان حربى وأنا الى معسكره العام فى بليس لاستشارتنا فى حاله الجبهة الشرقية . ففى خلال المرة الثانية أى فى آخر يوليه صار البت فى تجديد ترتيب القيادة فى الميدان الشرقى . فباسم التعويض عن المساعدة التى أديناها للنمسا والمجر على الرغم من نشوب معتركى فردان والسوم تطالب المعسكر العام الاكبر الالمانى من هذه

الدولة ادخال أحسن نظام على قيادة الجبهة الشرقية . ولقد كان محقاً فى طلبه ! فنجم عن هذا الامر ان امتدت منطقة قيادتى الى جهة بروديا فى شرق ليمبيرج وبذلك دخلت أعداد كبيرة من الجنود النمسوية المجرية تحت امرتي .

وفى الحال زرنا قواد الجيوش الجدد الذين صاروا تحت امرتنا وقوبلنا أحسن استقبال من أعضاء القيادة النمسوية المجرية الذين اقروا بصراحة بجوانب الضعف فيهم . ولكن هذا الاعتراف لم يكن عاما ولم يصحب بحماسة تساعد على انعاش قوى الضعفاء . ومع ذلك فان هذا الجيش المختلفة عناصره كان فى اشد الحاجة لان تقوده ارادة مطلقة ومشيئة فردة وبغير ذلك فان الدماء الذكية تتدفق عبثاً فى هذه الشرايين العاطلة التى تتدفق دماؤها هى أيضا عبثاً .

ولقد دعانى اتساع نطاق قيادتى الى نقل معسكرى العام الى الجنوب واقامته فى بريست ليتوفسك . فهنالك صدر لى أمر جلالة الامبراطور فى يوم ٢٨ أغسطس بالشخوص حالا الى المعسكر الاكبر وقد قال الى رئيس المكتب العسكرى لجلالته وهو يخاطبنى بالتلفون توضيحاً لهذا الاستدعاء « ان الموقف خطير . »

فوضعت السماعة وانا افكر فى فردان وايطاليا وبروسيلوف والجبهة النمسوية وفى النبأ الواصل الينا حديثاً وهو : « اشهار رومانيا الحرب علينا . » يجب أن تكون الاعصاب قوية .

القسم الثالث

من تعييني رئيساً لأركان حرب الجيوش

المحاربة الى تدمير الروسيا

تعييني في القيادة العليا

رئيس اركان حرب الجيش المقاتل

ليست هذه أول مرة استدعاني فيها امبراطورى ومليكى اليه لمباحثتي في الحالة العسكرية وفي خصائص الاعمال الحربية .

لقد ظننت ان جلالته استدعانى هذه المرة أيضاً الى بلبس لاوضح له رأيى الشخصى في مسألة محدودة . ولاعتقادى بانى لن أقيم فى المسكر العام الاكبر الا مدة قصيرة لم استصحب سوى ما مست اليه الضرورة من الامتعة .

ووصلت في صبيحة ٢٩ اغسطس الى بلبس ومعى رئيس أركان حربي . فاستقبلنى على المحطة من قبل الامبراطور رئيس المكتب العسكرى . وكان أول ما أنهاه الي ان جلالته عازم على اسناد وظيفتين ساميتين الينا

القائد لودندروف وأنا .

والتقيت امام قصر بليس برئيسي الأعلى الجليـل : وكان في انتظار جلالة الامبراطورة القادمة من برلين والتي تصل الى بليس بعـد قليـل من وصولي . فسـلم علي الامـبراطور في الحـال وهو يلقبـني برئيس أركان حرب الجيش المقاتل ، وسلم على القائد لودندروف بتلقيبه برئيس المعسكر العام . وكذاك قدم المستشار من برلين ولم يكن أقـل مني دهشاً عندما أعلمه صاحب الجلالة أمامي بتعييني رئيساً لأركان الحرب . وانما ذكرت هذه الامور لخوض الألسنة في شأنها كثيراً .

وبعد قليل سلم لي الاعمال سلفي القائد الفون فالـكنهاين وعنـد ذهابه صافحني قائلا : « ليساعدك الله وليعضدك الوطن ! »

لم يعلمني جلالة الامبراطور لا حين اسـتلامي اعمالي ولا فيما بعـد باسباب هذا التعيين الفجائي لانه كان لا يزال حافظاً اجمل ذكري لسلفي . وما حاولت ان اتعرفها لاني لم أتعود على مثل هذه الابحاث التي ليس لها سوى فائدة تاريخية ، وبالاحرى انني كنت اذ ذاك أحوج الى وقت اقضيه في العمل بدلا من قضائه في امثال هذه المسائل لان الاوامر كانت تتابع لا ما بين يوم وآخر بل ما بين ساعة واخرى .

الحالة العسكرية في آخر أغسطس ١٩١٦

كانت الحالة العسكريه كالآتي عند استلامي شؤون وظيفتي : كانت الحالة مستوجبة للقلق على الجبهة الغربية . فان فردان لم تسقط . وكنا نظن ان قوة فرنسا العسكرية ستضطرب على الاقل في قوس النيران الحامية الملتف حول جبهتي فردان الشمالية والشمالية الشرقية : الا أن هذا

الأمل لم يتحقق . وظل حظ هجومنا في النجاح غير مؤكد ، ولكنا لم نعدل عن هذه المغامرة . والصراع مستحكم على السوم منذ شهرين : ونحن نتهاوى فيه ما بين وهدة وأخرى . وخطوطنا تحت خطر الانثلام الدائم . وبلغ الهجوم الروسي في الميدان الشرقي قمم الجبال في جنوب الكربات . وبعد الوصول الى النتائج التى حدثت الى هذا العهد كان من المشكوك فيه استطاعة القوى الموجودة فى تلك الجهة الثبات أمام هجمات جديدة والاحتفاظ بما تبقى من البلاد المجرية . وكذلك كانت الحالة فى منتهى السوء فيما أمام بلاد الكربات الشمالية . فمع أن الهجوم الروسي خف فيها فلا أمل في بقاء هذا السكون مدة طويلة . وقد خفت وطأة الهجوم النمسوى المجري في التيرول الجنوبي على أثر تداعى الجبهة الغاليسية . فانتقل الايطاليون الى خطة الهجوم على جبهة الايسونزو . والمكافحة في هذه الجبهة اضعفت قوي الجيش النمسوى بدرجة هائلة لانها تقاتل في احرج مواقف قوات متفوقة عليها عدة مرار فكان لهذه المكافحة نصيب عظيم من الجد .

وأخيراً فان لحوادث البلقان أيضا شأنا هاما سواءا من جهة الحالة العامة أو من جهة الازمة الحالية . فبعد الانتصارات المحلية التى أحرزها البلغاريون فى هجومهم فى مقدونيا على الجنرال سيرايل بناء على طلبنا اضطر الى التوقف ، لان الغرض الذى كان مقصوداً من هذا الهجوم سياسياً وهو منع رومانيا من الدخول فى الحرب قد أخفق . فاعداؤنا مصممون من كل جانب على القيام باعمال حربية . فمن المنتظر أن يبذلوا كل ما فى وسعهم لاحتفاظهم بتفوقهم . فالمظاهر التى تبعث فيهم الاعتقاد بانتهاء الحرب قريبا مع احرازهم الظفر جعلتهم يجودون فى سائر الجبهات

باكبر المجهودات وأعظم الضحايا . فكل شيء كان معداً لضرب الدول الوسطى الضربة القاضية بينما كانت رومانيا تقرع جرس الانتصار المزمع حدوثه!

ان القوى الاحتياطية التى كانت حينئذ لدى المانيا والنمسا ضئيلة ولا سيما على تخوم رومانيا والمجر التى هى فى هذه الآونة أدعى الى الخطر من سواها ، اذ لم تكن هنالك سوى نقط ضعيفة للخفر أغلبها تابع للمصالح المالية والجمركية ! وكانت توجد فى داخل ولاية ترانسلفانيا بعض فرق عسوية مستريحة . ولكنها أخذت وانهكت قواها فى المعركة فاصبح معظمها بقايا لا تصلح للعمل . والوحدات التى تم تأليفها والجارى تأليفها فى هذه الولاية كانت اعدادها قليلة فلا تكفى لصد الغارة الرومانية . واما الحالة على الشاطىء الجنوبي من الدانوب فكانت موافقة لنا . وكان جيش مؤلف من وحدات بالمغارية وتركية والمانية يتجمع على حد بلغاريا من جهة دوبريجه وعلى شاطىء الدانوب ، ومجموعه سبع فرق تقريبا من قوى شديدة التباين .

هذه هى كل القوات التى كنا حشدناها الى هذا الحين فى أحرج مكان من ميداننا فى الحرب الاوربية وهى التخوم الرومانية . وللحصول على موارد احتياطية أخرى كنا فى اضطرار لسحب فرق من جبهات اخرى او الالتجاء الى الفرق الخارجة فى حالة اعياء من العراك ومحتاجة الى الراحة او لتكوين فرق جديدة . ولكن من هذه الوجهة الاخيرة لم تكن حالتنا احسن من حالة أعدائنا : ان مسألة الامداد من الرجال موجبة للقلق اذا استمرت جبهتنا على هذا الامتداد واذا ازداد اتساعها . وفوق ذلك صارت مقادير المؤن والذخائر اللازمة لنا هائلة جداً من جراء استمرار المعارك المحتدمة على سائر الجبهات حتى اننا صرنا مهددين بعدم المقدرة على موالاة الاعمال

الحربية لاجل هذا السبب وحده وساعود فيما بعد الى حالة تركيا

الحالة السياسية

من الضرورى أن لا اقتصر على وصف تاثراتى الاولى من الحالة العسكرية بل اعمد الى وصف تأثراتى الاولى من الحالة السياسية العامة ايضاً . وابدأ بحالة وطننا الداخلية .

عند ما تسلمت أزمة الاعمال لم تكن حالة الشعب الالمانى الادبية على ما يظهر لى قد انحطت ولكنها كانت على الاقل مهددة بالانحطاط . فمما لاشك فيه ان الحوادث الحربية الاخيرة قد أزالت أوهام الكثيرين من رجالنا . وزادت هذه الحالة صعوبة التموين اليومى . وكانت الطبقة الوسطى أشد تألما من هذه الحالة التى اضرت بها ضرراً بالغاً . فالمخزون من المواد الغذائية أخذ يشتد نقصا والمحصول الآتى بدت عليه علائم الهبوط الى المتوسط . وجاء اعلان الحرب من رومانيا بعبء جديد تتحمله عزيمة شعبنا للتمكن من متابعة الحرب . ومع ذلك فقد كانت بلادنا مستعدة للتشبث بحالتها الادبية ولكن لم يكن من المعلوم الى أية مدة والى أى حد من القوة . فجرى الحوادث المقبلة سيكون له من هذه الوجهة الاثر الفعال

وفيما يختص بعلائق المانيا مع دول التحالف الرباعى الاخرى فاذا صدق ما تذيعه الصحافة الاجنبية المروجة فاننا نكون الرؤساء المطلقين لحلفائنا : فقد زعموا اننا قبضنا على أعناق النمسا و بلغاريا وتركيا واننا على وشك أن نخنقهن اذا لم ينفذن ارادتنا . وليس ما هو أبعد عن الحقيقة من هذه المزاعم ، لان انحطاط المانيا عن انجلترا لايظهر فى أى وجه أوضح من ظهوره لدى المقارنة بين نفوذيهما اللذين تستخدمانهما للتأثير من الوجهة

السياسية فى حلفائهما . فلو اجترأت الهيأة الرسمية فى ايطاليا مثلا على اظهار رغبتها بغير رضاء بريطانيا فى ابرام الصلح ألم تكن انجلترا تهددها بقطع مواود التموين عنها لتلجئها الي البقاء على سياستها الاولى . وكذلك مركز انجلترا ازاء فرنسا فقد كان شديداً مصحوباً بالتحكم . فالروسيا هى الدولة الوحيدة التى كانت تتمتع باستقلالها التام ، على أن هذا الاستقلال الذى تتمتع به درلة القياصرة لم يكن مطلقاً من الوجهة السياسية ازاء انجلترا لاسباب اقتصادية ومالية . فما أعظم ما كان مركز ألمانيا غير موافق من هذه الوجهة ! فاية الوسائل السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية التى كنا نستطيع أن نقاوم بها كل محاولة فجائية مخالفة لمصلحتنا من قبل أية دولة من حلفائنا ؟ لم تكن لدينا أية وسيلة نحمل بها هذه الدول على البقاء فى صفنا اذ لولم تكن شاعرة بارتباطها بنا بمحض ارادتها أو بما يتهددها من خطر الضياع اذا التزمت عزلتها لتركتنا وسأتنا . ولم احجم عن تأكيد هذا الامر الذى لا جدال فيه لانه سبب اساسى لضعف مركزنا العام . فلننتقل الى كل من حليفاتنا .

لقد تفاقمت الحالة السياسية الداخلية فى النمسا والمجر فى صيف ١٩١٦ وقبل وصولنا الى بليس ببضعة أسابيع لم تخف الحكومة النمسوية عن حكومتنا انها لا تتحمل تفاقم الحالة التى يسببها الفشل العسكرى والسياسى . فحبوط الامل الناجم عن أخفاق الهجوم على ايطاليا الذى كان مصحوباً بوعود متجاوزة الحد كان ذا تأثير شديد جداً . وانحطاط المقاومة بسرعة على جبهة غاليسيا وفولهينيا أنتج تشاؤما لدى الشعب بلغ صداه الى البرلمان . ومن الواضح أن الاوساط النمسوية العليا تأثرت بهذا التشاؤم . وفى الواقع ليست هذه أول مرة اضطربت فيها هذه الاوساط الى درجة

وصلتنا أبناؤها . فالثقـة بالنفس ضعيفة جداً فى هذه الاوساط . واذا ما تجاوزنا عن هذا الحكم فاني لا أنكر أن مشاكل النمسا السياسية أعظم بكثير من مشاكل وطننا . فمسألة التموين خطيرة فى النمسا أيضاً . والقسم النمسوى الالماني أشد معاناة لآلام الشظف . ومن رأيي أن لا حق لنا فى الارتياب فى اخلاص النمسا لتحالفنا . ومع ذلك فلابد من اتخاذ وسائل التخفيف عن النمسويين بأسرع ما يمكن .

أما حالة سياسة بلغاريا الداخليـة فعلى غير حالة النمسا : ويمكنني أن أقول أنها أمتن من الوجهة الوطنية . وهذه البلاد انما تكافح لا لتضم اليها كل ابناء عنصرها فقط بل لتحرز تفوقها النهائي فى البلقان . فالمعاهدات التى ابرمتها بلغاريا مع دولتى الوسط وتركيا والانتصارات العسكرية التى احرزتها جعلتها تعتقد بان آمالها العظيمة ستتحقق برمتها . ولكنها عندما دخلت ميدان الحرب العامة كانت لاتزال منهوكة القوى من الحروب البلقانية الاخيرة . ومن جهة اخرى فان حماسة البلغارين عنـد اعلان الحرب سنة ١٩١٥ لم تكن كحماستهم سـنة ١٩١٢ . ففى ١٩١٥ كانوا مدفوعين الى القتال بسياسة الحكومة أكثر من اندفاعهـم بباعث النعرة الوطنية . ولهذا فان الشعب البلغارى بعـد ان وضع يده على البقاع التى كان يطمع فيها ارتاح باله وأظهر قلة استعداده لبذل مجهودات أخرى . فهل تردد البلغاريين فى اعلانهم الحرب على رومانيا — ولم يكونوا قد اعلنوها عندما وصلت الى بليس — مرجعه الوحيد الى حالة الشـعب البلغارى الادبية ؟ من المسموح لى ان اظل مرتابا فى هذا التعليل الى اليوم . أن حالة بلغاريا من جهة التموين الغذائي كانت احسن من حالة ألمانيا . وبالجملة فقد كنت احسبنى محقا فى الظن بان تحالفنـا مع بلغاريا قد ينتج لنـا فى

يوم ما تخفيفاً من الوجهة العسكرية .

ان ثقتي بتركيا لم تكن أقل قدراً من ثقتي بأية دولة أخرى . فان السلطنة العثمانية تقدمت الى الكفاح بدون أقل مطمع فى توسيع دائرة نفوذها السياسي فالرؤوس التي تديرها و فى طليعتها أنور باشا أعلنوا جهرة ان حيدة تركيا ليست من المسائل التي ينظر فيها فى الحرب التي اشتعلت نيرانها عام ١٩١٤ . فلم يكن من المعقول ان الروسيا والدول الغربية ستظل محافظة أبد الدهر على الوسائل الدقيقة المرتبطة باستعمال البوغازين (الدردنيل والبسفور) . فدخول الحرب بالنسبة لتركيا كانت مسألة حياة أو موت ، وهى تكاد تكون أوضح لها مما هى لنا . وقد أدى لنا خصومنا خدمة بتصريحهم بالحقيقة علنا و بصوت عال في مبدأ الحرب . لقد أظهرت تركيا فى هذا الصراع قوة أدهشت العالم أجمع فالاقدام الذى أدارت به القيادة الاعمال الحربية أذهل الاصدقاء كما أذهل الاعداء ، اذ عطلت فى سائر الساحات الاسيوية قوى عظيمة من الاعداء . وكثيراً ما أوخذ المعسكر العام الاكبر فى المانيا على تفريطه فى وسائله الخصوصية لتقوية القوة المحاربة فى تركيا . ولكن اولئك الذين يذهبون الى هذا الرأي نسوا ان تعضيد تركيا مكنها من ابعاد عدة مئات الالوف من خيرة مقاتلة خصومنا عن ميادين الاعمال الحربية فى اوربا الوسطى

الادارة العسكرية العليا للتحالف الرباعى

ان تجارب ربيع ١٩١٦ وصيفها أظهرت الحاجة الى ايجاد هيأة قيادة وحيدة ومسؤلة ومكلفة بادارة الجيوش الالمانية وجيوش حلفائنا معاً . فانشئت ادارة عسكرية عليا برضاء رؤساء حكومات التحالف الرباعى وعهدت الى جلالة امبراطور المانيا . وخول رئيس أركان حرب الجيوش

الالمانية الحق « بالانتداب من هذه الادارة العسكرية العليا » فى اصدار الاوامر الى رؤساء أركان حرب الجيوش المتحالفة و فى عقد اتفاقات معهم . وللاعتقاد بما ينطوى عليه رؤساء أركان حرب الجيوش المتحالفة من روح التوافق والتساند المعقول فضلا عن كونهم أقرانى لم يكن لدى ما أستعمل فيه حقوقى الجديدة إلا ما تمس اليه الحاجة من القرارات العسكرية ذات الاهمية الخاصة . ولم تختص الادارة العليا بالمسائل السياسية والاقتصادية ذات المصلحة العامة .

ومهمتى قائمة الاساس على اصدار أوامر عامة الى الحلفاء عن مجموع سير الاعمال العسكرية وعلى جميع ما لديهم من الوسائل والمجهودات لادراك الغرض الذى نتطلبه جميعاً . واذا كانت الادارة العليا للحرب لم تهتم بالمصالح الخاصة بل اذا كانت قد ضحت عند الاقتضاء ببعض المسائل ذات الاهمية الثانوية من الوجهة الحاسمة فنالت بهذه الطريقة فوزاً حاسما فى احدى الساحات الحربية فان مصالح سائر الحلفاء قد استفادت من هذا الظفر . ولكن طبيعة حربنا المشتركة وهي الطبيعة التى لا يمكننا أن نغير شيئاً منها والتى كثيراً ما استخفت بمسائل ذات أهمية من سائر الانواع كثر ما خلقت مشاكل للادارة الحربية العليا . فكل انسان يعلم ان المانيا منحت حليفاتها فى هذه الحرب أكثر مما أخذت منهن . ولكن لا يمكن ولا ينبغى اتخاذ هذا المستند دليلا على استطاعة المانيا مقاومة هذا الصراع الذى لم يسمع بمثله من غير تعضيد حليفاتها . وكذلك يعتبر جهلا بحقيقة الواقع ودليلا على التحيز والمغالاة التصريح بان المانيا لم تستند الا على حلفاء عرج وقائل هذا ينسى ان حلفاءنا كثيراً ما استجروا اليهم قوى معادية تفوق قواتهم فى كثرة العدد . واذا القيت الآن نظرة على الماضى لاعتقدت بان الشطر

الاصعب فى ادارة الحرب العليا لم يكن ادارة الاعمال الحربية الكبرى بل ايجاد وسائل تحكيم بين مصالح حلفائنا المتعارضة . ولا أريد البحث عما اذا كان أغلب هـذه الاختلافات ذات تاثير من الوجهة السياسية أعظم من تأثير الوجهة العسكرية المحضة . ان اختلاف جيوش الحلفاء المتباينة كانت من أكبر العوامل المعاكسة لاحكام خططنا واصدار قراراتنا . ولم أتوصـل الى معرفة ما يمكننى أن أنتظره واتطلبه من جانب حلفائنا الا بالتدريج بعد أن توات ادارة أركان الحرب العام الاكبر . ففى خـلال الحملة البولونية عندما اشترك الجيش النمسوى مباشرة مع جنودنا عرفت لاول مرة قوة النمسا العسكرية . ولم تك اذ ذاك وحدانها تستطيع بذل المجهودات التى اعتدنا على طلبها من جنودنا . ومما لاجدال فيه ان تناقض قيمة الجند النمسوية أساسه الزعزع الخارق للعادة الذى اعترى الجيش النمسوى من جراء الهجوم الجبهى المحض الذى قام به فى بولونيا وغاليسيا عند ابتداء الحرب وهو الهجوم الذى انعته بتجاوزه حد الجرأة . لقـد زعموا ان هذا الهجوم أنتج كسر الوثبة التى أوشكت أن تثبها الجموع الروسية ولكن كان من الميسور الحصول على هـذه النتيجة بوسائل أقل تهوراً وبخسائر أقل فداحة مما حدث . وعلى كل حال فقد انتظم الجيش الروسى ثانية على الرغم من خسائره ، وأما الجيش النمسوى فلم ينتظم بتاتا وروح الهجوم النمسوى الجرىء استحال الى هلع مستمر من منظر الجماهير الروسية وقد اعترضت كل المجهودات التى حاول بذلها المعسكر العام الاكبر النمسوى لتلافى الخسائر التى لحقت بجيوشه صعوبات لا يمكن التغلب عليهـا . وأحسب أنى قادر على سرد كل هذه الصعاب . غير انى أقتصر على طرح

هذا السؤال فقط : كيف تتوصل قوى انسانية الى إن تحرك فى خليط الشعوب المتكونة منه النمسا دفعة حماسية جديدة بجمع كل قوى الامة فى ارادة واحدة مشتركة متجهة إلى القتال فى حين ان اول ما ازهرته الإرادة من الحماسة والثقة بالنفس قد قطف ؛ بل كيف يمكن تجديد فيلق الضباط الذى كانت خسائره جسيمة من اول وثبة ، وكيف يرد اليه ولو جزء من عزمه القديم ؛ ولا ننس ان النمسا غير حاصلة على مثل ما لدى المانيا من القوى العقلية التى تستمدمنها اثناء ازمان طويلة . على انه من الوهم الاعتقاد بان كل الوحدات النمسوية اصيبت بهذا الانحطاط فى النتيجة إذ بقيت النمسا الى نهاية الحرب حاصلة على عدة وحدات باهرة .. ولكن من المحقق انه فى اثناء الازمات كان التشاؤم الذى لا مبرر له يتغلب على هيآت عديدة من الجيش النمسوى ، وقيادته العليا اصيبت هى ايضاً بهذا الشعور . وهذا هو السبب الوحيد فى ان رغبة القتال تتلاشى لدى حليفتنا حتى بعد هجمات منفذة ببراعة وتستحيل الى الضد فى غير الوقت المناسب . وهذه الامور اوجبت بالطبع عدم اطمئنان فى تدابير الادارة الحربية العليا . فكنا دائماً حذرين من ان طروء هذا الانحلال فى عزائم وحدات من الجيش النمسوى يعرضنا فجأة لحالة جديدة تقلب كيان خططنا برمتها .

أن وحدات كل الجيوش تصاب احياناً بالضعف ، ومرجعه الى الطبيعة الانسانية .. فيجب على القيادة أن تعتبره كعامل مؤكد الوجود لا تستطيع ان تحصر دائرة اتساعه . ان العساكر المحنكين يتغلبون بسرعة فى أغلب الاوقات على عوامل الضعف . واذا حدثت مصيبة عامة فانهم يبقون على الأقل فى خطوطهم محتفظين قيمتهم الحربية وعزيمتهم على المقاومة . ولكن هنا تلك الطامة اذا فقدت هتين الصفتين الاخيرتين ! ان عدوى

التلف لا تقتصر على اصابة كل الجنود الذين تمسهم بل تنتقل الى الوحدات القوية التي تلامسهم أو تجاورها ، فتبلغت هذه الوحدات بالاصابة من جانبها أو من خلفها فيحل بها غالباً أفظع مما حل بالوحدات الضعيفة . هذه هي الحالة التي داهمت الوحدات التي ادخلناها في الجبهات النمسوية لتقويها . فهل من المدهش في مثل هذه الحالة أن لا يطمئن جنودنا دائماً الى الجنود النمسويين زملائهم في السلاح ؛ ولكن لا ينبغي لنا أن ننعي على مجموع العمل الذي قامت به النمسا في هذا الصراع الهائل ، ولا يجوز الاستسلام الى عوامل التألم التي يحركها أحيانا فقد الاماني فان النمسا ستظل لنا شقيقة مخلصة في حمل السلاح . لقد قضينا معاً أوقات سؤدد فيجب أن لا نتخاذل في زمن المحن المشتركة !

أن نظام الجيش البلغاري يخالف نظام الجيش النمسوي ، فهو وطني محض ، وقد كان تألمه من الحرب العامة اقل من سواه الى خريف عام ١٩١٦ . ولمعرفة قيمة هذا الجيش تماماً لا يجوز تناسي ما مني به منذ سنوات في الحرب المهلكة التي ذهب فيها قسم كبير من الضباط وخلاصة الذكاء الاهلي . وكان من الصعب على بلغاريا كما شق على النمسا أيضاً الاستعاضة على الضباط المفقودين . وحالة المدنية الحديثة في بلغاريا تجعل من الصعب ادخال واستعمال عدة من وسائل القتال والنقل في الجيش مع انها من الضروريات التي تستدعيها الحرب الحديثة . واشتد الشعور بهذا النقص حينما وجدنا امامنا على الجبهة المقدونية وحدات فرنسوية انجليزية ذات شأن مذكور . وهذا السبب كان كافياً بمفرده لاعانة بلغاريا بالوسائل المادية وبالرجال ايضاً .

وكذلك كان نظام الجيش التركي مخالفاً للجيشين السابقين ؛ فلم تكد بعثتنا

الحربية تقوم بمهمتها فى الجيش العثمانى قبل الحرب وتحدث تغييراً نهائياً فى نظامه المضطرب . ومع ذلك فقد افلحت تركيا فى تجهيز عدد عظيم من وحداتها ، الا ان جيشها أصيب بأضرار فادحة فى الدردنيل وفى هجومها الابتدائى فى ارمينيه . وعلى كل حال فهى لا تزال قادرة على القيام بمهمتها الأولى التى اختصتها بها ادارة الحرب العليا وهى الدفاع عن البقاع التركية . بل استطعنا أيضا استخدام اجزاء عظيمة من الجيش العثمانى بالتدريج فى ساحات المعارك الاوروبية . وكل ماساعدنا به تركيا محصور فى تزويدها بالمهمات الحربية وارسال عدة من الضباط اليها . وقد نقلت التشكيلات الالمانية التى انتزعت من مضامير القتال الاسيوية على التتابع الى اوربا ابتداء من خريف ١٩١٦ برضاء المعسكر العام الاكبر التركى على أثر استعداد الجيش التركى لاستخدام أسلحة ومهمات هذه التشكيلات . ولقد قدمنا الادوات الحربية حتى الى السنوسيين فى شمال افريقية . واعتمدنا فى هذه المهمة على غواصاتنا التى كانت تنقل لهم على الاخص البنادق والذخائر . واذا كانت هذه الرسالات قليلة الاهمية فقد كان لها تأثير عظيم فى نفوس القبائل المحمدية الحربية . والى الآن لم يمكن معرفة حقيقة النتائج العملية التى عادت علينا من مصادمات هذه القبائل ، اذ ربما كانت اعظم مما كنا نتوهمه حينئذ . وحاولنا ان نعضد رفاقنا فى السلاح حتى فيما يلى شواطىء افريقية الشمالية فقبلنا ماعرضه علينا انور باشا فى ١٩١٧ من امداد قبائل اليمن الموالية لسلطان الاستانة بالاموال . وبالنظر لاعتراض القبائل الرحالة الثائرة فى صحراء العرب لم نتمكن من بلوغ تلك الناحية بطريق البر وغواصاتنا لم يكن لها سبيل الى ادراك سواحل البحر الاحمر فلم يبق لنا سوى الجو ومع الاسف العظيم لم يكن لدينا حينئذ منطاد مسير يخترق افق الصحراء الكبيرة حتى يصل الى

اليمن ، فكان هذا سبباً لعدم تنفيذ مشروعنا . وأذكر بهذه المناسبة انني اهتممت في سنة ١٩١٧ بما حاولنا من تموين جنودنا المقاتلين في افريقيه الشرقية بالاسلحة والمواد الطبية من الجو . فكما هو معلوم اضطر منطادنا زبلين ان يطوف حول نصف السودان لان جنودنا كانت قد ترامت الى الجنوب ونقلت اعمالها الحربية الى شرق افريقيه البورتغالي ولا حاجة لي الى ذكر شعور الافتخار الذي كنت اتتبع به الجولات التي تكاد تفوق مقدرة البشر التي قام بها جنودنا المدهشين هنالك اثناء الحرب ، فقد اقاموا على الارض الافريقية اثراً خالداً من مجد البطولة الالمانية .

واذا القيت نظرة الى الخلف لأرى ما قام به حلفاؤنا وجب الاعتراف بانهم لم يدخروا وسعاً في تنفيذ مهمتنا المشتركة بكل ما سمحت لهم به قواهم السياسية والاقتصادية والعسكرية والادبية . وفي الحقيقة ان ليس بوجد بينهم من لم يصل الى الامنية السامية . واذا كنا نحن الالمانيين قد اتصلنا بهذه الامنيه السامية أشد من اتصالهم بها فما ذلك الا بفضل تفوقنا في القوى الادبية ، وما كنا نحن أنفسنا نعرف في بادىء الأمر عظمة تلك القوى التي ادخرناها في عشرات السنين الاخيرة من تاريخنا : انها موجودة في كل طبقات الشعب ، ولم تكن خاملة بل نشطة مستمرة على ازدياد قوتها

وليس الا في حالة دولة ذات نهضة ادبية قوية وقواها السليمة التي تنعشها قادرة على أن تجتذب معها القوى المهزولة في الساعة الحاسمة يمكن القيام بمشروعات كالتي قمنا بها والتي تتخطى كل ما تستوجبه علينا محالفاتنا .

واذا كان الأمر على ما ذكرنا كما يؤيده التاريخ فرجع الفضل فيه الى الاسرة الهوهنزللرنية وعلى الاخص في الأوقات الأخيرة من عظمة ألمانيا الى امبراطورنا غليوم الثاني . فباقتفائه آثار أسرته ادرك أن جيشه خير

معهد لتثقيف شعبه فواصل العمل لترقيتــه ، فصار الجيش الالماني أول جيوش العالم ، فهو قبل الحرب المدافع المحترم عن حرية العمل ، وأثناء الحرب نواة كل مظهر للقوة .

بليس

لقد تخيرت القيــادة العليا الالمانية مدينــة بليس الصغيرة الـكائنة فى سيليزيا العليا من مدة سابقة مركزاً وقتيا للمعسكر العام الاكبر . ووجه هـذا الاختيار المجاورة للمعسكر العام الاكبر النمسوى المستقر فى مدينة تيشين فى سيليزيا النمسوية . وان فائدة سرعة التفاهم شفويا ما بين المعسكرين العامين كانت عظيمة الى حد اننا وجدنا من اللازم توطيد معسكرنا العام الاكبر فى بليس . وكان المعسكر الاكبر الالماني هو ملتقى الامراء الالمانيين والمتحالفين الذين يريدون محادثة امبراطورى شخصيا فى مسائل عسكرية او سياسة . وكان بين اول من لاقيتهم من الملوك فى بليس الملك فرديناند البلغارى . فرأيته سياسياً فحلا . ونظرته السياسية تمتد الى ماوراء البلقان . وكان يعرف بمهارة استاذ ان توضح و يضع فى الخطة الاولى مركز بلاده بين المسائل الكبرى من السياسة العالمية . ومن رأيه أنه يجب البت فى مستقبل بلغاريا خلال الحرب الحاضرة ولهـذا الغرض أراد تحرير بلاده نهائيا من النفوذ الروسى كما أراد ان يجمع شمل العنصر البلغارى تحت ادارته . ولم أسمع منه أن سياسته ترمى الى مقاصــد أخرى . ولقد احدثت فى طريقة تعليمه ابنــه الاســلوب السياسى تأثيراً خاصاً . فالأمير الوريث بوريس كان بمثابة كاتم أسرار أبيــه الخاص وظهر لى أنه على علم بأسرار ذلك الملك السياسية . وكان هذا الأمير المتشبع بالآراء البديعة يؤدى الوظيفة

المهمة المسندة اليه بمهارة تامة وتحفظ متواضع . ويظهر أن والده كان يراقبه أشد مراقبة لاجل تحقيق هذا المرام . وهذا الملك هو الذي يدير بمفرده أهم شؤون مملكته السياسـية الخارجية . ولست أدري مقدار نفوذه في الشؤون الداخلية المعقدة ، ولكني أظنه يظهر ارادته باستخدام وسائل استبدادية احيانا في وسط الفوضى البرلمانية التي تمزق بلغاريا في أغلب الاوقات . فمهمته من هـذه الوجهة في منتهى الصعوبة . اذ بلغاريا كسائر الشعوب البلقانية انتقلت من الاستعباد الى الحرية السياسية المطلقة . وكذلك لم يحصل الشـعب البلغاري على أي تدريب سياسي فهو يحمل مشقة العمل التي يقتضيها الانتقال من طور الى آخر . وأخشى أن يمر على هذا الشعب والشعوب التي تجاوزته سنوات طويلة في تحمل الهموم بسبب تجاوز مدة التهذيب السياسي . وعلى كل حال فقد كان ملك بلغاريا في ذلك العهد أهم الملوك شأنا . وكان حليفاً مخلصاً لنا .

ومات الامبراطور فرانسوا جوزيف أثنـاء اقامتنا في بليس ، فكان موته خسارة للنمسا ولنا . ولا شك في أن فقده كان قضاء على الرابطة التي تجمع شعوب هذه الدولة ، إذ أن قسم عظيم من الشعور الوطني الذي كانت ترتبط به العناصر المختلفة في هذه الإمبراطورية نزل مع هـذا الامبراطور الكهل النبيل في قبره . ان الصعاب التي عرضت للامبراطور الشاب عند توليه لاتقارن مع جسامتها بالصعوبات التي تحدث على أثر تغير الملكية في بلاد شعبها كله من عنصر واحد . وحاول الامبراطور الجديد أن يعتاض عن القوة الادبية وروح الاتحاد المتصف بهما سلفه بمنح يسـديها لجموع شعبه ظانا انه يكتسب بها نفوذاً أدبيا حتى لدى العناصر التي تسعى في تقويض أركان الحكومة ، فكانت النتيجة عكس الغرض لان هذه العناصر

اتفقت من مدة مع خصومنا ولا تعدل بارادتها عن اتفاقها .

ان الصلات الشخصية التي اوجدتها اقامتي في بلميس بيني وبين أمير اللواء كونرادفون هوتزندورف طابقت ما كنت أعتقده من قبل فيه بصفته عسكريا ورئيسا . فهو شخص كفء جداً ومتلهب الوطنية النمسوية ومشايع غيور لمسألتنا المشتركة . ومن المؤكد انه كان يتجنب كل التأثيرات السياسية التي تحاول اخراجه عن هذه الجادة . وكان نظره عظيما في المسائل الفنية العسكرية . وكان يستخلص من الامور الثانوية التي ليست لها اهمية فعالة مسائل جوهرية جليلة تفيدنا جميعا ، وله المام جيد بحالتي البلقان وايطاليا ولم يكن جاهلا بما يتطلبه الجيش النمسوية من الروح الوطني وما يحدثه هذا النقص من الضعف في صفوفه . وعلى كل حال فقد كان يعتقد بامكان الاستفادة من الجيش المفوض اليه .

وكذا عرفت في بلميس أثناء فصلي الخريف والشتاء بالرؤساء العسكريين في تركيا وبلغاريا .

وقد أظهر لي أنور باشا سعة عقل وحرية في الآراء قلما يعهدان في صدد مجرى الحرب الحاضرة والطرق الواجب تنفيذها . ولقد كان اخلاصه حقا التركي لمسألتنا المشتركة ذات الجسامة العظمى والخطارة الكبرى لاحد له . ولا أنسى أبد الدهر ما أحدثه من التأثير في وكيل القائد العام العثماني في أول حديث دار بيننا في مستهل سبتمبر ١٩١٦ وبناء على طلبي بسط الحالة العسكرية في تركيا ، فرسم لوحة منفصلة ذات وضوح وأحكام وصراحة في منتهى البراعة تشمل كافة المواقف ثم التفت الي وختم بيانه المسهب بقوله : « ان موقف تركيا في آسيا صعب في بعض النقط . فلا ينبغي لنا أن نخشى من تراجع آخر في أرمينيه . وقد تتجدد الوقائع قريبا

فى العراق . وأظن أيضاً ان الانجليز سيتمكنون من مهاجمتنا فى سوريا بعد مدة وجيزة بقوات متفوقة علينا . ولكن كيفما كانت الحالة فى آسيا فان الفصل فى الحرب انما يكون فى أوربا ولهذا فانا أضع تحت تصرفك كل الفرق التى أستطيع الاستغناء عنها . »

وما عهد حليف يتكلم قط بمثل هذا الاخلاص ولا بمثل هذا التواضع مع حليفه . ولم يقتصر أنور باشا على القول . ومع حصول أنور باشا على المدركة التى تؤهله لأن يكون قائداً ، فقد كانت تنقصه المعلومات العسكرية وأريد معلومات ادارة أركان الحرب . وهو عيب موجود لدى سائر الرؤساء وأركان الحرب الاتراك . واعتقادنا هو أن هذا العيب طبيعى لدى الشرقيين ويظهر انه لا يوجد الا ضباط قليلون فى الجيش العثمانى ملمون بالوسائل الفنية التى تريد القيادة أن تنفذ بها الاعمال الحربية المرجوة . ولا توجد فى هذا الجيش خصيصة اهتمام أركان الحرب بالامور التفصيلية اهتمامهم بالمسائل الفنية الحربية الكبيرة . فنجم عن ذلك ان الافكار الجليلة التى تتراءى لحلفائنا الشرقيين تظل غالبا غير مثمرة لانها لا تتحقق من الوجهة العسكرية .

ان زميلنا الحربي البلغارى القائد جيكوف كان طرازاً آخر غير ذلك التركى ذى الافكار السامية : فهو رجل يفكر بهدوء ولا يخلو من الافكار العظيمة ولكنه لا يرمى ببصره الى أبعد من البلقان ولا أستطيع القول بالتأكيد الى أى حد يرتبط بحكومته فى هذا الصدد . وعلى كل حال فهو شديد التمسك بسياستها الخارجية ، ولكنه لم يكن متفقاً مع الحكومة فى السياسة الداخلية . وكان محباً لجنوده ومحبوباً لديهم . وثقته بهم عظيمة حتى فى المسائل السياسية . وكان تصريحه وجيها فى هذا الصدد عند ما حدث

الارتياب فى قبول الجندى البلغارى مقاتلة الروسيين أذ قال : « اذا قلت لرجالى البلغاريين قاتلوا لم يحجموا عن مقاتلة أي من كان ! » وعدا ذلك فان هذا القائد لم يجهل بعض جوانب الضعف فى جنوده وهى من اخلاق الشعب . وساعود فيما بعد الى هذا المبحث .

ولم أقتصر على التعرف فى بليس بالرؤساء العسكريين بل تعرفت كذلك بالزعماء السياسيين لحلفائنا وأقتصر الآن على التكلم عن الصدر الاعظم طلعت باشا و رئيس وزراء بلغاريا رادوسلافوف .

فاما طلعت باشا فكان وزيراً عبقرياً خبيراً بخطارة المهمة المسندة الى الامبراطورية العثمانية ونقط الضعف فى هذه السلطنة ، واذا لم يتوفق الى اقصاء الخمول الوطنى والكبرياء الضاغطين على وطنه فما ذلك الا لفداحة المشاكل التى يناهضها . ومن العسير أن يذلل فى أشهر ما بقى مهملا عدة قرون ، وما حاول تذليله قبل الحرب فاعترضه تعدد العناصر ونضوب الروح الادبى من مجموع الامة . واما من جهة طلعت نفسه فقد كان نقى الكف عند ما ترأس الحكومة و بقى نقيها أثناء توليه منصبه . وهو خير ممثل للبطولة التركية القديمة . وكان مستقلا فى سياسته عند ما لقينى لأول مرة عام ١٩١٦ وظل كذلك عند مافارقنا فى خريف ١٩١٨ والسبب الاهم لضعف الحكومة والقيادة التركيتين انصياعهما لحالة البلاد الداخلية . فبعض الرؤوس السياسية الحريصة على مصالحها المادية الشخصية المتصلة بالجمعيات كانت تتداخل فى الاعمال الحربية وتكف غالباً أيدى القيادة حتى لتعجز عن تلافى الاغلاط التى تتحقق منها مع القدرة على تلافيها . حقيقة ان بعض عظماء الرجال قاموا بكل ما تستطيعه مجهوداتهم ولكن سلطة الحكومة لم تكن نافذة فى سائر انحاء السلطنة . فقلب المملكة وهو

الاستانه كان ضعيف الخفقان فلا يقوى على ارسال الدماء النقية الى الولايات المنائية لتنعشها وتفيدها . ومع ذلك فقد تولدت أفكار حديثة أثناء الحرب فانتصارات الدردنيل والدجلة أكسبت الامة ريح العظمة الشرقية . فبدأت الافكار تحوم حول اتحاد سائر الشعوب الاسلامية دينياً وسياسياً . وعلى الرغم من اخفاق الدعوة الى الحرب الدينية فقد وضعت مشروعات تتضمن الحاق مسلمى شمال افريقية بهذه السلطنة . غير ان الحوادث أظهرت ان هذه المظاهر الدالة على التعصب الدينى لم تكن سوى حالات متفرقة وان الامل فى تحقيقها فى بقاع آسيا المترامية الاطراف لم يكن فقط حلما كاذبا بل كان أيضاً خطراً عسكريا جسيما .

واما البلغارى رادوسلافوف فقد كان أحط من الارض فى أفكاره السياسية بجانب الوزير العبقرى طلعت باشا . وانى أشك فى أن رادوسلافوف كان يدرك عظمة فكر ملكه فى ضم بلغاريا الينا فى عام ١٩١٥ . على انه كان حسن النية ازاءنا فى سياسته الخارجية .

وظلت مصارعة الاحزاب السياسية البلغارية على حالها طول الحرب بل امتدت الى الجيش . فلم تكن المشايعة لروسيا العلة الوحيدة للانقسام ولم يقتصر النزاع على الاحزاب والجنود بل شمل رؤساء الجيش ولم يسلم منه رادوسلافوف .

المعيشة فى المعسكر الاكبر

أريد ان ألم هنا بوصف احد أيام عملي الاعتيادى بمعسكرنا الاكبر بباعث الاهتمام المتجه من سائر الجهات الى حياتي الشخصية اثناء الحرب . وأرجو من اولئك الذين لا يروقهم ادماج هذه اللوحة فى وسط الحوادث

العالمية العظيمة ان يتخطوا الصفحات التالية فانها ليست ضرورية لمن يسعى لمعرفة هذا العهد العظيم .

ففى خلال الحرب المتحركة الحادثة فى خريف ١٩١٤ فى بروسيا الشرقية و بولونيا لم يكن من المستطاع التفكير فى وضع جدول اعمال منتظم لاركان حرب جيشنا . وانما استطعنا ان ننظم ساعات أعمالنا وراحتنا فى نوفمبر ١٩١٤ حينما انتقلنا فى بوزين بمقدار ما تسمح به حالة الحرب اذا سمحت .لقد كان مقامنا الطويل فى لوتزين موافقاً بنوع خاص لايجاد قواعد للاعمال دقيقة جداً ، فلم يحدث تنصيبى فى مركز رئاسة اركان حرب الجيش المحارب تعديلا جوهرياً فى جدول العمل الذى وضعناه والذى أصاب خطة من التجريب على الرغم من أن حياتنا من هذه الهنيهة صارت ادعى الى الحراك واسمى منزلة من الاول . فاول ساعات عملى التاسعة صباحاً اذ تكون التقارير قد وصلت . فانطلق الى القائد لوندورف للبحث معه فى التغييرات التى تتطلبها الحالة والاحتياطات الواجب اتخاذها . وغالبا لا تقتضى هذه الامور وقتاً طويلا . وكنا نسهر نحن الاثنين بغير انقطاع على الحالة الحربية وكنا نعلم أفكارنا المتحدة. ولهذا فلم نكن نحتاج غالباً لاصدار القرارات الا الى بضع جمل وأحيانا بضع كلمات تكفى القائد لوندروف لاصدار الاوامر التفصيلية . و بعد المحادثة استنشق الهواء مدة ساعة مع الضابط مراسلتى . وكنت أدعو أيضاً ضيوف المعسكر الاكبر الى متنزهاتى الضحوية ، واتلقى شكاواهم واقتراحاتهم ، وأهدىء كثيرين من الزوار المهمومين قبل أن أدعهم يذهبون الى رئيس معسكرى العام لعرض تفاصيل رغائبهم وآمالهم ومشروعاتهم ، و بعد عودتى الى العبارة الموجودة مكاتبنا بها اتحادث مع القائد لودندورف مرة

أخرى ثم يحضر رؤساء شعباتي ليعرضوا علي تقاريرهم مباشرة فى مكتبي . وبينما أكون مشغولا بمهام الاعمال تكون رسائلي الشخصية قد فتحت ورتبت بجانبي . وكان عدد الذين يفتحون لي اعماق قلوبهم و يراسلونني فى كل موضوع هائلا . وكان من المستحيل على أن أقرأها كلها بنفسي . فكلفت ضابطاً بهـذا العمل خاصة وكان الشعر ينازع النثر فى الكثرة فى هذه الكتب . فكانت الحماسة تمتزج بسائر العواطف الاخرى المتضاربة . بل كثيراً ما كان يصعب التوفيق ما بين المسائل المعروضـة علي وشؤون وظيفتي الرسمية . واذكر من قبيـل الاستشهاد مسألة من عدة آلاف من أمثالها ، ذلك انى لا أرى ماذا عساني اصنع وانا رئيس اركان حرب الجيش المقاتل فى كسح المواد القذرة التي هى في الحقيقة من الامور المهمة وفى فقد و رقة ميلاد شيلي من ارومة ألمانية . وعلى كل حال فقد طلبت مساعدتي فى المسألتين . وبالتأكيد ان مثل هـذه المراسلة تدل على ثقة متناهيـة وان كانت أحيانا ساذجة بنفوذى الشخصي ، وكلما سمح لي الوقت والفرصـة اعضد بارتياح الطلبات المعروضـة علي ولو بتوقيعى عليها . وفى أغلب الاوقات كنت أشـدد فى مساع خصوصية أهم من الامضاء .

وكنت اقدم تقريري فى الظهر بانتظام الى جلالة الامبراطور . وكان القائد لودندروف يصحبني و يوضح تفاصيل الحالة . وعندما كان الموضوع يقتضي أوامر ذات أهميـة كبرى كنت اتولى الـكلام بنفسي وألتمس من جلالته ان يتفضل بالتصديق على خـططنا . وقد خولتنا ثقتـه العظمى فى شخصينا ان نطلب مصادقته على كل مشروع . وكنت كلما عرضت عليه مشروعات اعمال حربيـة جديدة كان يكتفي غالباً بابداء تبريراتي لهـذه

المشروعات . ولا اتذكر خلافا لميسو بعد ايضاح متبادل . وكان الامبراطور ذا ذاكرة جيدة تعي كل المواقف الحربية فكانت تفيدنا جداً في شرح تقاريرنا . ولم يكن جلالته مقتصراً على دراسة الخرائط باهتمام عظيم بل كان يأخذ عنها مذكرات خصوصية . وكنا ننتهز غالباً فرصة عرض تقرير الظهر لنتفاوض أمام الامبراطور ومع ممثلي الحكومة .

وبعد الانتهاء من تقرير الامبراطور تجمع مائدة الغذاء حولي ضباط اركان حربي الخاص . وكان الوقت المخصص للاكل قصيرا جداً . وكنت ادع لضباطي بعد الطعام الوقت الكافي للاستراحة . ولم نخل بهذه القاعدة اذا وجد مدعوون على مائدتنا وضرورة ابقاء ضباطي في اعمالهم كانت عندي أهم من مراعاة الاعتبارات الاجتماعية ، لان العمل كان يحمل أغلبهم على الاشتغال مدة ست عشرة ساعة في اليوم . واستمرت هذه الطريقة طول مدة الحرب ! وكنا مضطرين في المعسكر العام الاكبر كاولئك الذين في الخنادق الى ان نستنفد آخر مجهوداتنا الانسانية . وكانت حصة ما بعد الظهر تنقضي بالنسبة لي كالصباح . أما مائدة العشاء فكانت تبتدىء الساعة الثامنة مساء وتنتهي في منتصف الساعة العاشرة وهي الهنيهة التي يؤذن فيها القائد لودندورف بالانصراف . وكانت المحادثات غالباً منتعشة في مجتمعنا الصغير . وكان الكلام يتتابع بدون تكلف ولا اتباع الصيغة الرسمية عن كافة المسائل التي ترتبط بنا مباشرة او التي تكون ذات فائدة عامة . ولم نخل الابتهاج من نصيبه بيننا . وكنت أرى من واجبي تجاه مساعدي ان أبث بينهم الابتهاج . وبعد اجتماعنا المسلوي تعود الى عمارة مكاتبنا . وفي مدة غيابنا عنها تكون تقارير المساء وصلت واشير الى المواقف العسكرية في النقط المتفرقة على الخرائط . ويوضح لنا ضابط شاب من اركان الحرب

والتقارير التي يقدمها رئيس الشعبات الى القائد لودندورف تظل متوالية الى الساعة الاولى صباحا . ولا يترك رئيس معسكرى العام مكتبه قبل منتصف الليل الا اذا كانت الحالة بوجه خاص هادئة ليعود اليه في الساعة الثامنة صباحا . واننا كلنا نرتاح عندما نرى القائد لودندورف قد سنحت له فرصة من الراحة ، على انها لاتتجاوز البتة بضع ساعات . وكنا جميعا مشتركين في حياة واحدة وعمل واحد وأفكار متحدة وعواطف متوافقة وهذه الذكرى تغشى قلبي الى الآن بالاعتراف بالجميل وبالارتياح .

وكنا على العموم نكون وسطا تحكم الاغلاق . وبما أن انتظام الاعمال ضرورى فقد كان التغيير بين العمال نادراً . ولم نكن نحفل الا في النادر بطلبات الضباط الراغبين بالحاف الانتقال الى الجبهة ولوحصة من الزمن . وكذلك كنا نرسل أحيانا بعض ضباط الى النقط المهمة من الحدود أو الى جبهات حلفائنا . ولكن لعدم تعطيل الاعمال المختلفة المعقدة في المعسكر العام الاكبر كان لابد من أن يشغل المراكز التي تخلو بعض الضباط ولو على الاقل أقدم الموجودين في الشعبات . وقد استطالت يد الموت بقساوة على وسطنا ، ففي عام ١٩١٦ فقدت ضابط مراسلتي الشخصي المحبوب من الجميع والذى كان أحد أقربائي الادنين البنباشي كامرير على أثر اصابته بالبرد . وفي اكتوبر سنة ١٩١٨ توفي اليوزباشي الفون ليناسينجن بالوباء الذي أصيب به كثيرون من أركان الحرب في ذاك العهد . وعلى الرغم من نصائح طبيبه وأصدقائه لم يشأ هذا الضابط ان يغادر وظيفته في ذلك الموقف العسير ، وظل مشتغلا حتى أعجزته الحمى عن الوقوف فانقطع عن العمل بعد انفات وقت انقاذه. وقد فقدنا فيه رفيقاً زكياً رضي الاخلاق. ولم تدركه زوجه الفتاة قبل وفاته . واذكر ان عدة من الضباط الذين

التحقوا مدة فى أركان حربى سقطوا فى الجبهة صرعى .

وتكون اللوحة ناقصة التصوير اذا لم أذكر الزائرين المتتابعين فى كل وقت ولكل غرض . ولست أعني بزوارنا الذاهبين الآتين لاعمال ترتبط بنا بل أولئك المهتمين بمصالح أخرى . فكنت أفتح لكل زائر بابى وقلبي بشرط ان يجيئني حر الضمير . وكان عدد مدعوينا عظيما ، وقلما يمر يوماً بغير زوار . ولا يجيء الزائرون من المانيا وحليفاتها فقط بل يجيئوننا من البلاد المحايدة أيضا بكثرة . وكانت مائدتنا تجمع غالبا مزيجا من الشعوب . واحيانا بجالس القسيس المحمدي المتدين جنبا لجنب . وكان استقبال الجميع وديا . وكنت أضحى لهم جميعا أوقات فراغى القصيرة . وبين السياسيين الكونت تيسزا الذى أحفظ له أجمل الذكرى فقد زارنى فى شتاء ١٩١٦ — ١٩١٧ . وهو ذو ارادة لاتتزعزع ووطنية مشتعلة . وسياسيون آخرون المانيون ومخالفون أوضحوا لى آراءهم . ومع انها كانت غريبة عنى فقد كنت أهتم بها لان جميع أصحابها مخلصون لمسألتنا الكبرى المشتركة . وأتذكر الفاظ الوطنية المتوقدة التى كانوا يتلفظون بها عند مفارقتى . ولقد صافحت الصناع والعمال الملتفين حولى ، وانظارهم المفتحة وكلامهم الحر كانت تسرنى . وكان ممثلو الصناعات الكبرى ورجال العلوم يعلموننا باختراعاتهم أو بمبتكراتهم الحديثة ويستسلمون الى التفكير فى الخطط الاقتصادية المستقبلة ، وينعون على الحكومة عدم مساعدتها اياهم على تحقيق أفكارهم . ولكن رجال الحكومة أيضا كانوا يتململون من شراهة هؤلاء الخياليين فى الانفاق التى يتخوفون منها والتى تذهب دائما فى مشروعات المخترعين الحديثة . وأتذكر ان موظفاً مالياً كبيراً أراد ان يعرف ثمن كل طلقة مدفع من كل عيار ليدرك حساب ماتتقاضاه المعركة الواحدة ولم يشرفنى بنتيجة حسابه

مخافة ان لا أقلل من نفقات ذخائرنا على الرغم من حسابه . ولم يصل الى بابنا فقط المدعوون وذوو الحاجات والاعمال فقط بل وصل اليه ايضا من دفع بهم الفضول . وغالباً ما كنت أضحك في عبي من الالفاظ التي ينتحل بها هؤلاء الفضوليون اعذاراً لزياراتهم ولا أقول ان مساعيهم كانت تكلل بالنجاح دائماً . وعلى النقيض طالما زارنا ضابط قادم من ساحة الوغى وعليه آثارها فكان خير زائر وضيف . والانباء الموجزة التي كان يقصها علينا عن حياة الجبهة كانت أوضح من التقارير الطويلة المكتوبة . فكانت تذكرني غالباً بخشونة عيشتي السالفة . وفي الحقيقة ان المكافحة الحالية وهي أفظع المكافحات التي عرفت الى الآن كل العوامل المادية والادبية بلغت فيها منتهى التطور . فالمعركة التي كانت تلبث ساعات تحولت الى صراع فظيع يستغرق عدة أشهر ويظهر ان الصلابة البشرية لم يعد لها حد .

وزارنا الكونت زبلين فأثر فينا بتواضعه . وكان يعتقد حينئذ مناطيده كسلاح حربي عتيق . ومن رأيه ان مستقبل الطيارات او المحلقات الحربية ، ومات بعد هذه الزيارة بقليل فلم ير عصائب وطننا ، فياله من كهل سعيد! وقبل دعوتنا اثنان آخران من ملوك الهواء صارا شهيرين وهما شابان بطلان ، فقابلني اليوزباشي بولك في بريست ليتوفسك واليوزباشي الفون ريختوفن في كر يوزناخ . وأثر فينا تواضعهما وحريتهما فلتشرف ذكراهما! وكان بين زواري أيضا عدة من قادة الغواصات بينهم اليوزباشي كونيج ربان الغواصة التجارية دويتشلاند .

لقد أتيح لنا الاجتماع بأشخاص كبار من سائر الطبقات ومن جميع العناصر وطالما حسبتني أسمع على مقربة مني قلب جيشنا وقلب شعبنا وقلب المانيا وقلوب حلفائنا تخفق كلها على دقة واحدة .

الحوادث الحربية الى آخر سنة ١٩١٦

حملة رومانيا

لقد استدعى موقفنا السياسي ازاء رومانيا فى السنة الحربية المتداخلة فى عامى ١٩١٥ و ١٩١٦ مجهودات لامثيل لها الا من قبل الحكومة فحسب بل من قبل قيادتنا أيضا . ان التروي خير من التشدد فى الحكم على الذين كانوا مسئولين من قبل فالآن قد قامت الحرب بين رومانيا وبيننا ونحن على غير استعداد لهذه الخصيمة الجديدة . فالذين يجرأون على مثل هذا الانتقاد وهم يجهلون الحوادث الحقيقية يذكرونني بما صرح به فيخت فى خطبه المعنونة «الى الامة الالمانية » اذ يتكلم على هذا النوع من الكتاب الذين لا ينولون مايجب فعله الا بعد طروء الحوادث .

لم يكن من المشكوك فيه ان دول الاتفاق بعد ان دفعتنا الى هذا الموقف تريد ان تبعد خطر رومانيا أو بالاحرى التهديد الناجم عن موقف رومانيا العسكرى الى أكثر من عام ١٩١٥ وانها للتوصل الى دفع رومانيا ضدنا استعملت وسائل مشابهة للوسائل التى اتخذتها ضد اليونان . وكما علمنا أخيراً ان رومانيا أجبرت على الحرب سنة ١٩١٦ بانذار نهائي من دول الاتفاق بان تتخير بين الهجوم على الفور أوالعدول نهائياً عن فكرة توسعها . ولكن هذا النوع من الحل فظيع جداً من الوجهة السياسية اذ لا يجد لدينا محبذين له الا عند الضرورة القصوى . لقد أردنا ان نعامل رومانيا بمنتهى الكرامة لاننا بلا شك كنا نعتقد انها تحفر قبرها بنفسها ! وهذا ماحدث بالفعل ولكن بعد مصائب وضحايا عظيمة حلت بالمانيا !

لقد انضمت رومانيا على أثر تهاوي الجبهة الشرقية النمساوية الى

خصومنا . وربما كنا نستطيع ان نمنع هذا الخطر لو استطعنا ان نحقق الكرة الكبرى على الجناح الجنوبي للجيوش الروسية الذي تقدم الى الكربات ولكن استمرار تداعي الجبهة النمسوية على امتدادها عاقنا عن اتمام هذه الحركة . والقوى المخصصة للكر انزلجت بالتدريج في المعركة الدفاعية . ولكي يتلافى المعسكر العام الاكبر الالماني الازمة التى أحدثتها وقائع الجبهة الشرقيـة اتفق مع القائد جيكوف على ضرب الاعداء في سالونيك بالاستعانة بالجيش البلغاري والفكرة صائبة من الوجهتين العسكرية والسياسية ولو نجحت لارهبت رومانيـا ومنعتها من دخول الحرب ومحو أملها فى الاشتراك مع سرايل . ولو وجدت قوى كافية لدى بلغاريا بعد ضرب سرايل لكانت خير ملجيء لرومانيا الى السكون . ان المعسكر العام الاكبر الالمانى باصداره الامر للبلغاريين بالهجوم قد عمد الى مناقضة نفسه بعض المناقضة من الوجهة العسكرية . فما انه أراد اغضاب رومانيا لانها جانحة بالتدريج الى الحرب فهو مضطر لهـذا الغرض الى حشد قوى فى شمال بلغاريا الا انه فى الوقت نفسه أرسـل الى الداتوب لاسباب سياسية جنوداً كان من الممكن استخدامها فى مقدونيـا فى الهجوم على سرايل. وربما أمكن تفسير هذا العمل بأن المعسكر الاكبر كان يعتقد بقيمة الجيش البلغارى فى الهجوم ويستخف الى حد ما بقوى الاعداء فى صواحي سالونيك. وقد حدث وهم فى أهمية الوحدات الصربية المتألفة حديثاً والتى أنزلت الى خط القتال وعدتها ست فرق من المشاة

وبلغ الجيش البلغارى فى هجومه ستروما بجناحه الايسر أما جناحه الايمن فلم يصل الى فودنا لاسباب لا يسعنا البحث فيها الآن . فأوقفت نتيجة الهجوم المعسكر الاكبر امام حالة جديدة عسيرة . وازدادت رغبـة

رومانيا فى القتال . وصار من المنتظر ان يدعو وقوف الهجوم البلغارى دوائر بوخارست الى تحبيذ الحرب . فوقع المعسكر الاكبر بين أحد أمرين إما ان يبطل الهجوم البلغارى نهائياً ليرسل القوى البلغارية المهمة الموجودة فى مقدونيا الى شمال بلغاريا واما ان يندفع الى نقل قوى الدانوب الى مقدونيا لنصر العقدة الرومانيه بحد السيف . فجاء اعلان رومانيا الحرب منقذا للمعسكر الاكبر الالمانى من حيرته . ولم تكن الحالة أقل صعوبة فى شمال جبال الالب بترانسلفانيا . فبينما كانت رومانيا تتسلح جهرة كانت وقائع الجبهة الغربية الالمانية وجبهتي النمسا الشرقية والجنوبية الغربية قد استغرقت كل القوى الاحتياطية . ولم يكن فى الوسع انتزاع قوى جديدة من الجبهات الاخرى لمواجهة رومانيا . فنجم عن ذلك اننا وجدنا ازاء رومانيا عزلا من السلاح عند ما اشهرت الحرب فى ٢٧ اغسطس . وانما اوردت هذه التفاصيل لاظهار الحالة التى كنا فيها عند اعلان الحرب الرومانية .

ومع ان التحالف الرباعى لم يستطع ان يتخذ الا تجهيزات ناقصة لتدارك الخطر الرومانى فقد اتحد مع ذلك رؤساؤه العسكريون على الوسائل المقتضية عند الاشتباك مع رومانيا . فعقد لهذا الغرض فى ٢٨ اغسطس مؤتمر فى بلبس ضم رؤساء اركان حرب المانيا والنمسا وبلغاريا تقررت فيه خطة القتال والفقرة الثانية ذات الاهمية العظيمة تتضمن ما يأتى نصاً : « اذا انضمت رومانيا الى دول الاتفاق فيكون ، هجوم منتهى السرعة ومنتهى ما يمكن من القوة . أولا لمنع الاغارة على النمسا . ثانيا لنقل الحرب الى رومانيا . ولهذا الغرض ينبغى (١) حركات يصير تنفيذها من الشمال بجنود المانيين ونمسويين لاجتذاب قوى رومانية عظيمة (ب) هجوم

بلغاريي من ابتداء حد دوبريجه على معبر الدانوب وفي سيلستره وتوتراخان لحماية الجانب الأيمن من القوى الاساسية (ت) اعداد القوى الكبرى لعبور الدانوب عند نيقوبولي بقصد مواجهة بوخارست »

كذا جرى الاتفاق فيما بعد مع انور باشا على اشتراك الاتراك في هذه الحملة ووعد باعداد فرقتين حالا وارسالها الى البلقان . ولم يحدث أي تعديل في هذه الخطة مدة تولي سالفي رئاسة اركان الحرب . ولكن حدث تبادل جديد في الآراء مابين رؤساء اركان حرب الجيوش المتحالفة كما أخذ رأي المارشال الفون ماكينزن الذي كان قد تولى قيادة الجنود المحتشدة على الدانوب . فبدا من هذه المفاوضات رأيان . اللواء الفون كونراد يرى الهجوم مباشرة على بوخارست ، والقائد جيكوف يرى انشاء القتال في دوبريجه وكانت القوى المجتمعة على الدانوب أضعف من تأدية المهمة المزدوجة من عبور الدانوب والهجوم على سيلستره وتوتراخان على التعاقب . وفي ٢٨ اغسطس أصدر سالفي الامر الى المارشال ماكينزن بالهجوم حالا وترك له حرية الاتجاه والغرض الذي يقصده . فعندما استلمت الاعمال يوم ٢٩ اغسطس كانت الحالة كما تقدم خطيرة

وفي الحقيقة ما كان يظن ان دويلة كرومانيا يذكرها التاريخ مثل هذا الموقف العظيم في مثل هذه الفرصة الموافقة . وكذا ما كان من المعقول ان دولتين عظيمتين كالمانيا والنمسا تصبحان تحت رحمة بلد لا يبلغ سكانه جزءاً من عشرين جزء من سكانهما . ولم يبق على رومانيا الا أن تسير جيوشها الى اية جهة كانت لتسهيل الفصل في الامر للدول التي تهاجمها منذ عامين على غير طائل . وكان الامر متوقفاً على معرفة ما اذا كانت رومانيا تستفيد من القوة التي حشدتها . ويظهر ان بلغاريا كانت تتخوف

من هذه القوة اكثر من سواها ، وحكومتها مترددة فى اشهار الحرب على رومانيا . ولكنها لم تلبث أن انضمت الينا فى اول سبتمبر فظهرت احقاد الشعب البلغارى القديمة المتخلفة من سنة ١٩١٣ حينما هجمت رومانيا مفاجأة على مؤخرة بلغاريا وهى منهمكة فى مكافحة الصرب واليونان . وكانت وقعة توتراخان اول دليل على صحة عزيمة حليفتنا فى القتال .

و بما ان استعداداتنا كانت ناقصة فالخطة التى اوضحتها فيما تقدم لم تنفذ بالطبع . وكان خصمنا حراً فى حركاته . و بما انه أتم استعداده وقواه هائلة نسبياً وهى تزداد يومياً بمساعدة الروسيا كما نعلم فقد خشينا أن لا نتمكن من تعطيل حرية عمل القيادة الرومانية من مبتدأ الامر ، وكيفما كان اتجاه الهجوم الرومانى سواء على جبال ترانسلفانيا أو على دوبريجه فقد كان أمامها اغراض مهمة وادلة تبشر بالظفر . وكنت أخشى هجوماً روسياً رومانياً على الجهة الجنوبية - وكان البلغاريون انفسهم يشكون فى اقدام جنودهم على قتال الروسيين . ومع ان القائد جيكوف واثق برجاله ولكن هذه الثقة لا يمكن أن تشمل بلغاريا برمتها . والعدو يدرك ان قسما مهما من الجيش البلغارى ميال للروسيين . و بصرف النظر عن هذا فان رومانيا يميل الى مد يدها الى سرايل بانحدارها الى الجنوب . فما يكون موقفنا اذا خال العدو دون اتصالنا بتركيا أو اذا فصل بلغاريا منا ؟ ان تركيا اذا عزلت و بقيت مهددة فى ارمينيا وفى تراقيا ، والنمسا اذا فقدت كل أمل فى النجاح لا تستطيعان أن تتغلبا على هذا الانقلاب الذى أصاب الحالة العامة . فالهجوم الذي قرره سلفى لما كينزين موافق للضرورة الحاضرة ولم يكن من الموافق عبور الدانوب بالقوى الموجودة فى شمال بلغاريا ، بل كان يكفينا أن نهاجم دوبريجه . ونفسد على العدو خطة قتاله . ولادراك

هذا الغرض لا يجب الاقتصار على أخذ توراخان وسيلستره بل وجب علينا ان نستخدم فوزنا فى دوبريجه فى القاء الرعب فى المعسكر الروماني الاكبر بالضغط على مؤخرة قواه الاساسية المشتبكة فى تخوم ترانسلفانيا فافلحنا بتنفيذ هـذه الاعمال كلها . وتقـدم جيش ماكنزين الى خط كونستنزا — كزيرنافودا . فاضطرت القيادة الالمـانية الى استخدام قوى من ميدان ترانسلفانيا الى دوبريجه . بل لقد حاولت الانقضاض بقوى جديدة على مؤخرة ماكنزين من جهة راهوفو باجتياز الدانوب فى اتجاه روسكول . خطة لطيفة على الورق ! والى اليوم لاندرى اذا كان مختطها من القيادة الرومانية أو من دول الاتفاق . ولما نفذ الرومانيون هذا العمل المتخطي حد الحسارة فى ٢ اكتوبر عنت لي هذه الفكرة التى اوضحتها وهى : «اطبقوا على هذه الجنود !» فتحولت رغبتى الى أمر نفذه الالمانيون والبلغاريون . فلم ير الا النذر القليل من الاثنى عشر طابوراً التى اجتازت الدانوب عند راهوفو وطنهم طول مدة الحرب .

وحلت المصيبة على رومانيا لان جيشها لم يهاجم ولان قيادتها لم تدر ماذا تصنع ولاننا تمكننا من حشد القوى الـكافية فى ترانسلفانيا قبل فوات الوقت . نعم كافية امام مثل هذا الخصم ! ولقد ننسب الى الجنون اذا علمت مقادير القوى التى واجهنا بها العدو فى كل مكان ومقدار الجنود التى مزق بها القائد فالكنهاين فى ٢٩ سبتمبر الجناح الغربى الروماني فى هرمانستاد. وعلى أثر هذه الوقعة تقدم القائد فالكنهاين الى الشرق وزحف على كرونستاد مستخفا بتفوق الجيش الروماني ومناعة مواقعه ماراً بسفوح الجبال . فاحجم الرومانيون لفقدهم الثقة في تفوقهم وقدرتهم وتوقفوا في كل جبهتهم ثم تراجعوا اول خطوة . فاستولى القائد فالكنهاين على ناصية

الجبال وكسر مقاومة الخصم فى جنوب جايستر فالد واستمر فى زحفه . فاخلى الرومانيون ترانسلفانيا بعد هزيمتهم فى ٨ اكتوبر فى كرونستاد . فرأينا أن نستفيد من ظفرنا بموالاة الزحف من كرونستاد الى بوخارست رأسا . وعلى الرغم من الجبال الشاهقة القاحلة التى كانت تعترضنا كنا نرى ان الفائدة الناجمة من هذه الحركة فى مستوى الاهمية . فلم ننجح فى هذه المهمة على الرغم من المجهودات العظمى التى بذلها جنودنا للاستيلاء على كل ربوة وقمة بل وصخرة . وتم الاختناق فى ١٧ اكتوبر بسبب قدوم الشتاء معجلا واكتساء الجبال بالجليد واستحالة السير فى الطرق . ومع تحمل جنودنا الآلام وحرمانهم من اغلب وسائل الحياة الضرورية ظلوا محتفظين بما استولوا عليه .

ودلتنا التجارب التى اكتسبناها الى هذا الحين على انتهاج طرق أخرى توصلنا الى قلب ولاية الافلاق . فعرض علينا القائد فالكنهاين ان نخترق رومانيا من مجاز زوردق السكائن فى القسم الغربي من الجبال . وهذا الاتجاه ليست له فائدة حربية كبيرة الا انه السبيل الوحيد فى الحالة الراهنة من وجهة الخطة والفن العسكريين . فدخلنا رومانيا فى ١١ نوفمبر باقتحام هذا المجاز . وكان المارشال ماكنزين فى هذه المدة قد تأهب فى جنوب الدانوب للاتصال بقوى اغارتنا القادمة من الشمال . نهزم فى ٢١ اكتوبر الجيش الروسي الروماني فى جنوب سكة حديد كونستنزا — كزرنافودا هزيمة تامة . وفى ٢٢ اكتوبر سقطت كونستنزا فى قبضة الجيش الثالث البلغاري فارتد العدو الى الشمال . أما نحن فوقفنا هجومنا عند الخط الحديدي المذكور وتركنا فيه قوة ضعيفة كافية لحمايته ونقلنا بقية القوة الى سيستوف . وفى الحقيقة كان الاستيلاء على كل دوبريجه حالا مهمة كبيرة ثم الاغارة

فيما بعد مع المرور على برايلا على البقعة الكائنة في شمال الدانوب للانقضاض على مؤخرة القوى الرومانية الكبرى . ولكن كيف السبيل الى نقل الأدوات الحربية الى القسم الشمالي من دوبريجه ؟ لا توجد خطوط حديدية في هذه الجهة وسكة حديد الدانوب تعترضها بطاريات الشاطيء الشمالي الرومانية . ويجب ان نشكر القدر على عدم فتك البطاريات الرومانية باداة نقل اثقالنا الوحيدة التي ظلت عدة اشهر على مرمى القذائف الرومانية في جهة سيستوف وهي غلطة غير مفهومة من اعدائنا . فمن الممكن اذن عبور النهر من هذه النقطة على الاقل . وفي فجر ٢٣ نوفمبر عبر المارشال ماكينزن الدانوب الى الشاطيء الشمالي . فتم اتصاله بالقائد فالكنهاين حيث اجتمعا في معركة ارجيش وسحقا القوى الرومانية الكبرى . وكان آخر الاعمال في ٦ ديسمبر اذ سقطت بوخارست بدون مقاومة . وختمت تقريري في مساء هذا اليوم بهاتين الكلمتين : « يوم اغر ! » وعندما خرجت من مكتبي مساء كانت اجراس الكنائس ببليس تقرع شكراً لله على انتصارنا الجديد العظيم . وكنت من مدة قد تخليت في امثال هذه الاوقات عن التفكير في غير ما قامت به جنودنا من الاعمال العظيمة وما ينبغي ان تقوم من الاعمال الاخرى التي تدنينا من نهاية صراعنا الشاق وضحايانا العظيمة.

لقد حسبنا ان الاستيلاء على العاصمة الرومانية سيكون حربياً اكثر مما حدث اذ حسبناها قلعة حصينة جلبنا لها مدافع من اكبر العيارات واذا بها مدينة مفتحة الابواب . ان جواسيسنا في وقت السلم الذين جعل لهم اعداؤنا اهمية كبرى لم يكونوا قبل هذه الحملة يحسبون ان بوخارست غير مسلحة ! ان مآل رومانيا انتهى بحالة فاجعة . فالعالم اجمع وعلى الاخص رومانيا يدرك حقيقة المثل القائل : « ان من يرد ان يكون تعسا في الحرب

فلينا زل المانيا .» ولكني بذكرهذا البيت الشعري لا اريد ان ابخس النمسا وبلغاريا وتركيا حقهم في هذا العمل العظيم البديع . ولقد ادرك حسن الحظ رومانيا بنجاة بقايا جيشها بفضل النجدات التي ارسلتها اليها الروسيا . ولقد حلمت بان ترى الروسيا معترفة لها بالجميل كما حدث في عام ١٨٧٨ في ميدان بليفنا الا ان الحقيقة ازالت هذا الحلم لان الزمن كان قد تغير .

وكنت قد اوضحت في اواخر اكتوبر ١٩١٦ لرئيسي الاعلى الجليل ان الحملة الرومانية تنتهي في نهاية العام . وفي ٣١ ديسمبر رفعت تقريري لصاحب الجلالة بان جنودنا بلغت السيريت وان البلغاريين استقروا على الشاطىء الجنوبي من دلتا الدانوب وبذلك وصلنا الى الغرض المقصود .

مصادمات على الجبهة المقدونية

لقد ازدادت مصاعب موقفنا العسكري في خريف ١٩١٦ بمصادمات مقدونيا . لقد اخطأ جيش سرايل بعدم هجومه عند ما أعلنت رومانيا الحرب اذ كنا نتوقع هجومه في وادي الواردار . فلو تقدم الى جرادسكو لاستولى على نقطة ملتقى المواصلات البلغارية المهمة ولمنع الجيش البلغاري من البقاء في مونستير . الا ان سرايل اضطر على ما يظهر ببواعث سياسية الى الوثوب في اتجاه مونستير . فأجلت هذه الوثبة الجيش البلغاري عن المواقع التي احتلها خلال اغسطس في جنوب فلورينا ثم انجلى عن مونستير ولكنه بقي في شمال هذه المدينة . فارسلنا نجدات مستمدة من جهات أخرى وكانت مخصصة في الاول للحملة الرومانية الى بلغاريا وعددها

عشرون طابوراً وعدة بطاريات خفيفة وثقيلة ، وهي قوة بسيطة بالنسبة لمجموع قواتنا الا انها جاءت في وقت لم ندخر فيه رجلا ولا مدفعاً .
وكذلك اتحدت تركيا بلغاريا بقلب مخلص ، فخلاف القوة المخصصة منها للحماية الرومانية ارسل انور باشا فيلقاً برمته ليمكن بلغاريا من سحب جنودها من جهة ستروما . فاستقبلت بلغاريا هذه المساعدة بتبرم خشية ان تطالب تركيا بتعويض سياسي . فأكد لنا انور باشا معارضته لمثل هذه المطالب السياسية . وبالطبع ان بلغاريا كانت تفضل تعضيد المانيا ولكن ذوي الشأن في صوفيا كانوا يجهلون عدم استعداد المانيا لهذا العمل في هذا الوقت .

ولم يكن لفقد موناستير اهمية عسكريه . وتراجع البلغاريين الى موقع برليب الحصين جداً كان مفيداً للبلغاريين من جهة التموين ومتعبا من هذه الوجهة لخصومنا . ان الازمات التى لحقت بالبلغاريين في معاركهم الاخيرة مرجعها الى صعوبة مواصلاتها مع مؤخرتها وقلة المؤن والذخائر ونقص وسائل الحضارة فى هذه البلاد . لقد اشتبك البلغاريون لاول مرة فى موناستير فى معارك دفاعية شديدة واخبرنا ضباطنا ان الجنود البلغاريين متشبعون بروح الهجوم الباهر . ودلتنا هذه المعارك على ان البلغاريين مصابون ببعض التأثير من استمرار اطلاق المدافع مدة طويلة . وليست هذه المسألة مدهشة فانها تحدث لدى كل الشعوب التى تدخل الحرب بقوى لا تزال على حالتها الطبيعية . ولا يمكن تحمل هذه الحالة الا اذا كانت الجنود المحاربة قد حصلت على قوة ارادة كافية بطريق التلقين والتدريب . ففي الجيش الالماني توجد قوة عضلية بانضمامها الى التعليم الراقي والى استعداد الادوات الحربية الكافى تمكنه من تحمل تأثيرات

القتال الجديد المماثلة . وكان رئيس القيادة البلغارية عالماً بهذا الجانب الضعيف من جنوده وقد اوضحه لى بصراحة وبين لى مايشغل باله من هذا القبيل وان كان ذا طبع قليل التأثر

في الميادين الاسيوية

ان المهمة الموكولة الى رئاسة أركان الحرب الاكبر للجيش الالمانى حديثاً باسم ادارة الحرب العليا شغلتنا أيضاً بمسائل الحرب الاسيوية . ففى أوائل سبتمبر ١٩١٦ حينما كان أنور باشا موجوداً فى معسكرنا الاكبر أدركنا ان الحالة فى آسيا كالآتى : وقفت الروسيا هجومها فى أرمينية على أثر وصولها الى خط طرابزون ازربيجان ، والهجوم التركى الذى حدث فى الصيف التالى فى اتجاه الشمال صادراً من ديار بكر ضد الجناح الايسر للهجوم الروسى لم يتقدم بالنظر لحزونة الارض ولصعوبة التموين . ولتبكير الشتاء فى هذا العام ينتظر كف الروس حركاتهم فى سهل ارمينية الجبلى والاخلاد الى السكون التام .

لقد أصيبت القوى التركية فى القوقاز بخسائر فادحة تحملت بعض الفرق التى ما سيركن الا هم بسبب قلة المئونة والملبس والخسائر الدموية والفرار من الجيش . ونظر أنور باشا بانزعاج الى اقبال الشتاء لعدم وجود الملابس اللازمة لجيشه ولصعوبة التموين الفائقة كل حد فى هذه البقاع التى خلت اغلبها من السكان . بالنظر لخلو هذه البلاد الجبلية المقفرة المحرومة من الطرق من حيوانات النقل والذبائح كان لابد من نقل أدوات الحرب ومواد الغذاء والذخائر بواسطة جنود نقل خصوصيين يستمرون على السير مسافات طويلة على مراحل عديدة . وكانت كذلك بعض النساء

والأولاد يتمن بهذا العمل تلقاء أجر نافه ولكنهن لا يلبثن ان يقضين نحبهن من شدة التعب .

وكانت الحالة أحسن في العراق حينئذ . ولم يكن الانجليز قد أتموا تمهيد الطرق التي تمكنهم من الهجوم للثأر من هزيمتهم في كوت العماره . ومع ذلك لم نكن نشك في حدوث هذا الهجوم بعد حين . غير اننا لم نكن عالمين بقدرة الاتراك على صد هذا الهجوم المنتظر واحراز الظفر . وعلى الرغم من تفاؤل المعسكر الاكبر التركي فقد شددنا في مطالبته بتقوية جبهته في تلك الجهة . ومن سوء الحظ ان تركيا أرسلت فيلقا برمته الى فارس لاسباب سياسية و بواعث اقتضتها حركة الجامعة الاسلامية فانتهجت سبيلا سيئاً .

والميدان الاسيوي الثالث في جنوب فلسطين كان يحدث لنا مشاغل خالية لان الحملة الثانية التركية على قناة السويس أخفقت في أوائل اغسطس ١٩١٦ في وسط شبه جزيرة سينا اذ طردت القوات التركية بالتدريج من هذه الناحية حتى وصلت الى جنوب فلسطين في ضواحي غزه . ولا يمكن معرفة الزمان والمكان اللذين سيصير الهجوم فيهما الا متى أتم الانجليز الخط الحديدي الذي يصل قواتهم الزاحفة على فلسطين بمصر . وكان هذا الهجوم أدعى الى تخوف تركيا من الوجهتين السياسية والعسكرية من ذلك الهجوم البعيد في العراق و يمكن الاعتداد بان فقد أورشليم — حتى بدون التفات الى مايحدثه في سائر القسم الجنوبي من البلاد العربية — يجعل السياسة التركية أمام محنة لا يمكنهم ان تتحملها .

ومن الاسف ان موقف القتال في سوريا لم يكن لتركيا احسن من موافقها في العراق فان نقص وسائل النقل في الجهتين على حد سواء

— وهو نقص على نقيض الحالة لدى خصيمتها — ولو لم تصب به لانعشت جنودها بمواد الغذاء ومياه الشرب . ولقد كانت حالة التموين سيئة وقتياً في سوريا ففضلا عن سوء المحصول وقلة الحساب في التقدير كان السكان العرب معادين للحكومة . ولقد حاولوا اقناعي اثناء الحرب بضرورة الدفاع عن سوريا والعراق بقوى عظيمة بل واتخاذ خطة الهجوم فيهما .

ان الشعب الالماني كان شديد الاهتمام بهذين الميدانين . فكانت افكاره تحلق في جو الاوهام مندفعة من العراق الى فارس ومن الافغان الى الهند ومن سورية الى مصر .

وكانوا يتناولون الخريطة ويتوهمون المقدرة بالتمكن من هذه السبل على تناول الاعصاب الحيوية للمركز الذي تشغله انجلترا في العالم وهو المركز الذي يحرجنا . وربما كانت هذه الافكار هي خطط نابليون القديمة . ولتحقيق هذه الخطط لا بد من خطوط تموين كافيه .

الجبهتان الشرقية والغربية الى آخر عام ١٩١٦

بينما نحن نسحق رومانيا كانت الهجمات الروسية متتابعة في الكربات وغاليسيا . فقد استسهلت الروسيا موالاة هجماتها في الجبهة الغاليسية عن مساعدة حليفتها في ترانسلفانيا على انها ساعدت رومانيا في دبرجه من المبدأ . وكانت ترمي الى غرضين أحدهما سياسي والآخر عسكري . اذ كانت الروسيا تهتم بميل الجنود البلغارية اليها ولكن الجنود البلغاريين قابلوا الضباط والعساكر الروسيين بالرصاص . وكانت الروسيا لا ترى غضاضة في استيلاء الرومانيين على ترانسلفانيا ولكنها لا تريد ان تراهم يصرعون بلغاريا وحدهم ويفتتحون القسطنطينية أو يفتحون طريقها على

الاقل لان هذا نصيب الروسيا التاريخي

لقد حسبت الروسيا انها عطلت دول الوسط بل جعلتهم غير قادرين على القتال . أما الحقيقة فهي ان الهجمات الروسية لم تبلغ كل أغراضها ولكنها عرضتنا لازمات خطيرة .

وما كان يهمنا فى خططنا العامة ان نفقد بعض مساحات من الاراضى لولا وجود آبار البترول التى لا غنى عنها لاستمرار أعمالنا الحربية وراء خطوطنا . وهذا ما اضطرنا الى جلب قوى الى هذا الميدان من الوحدات المخصصة للهجوم الرومانى ولقد توقعت ان دخول رومانيا الحرب سيجعل الفرنسويين والانجليز يشتدون فى هجومهم على جبهتنا الغربية وهذا ما حدث بالفعل . و بعد تعييني بقليل فى المعسكر العام استصدرت توقيع الامبراطور على أمر بابطال الهجوم على فردان لانه لن يؤدى الى أية نتيجة حاسمة بل يظل كجرح لا يندمل . واليوم لا أحجم عن القول بأنه كان يجب ان نتخلى باراد تنا عن قسم من الاراضى المفتتحة امام فردان لاصلاح مركزنا . غير انى لم أقدم على هذا فى خريف ١٩١٦ للمحافظة على الحالة الادبية لدى شعبنا . وكنا نحسب ان العدو يلتزم الدفاع اذا تركنا الهجوم فخاب ظننا لان الفرنسويين قاموا فى آخر اكتوبر بكرة حادة على شاطىء المىز الايمن وانقضوا على خطوطنا ففقدنا دو ومون ولم نستطع ردها لقلة الجنود . وفى هذه الكرة ترك العدو عادته القديمة واقتصر على اطلاق المدافع وقاذفات الالغام مدة قصيرة ولكن بمنتهى السرعة التى فى وسع الانسان والآلات المستعملة ثم هجمت القوة المستورة وراء التمهيد على خصومها الذين التجأوا الى مخابئهم من هذا الهول العظيم . ولم تنته وقائع فردان الا فى ديسمبر

. وفى أواخر أغسطس اشتدت معركة السوم وتحولت الى صراع جبهي .

ولم يكن في وسع المعسكر العام سوى أن يقدم العساكر اللازمة . وكانوا يطلقون عندنا على مثل هذه المعركة اسم « معارك المهمات الحربية »

وإذا كان خصومنا لم يتوفقوا فيما بين ١٩١٥ و١٩١٧ الى ادراك الفوز الحاسم فما ذلك الا لضيق عقل قيادتهم اذ لم تكن تعوزهم الرجال والمواد الحربية . وزيادة على ذلك ان خصومنا الغربيين حاصلون على كل ما يلزم من الخطوط الحديدية والطرق المنتظمة .

وفي مستهل سبتمبر طفت الجبهة الغربية مع القائد لودندورف لمعرفة شؤون المكافحة في هذا الميدان لتدارك وجه الضعف . وانضم الينا سمو ولي العهد في الطريق ، وقد التقيت به مراراً فيما بعد . وفي كمبريه سلمت عصا المارشاليه بأمر الامبراطور الى القائدين الاميرين ولي عهد بافاريا وورتمبرج . ثم تفاوضت ملياً مع رؤساء اركان حرب جيوش الجبهة الشرقية . فطلبوا التعجيل بتلافي الخطاطنا في الطيران والسلاح والذخائر فتغلبت همة القائد لودندورف على هذه الازمة . ثم فرحت بسعي من الضباط فيما بعد بان مفاوضة كمبريه اثمرت . وقد علمت في هذه السياحة جسامة المجهودات الملقاة على كواهل جيوشنا في الجبهة الغربية . ومع ذلك فقد سأموا جميعاً هذا الجود وأرادوا الهجوم المقرون بالنصر . كثيرون منهم ماتوا في خنادقهم دون ان يروا ما يأملون .

ولم يبدأ الصراع في منطقة السوم الا بهطول الامطار التي منعت السير . ولقد استعصى ابتهاج الظفر على الخصمين اذ كان شبح هذه المعركة الهائل يروع المقاتلين . ويخطى هول هذه المعركة اهوال فردان !

تم الجزء الاول ويليه الجزء الثاني

